مكتبة الدارة المئوية



رحلة داخل الجزيرة العربية



يوليوس أويتنج

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية



رحلة داخل الجزيرة العربية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أويتنج، يوليوس

رحلة داخل الجزيرة العربية/يوليوس أويتنج، ترجمة سعيد فايز السعيد، - الرياض.

٢٦٤ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك:× - ٢١-٦٩٣-٩٩٦٠

١- السعودية- وصف رحلات ٢- أدب الرحلات أ- السعيد، سعيد فايز (مترجم) ب- العنوان.

ديوي ٩١٥,٣١٠٤ ١٩/١٣٥٩

رقم الإيداع:١٩/١٣٥٩

ردمك:×-٢١-٦٩٣-٩٩٦٠

Euting, Julius

Tagebuch einer Reise in Inner-Arabien

mit einem Nachwort versehen von Kerstin und Uwe Pfullmann

Herausgegeben und

SOLDI-Verlag

KnoopstraBe 8

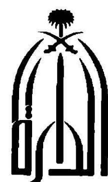
2100 Hamburg

Erscheinungsjahr 1993

1.Auflage

ISBN 3-928 028-38-3

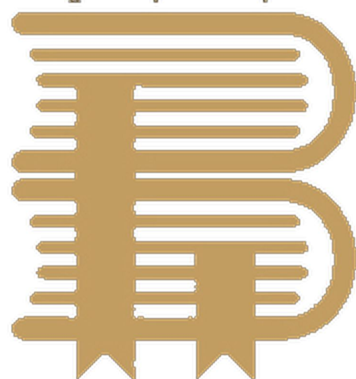




دارة الملك عبدالعزيز

رحلة داخل الجزيرة العربية

يوليوس أويتنج



حرّر أصله بالألمانية

كرستين وأوفه بفلمن

ترجمه وعلّق عليه

د. سعيد بن فايز السّعيد

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس من مائتين واثنين وستين عاماً، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتداداً لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق - الله تعالى - وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد - التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً - لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- و أبناؤه من بعده؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم؛ و إيضاحاً لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي، ومن نهضة زاهرة. وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة "مجموعة المكتبة المئوية" التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة.

وفي الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

مقدمة الدارة

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد .

فإضافة إلى ما أصدرته - وماتزال تصدره - دارة الملك عبدالعزيز من مؤلفات الرحالة عن المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية ، يسـر الدارة أن تقدم للقارئ أول ترجمه عربية ليوميات رحلة المستشرق الألماني (يوليوس أويتنج) إلى شمال الجزيرة العربية عام ١٨٨٣ - ١٨٨٤م والتي تمكن خلالها من زيارة كاف ، والجوف ، وحائل ، وتيماء ، وتبوك، والحجر (مدائن صالح)، والعلا، والوجه ونقل إلينا صورة اتسمت بدقة الملاحظة وعمق الرؤية عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيها آنذاك، إضافة إلى معلومات نادرة عن تاريخ وجغرافية تلك البلاد وأحوالها السياسية.

لقد اعتمد في هذه الترجمة على النسخة التي قام بتحريرها (كرستين وأوفه بفلمن) ونشرت عام ١٩٩٣م عن دار سولدي للنشر . وهذه النسخة هي نقل حرفي مختصر عن أصل يوميات رحلة (أويتنج) إلى الجزيرة العربية التي نشرت في جزأين ، الأول نشره المؤلف عام ١٨٩٦م، أما الجزء الثاني فقد عني بنشره المستشرق الألماني (إينو ليتمان) بعد وفاة المؤلف بعام ، وقد تميزت النسخة الجديدة بتركيزها على سرد وقائع الرحلة منذ أن وطئت قدم المؤلف بلدة كاف في شمال المملكة العربية السعودية إلى أن غادر ميناء الوجه في اليوم الرابع عشر من شهر أبريل من عام ١٨٨٤م .

والدارة وهي تنشر النسخة المختصرة لرحلة (أويتنج) تأمل أن يتم نشر الرحلة في جزأيها الكاملين لما لها من أهمية وعلاقة بتاريخ المنطقة .

في الختام تأمل دارة الملك عبدالعزيز أن تسهم المعلومات الواردة في هذا الكتاب في إلقاء الضوء على جوانب من تاريخ تلك المنطقة ، وأن يجد القارئ فيها ما يفيده عن تاريخ تلك الفترة .

والله الموفق

أمين عام دارة الملك عبدالعزيز

د . فهد بن عبدالله السماري

مُقدّمة الترجمة

إن من يقرأ وقائع رحلة المستشرق الألماني (يوليوس أويتنج) التي قام بها إلى شمال الجزيرة العربية عام ١٨٨٣ - ١٨٨٤م لن يجد صعوبة في التعرف على أن الهدف الحقيقي من وراء قيامه بهذه الرحلة التي قطع من أجلها آلاف الأميال وتكبد خلالها الصعاب هو هدف علمي بحت ، فقد أدت رغبته في جمع النقوش ودراسة الكتابات العربية القديمة إلى قيامه بهذه الرحلة الشاقة إلى جزيرة العرب ، وسيلحظ القارئ أن المؤلف حرص كل الحرص على نقل واستنساخ كل نقش وقعت عينه عليه ، كما قدم وصفاً دقيقاً لكل موقع أثري مر به .

وعلى الرغم من أن الهدف من رحلة (أويتنج) إلى شمال الجزيرة العربية هو جمع واستنساخ النقوش العربية القديمة ونقلها معه إلى المراكز العلمية في بلده ، إلا أنه مع ذلك كان حريصاً على التعرف والتعريف بما مر به من بلاد وعباد ، وتسجيل كل ما رآه وسمعه أولاً بأول خلال رحلته التي استغرقت ما يربو على ثمانية أشهر متتالية قضاها متنقلاً في أرجاء متفرقه من شمال جزيرة العرب .

لقد اعتمد (يوليوس أويتنج) في كتابته ليومياته على أسلوب الوصف العلمي السليم الذي يقوم على أساس المشاهده الواقعية ويبتعد عن أسلوب الخيال القصصي ، وسيلحظ القارئ أن المؤلف حرص على تقديم وصف دقيق للمدن والقرى التي زارها والطرق والمسالك التي سار عبرها ، ومناهل الآبار وموارد المياه ، والجبال والصحراء ، والآثار ، والمباني ، والقلاع ، والحصون ، وأحوال الطقس ، كما حرص المؤلف أيضاً على تقديم وصف مفصل للعادات والتقاليد وأحوال المعيشة للمجتمعات التي زارها ، وهو لايكتفي في كثير من الأحيان بمجرد الوصف ونقل مشاهدته اليومية ، بل إنه يُسخر موهبته الفذة في فن الرسم ؛ لينقل إلينا صورة واقعية لمعلم ، أو شخص ، أو خلافه ، مما سيجده القارئ مرفقاً في متن هذا الكتاب .



والكتاب في نهاية الأمر بما يتضمنه من معلومات نادرة وقيمة قد لا نجدها في أي مصدر آخر يفيد المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع وعالم الاقتصاد .

في الختام أتوجه بالشكر إلى سعادة أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الدكتور فهد بن عبدالله السماري الذي تابع العمل منذ بدايته بالإرشاد والتوجيه ، وأفاد من علمه وخبرته في مراجعة هذا الكتاب ، كما أشكر أيضاً الدكتور حمد بن ناصر الدخيّل والدكتور عبدالله بن محمد المطوع لتفضلهما بمراجعة متن الترجمة .

والله ولي التوفيق

د . سعيد بن فايـز السـعيد
جامعة الملك ســعود - كلية الآداب

يوليوس أويتنج

١٨٣٩ - ١٩١٣

ولد يوليوس أويتنج في ١١/ يوليو/ ١٨٣٩م بمدينة شتوتجارت بألمانيا ، وحصل على الشهادة الجامعية - بعد أن درس في معهدي بلاوبويرن وتوبنجن - في العلوم الدينية من جامعة فورتمبرج ، بيد أن دراسته الدينية لم تستحوذ على رضاه التام ، فقد كان يفضل دوما أن يصبح رساماً ، ولاسيما أنه يملك موهبة فذة في رسم المناظر الطبيعية ، كما يتضح ذلك من خلال رسومه الرائعة .



يوليوس أويتنج

اتجه أويتنج بعد أن أنهى دراسته الدينية إلى تعلم اللغات الشرقية ، ورغبة منه في تعميق معارفه في تلك اللغات سافر إلى جامعة باريس ولندن و إكسفورد. كان أويتنج خلال دراسته يخطط لزيارة الجزيرة العربية، ولكن ذلك لم يتحقق بسبب نقص موارده المالية .

وفي عام ١٨٦٦م بدأ أويتنج حياته العملية موظفاً في مكتبة معهد مدينة توبنجبن. كما قام خلال الفترة ما بين ١٨٦٧ - ١٨٧٠م بالعديد من الرحلات

شملت آسيا الصغرى واليونان وسردينيا وتونس ، لدراسة النقوش السامية القديمة وجمعها والتي أودع الكثير منها في جامعة القيصر فلهلم في شتراسبرج .

عُيّن أويتنج بعد نهاية الحرب الألمانية - الفرنسية (١٨٧٠ - ١٨٧١م) التي انتهت باتحاد ألمانيا وانضمام منطقة ألزاس - لوثرنجن إليها مديراً لمكتبة القيصر الجامعية.

وفي عام ١٨٧٤م سافر الدكتور أويتنج برفقة صديقه البروفيسور نولدكه - بناء على اقتراح من عالم اللغات المصرية القديمة رتشارد لبسيوس - لحضور مؤتمر الدراسات الشرقية في لندن. وفي عام ١٨٨٠م عين أويتنج أستاذاً (بروفيسوراً) في كلية الفلسفة بجامعة شتراسبرج.

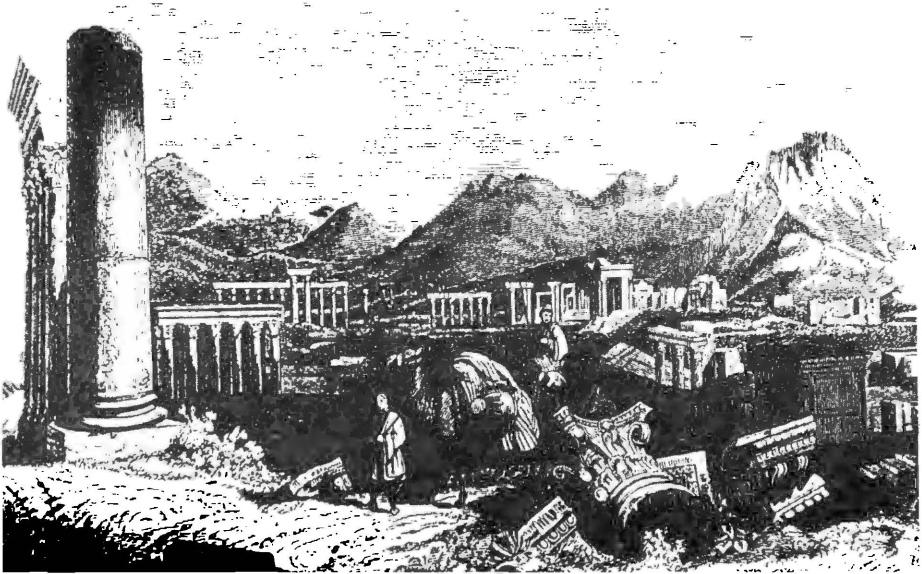
وفي عام ١٨٨٢م بدأ أويتنج يخطط من جديد لـزيارة الجزيرة العربية ، وقد ازداد حماسه للقيام بهذه الرحلة الخطيرة بعـد أن علـم أن الرحالـة الإنجليزي تشارلز داوتي (١٨٤٣ - ١٩٢٦م) قام بزيارة مدائن صالح واكتشف هناك العديد من النقوش النبطية .

قرر أويتنج الرحيل إلى الجزيرة العربية برفقة الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر (١٨٣٧- ١٨٨٤م) الذي سبق له زيارة الجزيرة العربية في الفترة ما بين ١٨٧٨ - ١٨٨٢م على الرغم من أن التعاون بين العالمين لا يخلو من الصعوبات ، نظرا لأن هوبر من مواليد مدينة شتراسبرج الواقعة ضمن منطقة ألزاس التي احتلتها ألمانيا مؤخراً ، ذلك الاحتلال الذي جعل هوبر يفضل حمل الجنسية الفرنسية على البقاء تحت سلطة المحتل الألماني . من أجل أن يكون أويتنج مستقلاً اقتصادياً عن هوبر الذي تولت وزارة التربية والتعليم الفرنسية تكاليف رحلته العلمية إلى الجزيرة العربية، فقد قام بتقديم طلب للسلطات الألمانية يلتمس فيه منحة مالية لتغطية مصاريف رحلته ، حيث وجه خطاباً إلى عامل القيصر في منطقة الزاس - لوثرنجن السيد إدون فون منتويفل طلب فيه مبلغ ١٢ ألف مارك دعماً لرحلته إلى جزيرة العرب، وكذلك إجازة مدفوعة الراتب من عمله أستاذاً في الجامعة . بعد أن لاحظ لاحقاً أن ذلك المبلغ لا يكفي - ولاسيما إن هو أراد الاحتفاظ باستقلال اقتصادي تام عن رفيق رحلته هوبر الذي

يعمل لصالح الحكومة الفرنسية - قام من جديد بتقديم طلب آخر إلى مكتب الشؤون الداخلية للرايخ الألماني، ولكن طلبه قوبل بالرفض. بيد أن مشروع أويتنج في الرحيل إلى الجزيرة العربية قد تحقق من خلال تلك المساعدة التي قدمها له عامل القيصر إدون فون منتويفل ، إضافة إلى أن الملك كارل فون فورتمبرج قدم له عدداً كثيراً من الأسلحة ،كان أغلبها بمثابة هدايا إلى ابن رشيد أمير حائل . وقد وصف أويتنج - في خطاب بعثه إلى سكرتير الدولة السيد فون هوفمن يطلب فيه أيضاً مساعدة مالية لتغطية مصاريف رحلته - التعاون المزمع بينه وبين هوبر بأنه (لن يثير مشاكل على الإطلاق ، لكون اهتمامات هوبر تنصب على أشياء لا علاقة لها بالكتابات والنقوش القديمة ، وأنه (أي هوبر) لن يواجه صعوبات في تحديد الأطر الجغرافية لموضع ما ، ولاسيما إذا ما استخدم جهازي مقياس الدرجات ، وميل الزوايا ، ومن ثم إجراء بعض العمليات الحسابية اللازمة لذلك ، أما فيما يخص النقوش والكتابات القديمة فعلى الرغم من أنه قام بنسخ بعضها أثناء رحلته الأولى إلى جزيرة العرب فلا علم ولا دراية له بها ، كما هو الحال بالنسبة لي فيما يخص العلوم الطبيعية، حيث تنقصني المعلومات التخصصية ، فعلى سبيل المثال حينما أقوم بعمل خريطة ما فإنني أعتمد على تقديرات غير دقيقة ، لذلك فلن تحدث بيننا خلال الرحلة المزمعة أي منافسة، بل إن المعارف التي يملكها كل منا يكمل بعضها بعضا كما ينبغي) .

وعلى الرغم مما ذكره أويتنج في رسالته تلك إلى سكرتير الدولة التي كان يأمل من خلالها تحقيق تعاون ألماني فرنسي مثمر فإن ذلك لم يتحقق بالقدر المطلوب ، فقد حاول هوبر أن يعيق أويتنج من مواصلة رحلته إلى الحجر والعلا ، و تسبب في عدم رجوعه إلى حائل مرة أخرى ، وقام بنسخ نقوش يعلم أن أويتنج يريد استنساخها ، وتعمد أيضاً ترك السلم في مدائن صالح ونصح أويتنج بألا يأخذه معه إلى العلا ، كما كان يقول للعرب هناك إن أويتنج خادم له، وحسب ما ذكر أوينتج نفسه فقد كان هوبر منذ أن بدأت رحلتهما من شتراسبرج في ٢٢/مايو/١٨٨٣م بمثابة ضيف عنده . ولعل ما جعل أويتنج يتحمل كل ذلك من هوبر - رغم أنه مستقل من الناحية الاقتصادية عنه - هو حاجته إلى الاستفادة من معرفة هوبر المسبقة

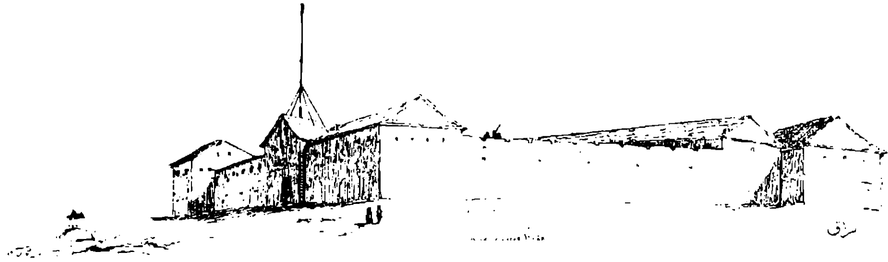
بجزيرة العرب وتجربته في التعامل مع الناس الذين تعرف عليهم هناك .



أطلال مدينة تدمر الأثرية

خلال شهري يوليو وأغسطس من عام ١٨٨٣م أقام أويتنج في المدينة الأثرية (تدمر) حيث قام بنقل أحد نقوش الكنائس هناك. وفي نهاية شهر أغسطس من عام ١٨٨٣م انطلقت الحملة الصغيرة المكونة من أويتنج وبعض الخدم إلى دمشق عبر طريق الحج (الشامي) ، وحينما وصلوا إلى خان دنون تركوا الطريق لينتهي بهم المطاف في يوم ٣١/أغسطس / ١٨٨٣م في براق (آخر القلاع التركية) ، وقبل أن يصل أويتنج إلى براق بمسافة قصيرة تعرض لهجوم فقد على إثره بعض مقتنياته . وأقام أويتنج في براق حتى وصل هوبر في يوم ٤/سبتمبر من دمشق ، وفي محاولة منهم للحاق بقافلة الملح المتجهة إلى (كاف) انطلقوا مسرعين من الحامية التركية عبر أطراف منطقة اللجة نحو جبل الدروز (حوران) حتى وصلوا إلى عرمان في الطرف الجنوبي من منطقة حوران . وفي يوم ٨/سبتمبر غادروا مع القافلة الموجودة

هناك إلى (كاف)، حيث وصلوا بعد يومين متتالين من المسير إلى أهم مواطن تجارة الملح في الجزيرة العربية .



قلعة براق

وفي يوم ٥/أبريل/١٨٨٤م وصل أويتنج - والسعادة تغمره - إلى ميناء الوجه التي أقام فيها مدة أسبوع كامل حتى تمكن في يوم ١٤/أبريل/١٨٨٤م من الإبحار في إحدى السفن التي رست في اليوم التالي في ميناء القصير[1] على الساحل الإفريقي وهي في طريقها إلى خليج الدميغة الواقع قبالة مدينة أنقرة التركية ، وبعد مسيرة خمسة أيام على الجمال وصل أويتنج إلى قنا الواقعة على نهر النيل ، ومن هناك ركب الباخرة إلى أسيوط ، ومنها استقل القطار إلى القاهرة ثم بورسعيد ، ثم يافا ، ثم القدس ، ثم سمرانا ، ثم أثينا ، ثم بيتراس ، وأخيراً من تريست إلى ألمانيا .

أما بالنسبة إلى صديق رحلته هوبر فقد اغتيل في يوم ٢٩/يوليو/١٨٨٤م بالقرب من جدة . وقد وصف خادمه محمود الحادث فيما بعد للقنصل الفرنسي في جدة ، حيث ذكر أن هوبر كان معه دليلان سيرافقانه خلال رحلة جديدة سيقوم بها داخل الجزيرة العربية، وأنهم استعـ... قبله، ... هوير ... بينما ظل ... و ... سير حيداً مع القافلة ، وحينما وصل خادمه محمود ... في

(١) تقع القصير على الساحل الغربي للبحر الأحمر على خط ٠٦ ٢٦ شمالاً وخط ١٧ ٢٤ شرقاً.

يوم ٢٩/يوليو إلى المكان الذي اتفقوا على الالتقاء فيه وجد هوبر ممدأ هناك على الأرض ، وقد أطلق عليه بضع رصاصات من مسدس . وقام الجناة باحتجاز خادمه محمود مدة يومين، ولكنه تمكن من الإفلات منهم .



تشارلز هوبر

أدى اغتيال هوبر إلى تحرك الدبلوماسية الفرنسية ، فأصدرت الأوامر إلى قنصلها في جدة السيد منسور دي لوستالوت بأن يحافظ على كل مقتنيات هوبر التي من بينها حجر تيماء الشهير(مسلة تيماء) الذي اكتشفه هوبر خلال رحلته الأولى إلى جزيرة العرب في عام ١٨٧٩م، ولكن أويتنج طالب باستعادة الحجر بناء على اتفاق مسبق بينه وبين هوبر، مما جعل القنصل الفرنسي بجده يقوم بإرسال مقتنيات هوبر كافة إلى فرنسا على وجه السرعة .

وفي عام ١٨٨٥م كان عالم اللغات الشرقية الهولندي البروفيسور سنوك هورخرونيه - والذي كان يعد كتابه عن مكة من أهم ما كتب في هذا الموضوع - يقيم في مكة من أجل جمع المعلومات عن الحج ، حيث تمكن من البقاء هناك ستة أشهر متقمصاً شخصية طالب علم دون أن يعرف أمره أحد ، ولكن القنصل الفرنسي بجدة خشي أن يقوم هورخرونيه بإخبار السلطات الألمانية عن حقيقة أمر حجر تيماء ، فأوعز إلى السلطات التركية بأنه نصراني لذلك اضطر إلى الخروج من مكة .

بدأ أويتنج منذ أن وصل إلى شتراسبرج العمل على تحقيق ما جمعه من مادة علمية أثناء رحلته ودراستها. وحينما قام أويتنج في عام ١٨٨٩م بإلقاء كلمة الافتتاح في مؤتمر الدراسات الشرقية في ستوكهولم كان في قمة مجده العلمي ، ليس ذلك فحسب، بل إنه في هذا المؤتمر فُضِّل على رحالة اليمن المشهور إدوارد جلازر . وتحدث أويتنج لزملائه في هذا المؤتمر عن نتائج رحلته إلى الجزيرة العربية ، وبعد نهايته مباشرة سافر إلى مصر ، وجزيرة سيناء ، وشمال سوريا (رنجرلي ، وأورفة ، وحلب) .

وفي عام ١٨٩٨م اشترك في رحلة علمية ضمن حملة برونو إلى بور سعيد ، ويافا ، والقدس، والبتراء، وأذرح . وفي عام ١٩٠٣م اختار القيصر فلهلم الثاني أويتنج ضمن مجموعة من المختصين الألمان لنقل قصر المشتى[٢] الأموي الذي اكتشفه الباحث النمساوي ألوس موسل[٣] من شرق الأردن إلى ألمانيا . وفي عام ١٩٠٠م عين أويتنج رئيساً لمكتبة الجامعة، حيث ظل يمارس هذا العمل حتى عام ١٩٠٩م . وفي أواخر أيام حياته بدأت صحته تتدهور مما اضطره إلى التوقف عن السفر ، وأيضاً إلى ترك التدخين الذي كان يعشقه كثيراً . وتخلى عام ١٩١٠م عن رئاسته لنادي فوجسن الذي ظل يديره منذ عام ١٨٧٧م . لقد قال عنه صديقه نولدكه: (إن أويتنج صديق لطيف ومخلص) . كان أويتنج الذي عاش عزباً محباً للأطفال والشباب، كما كان له كثير من المحبين.

وتوفي يوليوس أويتنج في يوم ٢/يناير/١٩١٣م في شتراسبرج حيث دفن جثمانه بمنطقة شفارتسفلد . أما مذكراته وملاحظاته ولوحاته الفنية فهي محفوظة في مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا.

---

(٢) يوجد القصر الآن في متحف القيصر فردريك في مدينة برلين .

(٣) ولد ألوس موسل في ٣٠/ يوليو/ ١٨٦٨، وقام في الفترة ما بين ١٨٩٦ - ١٩١٥ بخمس رحلات شملت شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق .

الرِّحلَة

كاف

١٠ سبتمبر - ٣ أكتوبر ١٨٨٣ م

تقع قرية كاف[٤] في منطقة سبخة تسمى النبك والعقيلة ، وهي تمتد مسيرة يوم نحو الغرب والجنوب الغربي ، وتحدها من الجهات الأخرى سلاسل جبلية ذات أسماء متعددة، ويقال إن وادي الراجل الذي يبدأ من جنوب شرقي جبل الدروز ويطلق عليه بدءاً من قصر الأزرق اسم وادي السرحان يصل إلى هذه المنطقة ، ولكن تجدر الإشارة إلى أن من هم برفقتي من البدو يقولون إن وادي السرحان[٥] يمتد على مسيرة ثماني ساعات إلى الجنوب الشرقي من إثرة[٦].

ويبلغ عدد بيوت قرية كاف حوالي ثلاثين بيتاً، وهي مقسمة إلى جزأين رئيسين لا يرتبط بعضهما ببعض سوى عن طريق بساتين النخيل ، أما تعداد سكانها من الرجال فيبلغ على الإجمال تسعين شخصاً ، وبالنسبة إلى الجزء الشرقي الأقل أهمية فهو ذو مدخل عريض دون بوابة ، كما أن بساتينه وآباره أقل عدداً ، أما الجزء الغربي الذي يسكنه الشيخ عبدالله الخميس[٧] فإن مجموعة منازله تتسم بالضخامة وتشتمل على عدة أفنية . وعلى الرغم من أن الشيخ عبد الله يحصل على قدر لا بأس به من النقود عن طريق استخراج الملح وبيعه ومن ثم يمكن اعتباره من الأثرياء فإنه يتسم بالبخل الشديد ويدعي الفقر دائماً، ولكنه في الحقيقة مضطر إلى دفع الكثير من الضرائب ليس إلى أمير حائل فقط ، ولكن أيضاً للدروز وغيرهم من القبائل البدوية ، فلو أراد اليوم أن يوقف ما يدفعه إلى هؤلاء الكبار والحلفاء فإن ذلك يعني انتهاء سطوته في القريب العاجل، كما أن تجارته في الملح ستلحق بها خسائر جمة .

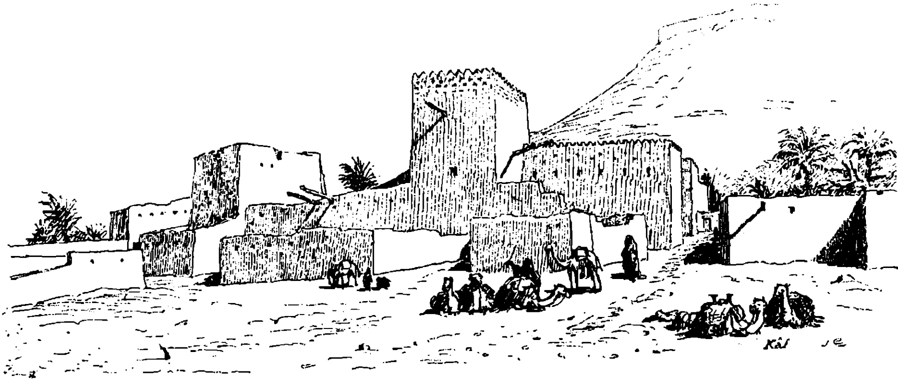
٤) استمرت بلدة كاف الواقعة في الطرف الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية حاضرة للمنطقة حتى عام ١٣٥٧هـ حين وافق الملك عبدالعزيز - رحمه الله - على انتقال الدوائر الحكومية منها إلى النبك (القريات)، نظراً لعدم إمكان التوسع العمراني فيها.

(٥) يصب وادي السرحان في منطقة الجوف بالقرب من دومة الجندل ، ويبلغ طوله حوالي ٣٩٠ كم ، وعرضه يتراوح ما بين ٢٠ - ٣٠ كم.

(٦) تقع إثرة على مسافة ١٤كم تقريباً إلى الشرق من كاف.

(٧) مأمور بلدة كاف إبان زيارة أويتنج لها .

أما بالنسبة إلى بساتين القرية فهي عبارة عن ملكية خاصة ولهذا السبب فإن كلاً منها محاط بأسوار خاصة بها ، وحيث إن كل بستان كبير يحتوي على بئر أو أكثر مزود ببرك وقنوات فإنه يمكن ريّ أشجار النخيل كافة دون صعوبة على الأقل بالتبادل فيما بينها ، بل إن هناك أيضاً قنوات أخرى لتصريف المياه الفائضة يمكن أن يستفيد منها صغار الملاك ، وعندما يكون الوقت مناسباً فإنه يمكن أيضاً زراعة الأراضي الخارجية بالقمح والخضراوات، ونظراً لأن كاف مقارنة بقاطنيها من البدو تحتوى على ٤٥٠ إلى ٥٠٠ نخلة فيمكن اعتبارها قرية غنية ؛ وفيما يلي منظر مفصل لقرية كاف .



قرية كاف

لقد قام الشيخ بتقديم واجب الضيافة لأفراد القافلة في شكل مجموعات ، وكان بعضهم يجلس في المكان الفسيح الذي يلي البوابة مباشرة ، وبعضهم الآخر يجلس في الغرفة الأمامية الملحقة بمنزل الشيخ ، أما نحن - باعتبارنا من كبار الضيوف - فقد تناولنا القهوة والتمر والخيار في الديوان أو ما يسمى بالقهوة ، وهو عبارة عن مجلس طوله اثنتا عشرة خطوة وعرضه أربع خطوات يدخل إليه الضوء من فتحات في أعلى الجدار ومن الباب ، وقد كان الأثاث مكوناً من مدفأة (وجار) ومنفاخ وهاون (نجر) وبعض الأوتاد المعلقة على الجدران وحصائر من القش على الأرض . شغلت صناديقنا وغيرها من متاع السفر معظم أركان

الحجرة ، ومن ثم لم يعد المكان يكفي لاستقبال الزوار ، ولكن سكان القرية ورفاق رحلتنا ظلوا يتدافعون داخلين وخارجين إلى القهوة أملا منهم بأن نقوم بعرض بنادقنا عليهم ، وقد كان سؤالهم المعتاد عما إذا كانت تلك البنادق من النوع الذي يعمل وفق نظام (مارتيني)(٨)وهو السلاح التركي المعروف ، فلما كانت الإجابة بالنفي وأن البنادق من نوع (موزر)(٩) نظروا بتعجب، وعلت صيحات الاندهاش والتساؤل وهم يرون تتابع خروج الذخيرة رصاصة تلو الأخرى من خزان ذخيرة البندقية .كان المزيد من الناس يأتون باستمرار، ويجلسون القرفصاء لساعات طويلة مثبتين أنظارهم على البنادق العجيبة المعلقة على الحوائط ، بل إن من كان يحظى منهم برؤية غطاء البنادق فقط كان يشعر بالسعادة .

لقد دفعتني الرغبة في الاستحمام إلى الخروج إلى البستان ، وقد خرج معي أحد الخدم لكي يساعدني ، وفيما كان على وشك أن يصّب فوقي أول جردل ماء اكتشف أن هناك أثراً من عضة جمل في أعلى ذراعي اليسرى ، فقال ضاحكاً إنني لابد قد تألمت من ذلك كثيراً ، ولكن هذه العضة في الحقيقة لم تكن أشد من عضة الذئب التي انغرزت في لحم مؤخرتي الرقيق خلال فترة المسيرة التي استمرت ثلاثة أيام فيما بين عمّان وكاف . على أي حال لم يكن الخادم رغم اندهاشه مقتنعاً من أن تلك العضتين بسبب ذلك العارض البسيط . وبعد الفراغ من الاستحمام تفقدت البستان وعين الماء ثم بدأت في الرسم ، وبعد العشاء جاء زوار آخرون، أو ربما كانوا هم أنفسهم من الذين زارونا من قبل ، فالجميع في نظري يشبهون بعضهم بعضا وبخاصة في بداية الأمر . لم يغادر هؤلاء الزوار المكان إلا في ساعة متأخرة من الليل . بسبب شدة الحرارة داخل الديوان انتقلنا للنوم في الفناء الخارجي حيث كان يبيت أيضاً جواد الشيخ الذي ظل رغم رباطه قلقاً طوال الليل وفي حركه دائمة ذهاباً وإياباً خلال الفناء ، بل إنه غالباً ما قرض فراشي .

---

(٨) بندق ذات أحجام مختلفة ويتسع بطنها لرصاصة واحدة ، انظر سعد الجنيدل ، معجم التراث ، السلاح ، دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٧ ، ص ١٩٣ .

(٩) نوع من البنادق تتسع لرصاصة واحدة ، وتسمى أيضا أم تاج ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

حين استيقظت صباح الثلاثاء الموافق ١٨٨٣/٩/١١ م كانت القافلة قد أخذت طريقها فعلاً عائدة إلى عمّان مخلفة ذكرى غير سارة حيث اختفى معها أيضاً شوالان من الملح وثلاثة مسدسات .كان هذا اليوم يوم الراحة والعناية بأجسامنا، حيث قام الخادم محمود بقص شعر رؤوسنا مما أشعرنا بالراحة والسرور ، كذلك تم تهذيب أذقاننا حسب الطريقة الشرقية وقص الشوارب بحيث تظهر تحتها الشفاه ، حتى لا يختلط بها الأكل وهم محقون في ذلك ، عدا ذلك كنا أكثر ما نكون بحاجة إلى تغيير قمصاننا التي كانت - إضافة إلى مهمتها الأساسية - تستخدم خلال الأيام الثمانية كمنديل ومنشفة وما شابه ذلك .

جاء خلال فترة بعد الظهر صبي عمره ١٥ أو ١٦ عاماً يسمى علياً ولم يكن يرتدي غترة أو ثوباً وليس عليه سوى معطف بالٍ، فدخل الديوان وجلس في الزاوية المظلمة بعد أن ألقى علينا تحية عامة ، وعندما سألته عن مراده أجاب بأنه يريد أن يحيينا فقط ، وإذا كان بالإمكان أن يدخن النارجيلة ، وهنا سألته عما إذا كان من المعتاد في بلدة كاف أن يدخل المرء هكذا بثياب ممزقة لزيارة الناس ، فرد شاكيا بأنه ليس لديه شيء آخر ، وقد اتضح أنه يتيم منذ الصغر، وليست لديه نقود كما ، أنه لا يزال صغيراً على المشاركة في أي عملية سطو تعينه على تحسين وضعه .

قبل غروب الشمس قمت بجولة استطلاعية حول القرية ، ثم عدت لأجد طعام العشاء المكون من اللبن المخلوط بالخيار والباذنجان والخبز ، غير أنني تخليت عن ذلك المزيج واكتفيت ببعض التمر ، وأثناء الليل واصل جواد الشيخ نشاطه المعتاد ، وعلاوة على ذلك دخلت إلينا بعض الماعز التي أرادت بفضولها استكشاف معسكرنا .

الأربعاء ١٨٨٣/٩/١٢ كان مقرراً القيام خلال هذا اليوم زيارة قرية إثرة المجاورة ، فركب الشيخ عبدالله جواده ، وامتطينا جمالنا ، وخلال الطريق التقينا ببعض الأوغاد ، ويبدوا أنهم خرجوا للصيد، وبعد ساعتين بدا لنا قصر الوشواش[١٠] ، وهو عبارة عن عشرة بيوت يجاور

---

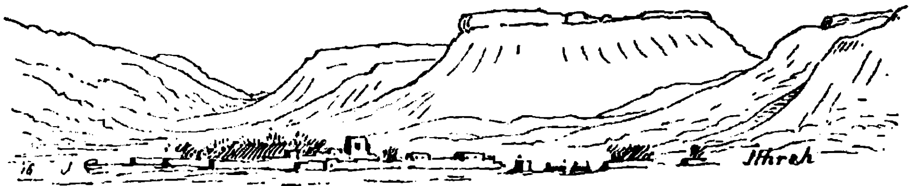
(١٠) يقع إلى الشمال من إثرة .

بعضها بعضاً ، وهي مزودة بآبار للمياه ويقطنها ١٢ رجلاً ، وعلى بعد نصف ساعة من ذلك المكان تقع قرية إثرة خارج جبال الملح البيضاء ، ويسكنها من١٢٠ إلى ١٣٠ شخصاً ، وهناك

كاف والقرى المحيطة بها

نُصبت عدة خيام خارج القرية ، واحدة منها كان رواقها عبارة عن بساط إيراني كبير ، ولا شك أنه كان فيما مضى إحدى التحف التي ربما تنتمي إلى كربلاء جاء مع الحملة الوهابية عام ١٨٠١ [١١]، وعلى الرغم من حالته الرثة إلا أن ألوانه لا تزال زاهية .

وفي أثناء دخولنا إلى القرية لاحظت وجود حجر ذي ثقب في منتصفه قيل لي إنه يتم إعداد البارود داخله ، ثم ترجلنا أمام منزل شيخ القرية ذي الشعر الأحمر ، وهو يسكن منزلاً[١٢] يشبه قلعة من العصور الوسطى، وهو - على خلاف بقية منازل القرية- مبني من الأحجار السوداء التي من المرجح أنها جلبت في الأصل من منطقة حوران ، وقد ضيّفنا الشيخ بتقديم تمر أصفر غير ناضج (بسر) وقهوة ثم باذنجان وبامية وخبز ، كما استدعى أحد الأشخاص ليقوم بإصلاح شداد جملي ، وحصل - مقابل ذلك- على ربع مجيدي (فرنك واحد) ، وبعد الغداء توجهت إلى حدائق النخيل، وبينما كنت مستلقياً بجانب إحدى الآبار أتى بعض الشباب يريدون السباحة فيها مما جعلني استيقظ فزعاً على صوت طلقات رصاص صوبوها نحو طائرين لونهما أصفر ، قاموا بشيهما كاملين بما في ذلك الريش ، وقد خرجا في نهاية الأمر أشبه بقطعتي بطاطس أحرقتا في الرماد.



إثرة

(١١) يبدوا أن استنتاج المؤلف لا يستند إلى دليل ، علاوة على أنه لو صح ما ذكره لكانت هذه القطعة في نجد وليس في كاف ، ولا ننسى بأن وجود مثل هذه القطع من السجاد ليس غريباً لانتشار التبادل التجاري بين المنطقتين .

(١٢) هو ما يسمى اليوم بـ (قصر المذهن) ، ومن المرجح أن بناء القصر يعود الى فترة الاستيطان النبطي في إثرة ، أي في حوالي القرن الأول قبل الميلاد .

حين تفقدت منزل الشيخ عن قرب شاهدت فوق باب المدخل المؤدي إلى الفناء على القطعة الحجرية العليا رسماً بديعاً لهلال وبجانبه بعض الوسوم (رموز قبائل البدو) محفورة على الحجر ، وفوقها كتابة بالخط الكوفي تحمل العبارة نفسها المنقوشة على العملات التي كان العباسيون يستخدمونها، وهي (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له) (محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)، وبجانب إحدى نوافذ الجدار الشرقي للقصر هناك رسم غائر لرأس إنسان محاط بإفريز جميل .

على الرغم من أن الشمس مالت للمغيب فإن عبدالله لم يتخذ أي إجراءات للعودة إلى كاف، وقال بشيء من الجدية إنه يمكن أن يأتي هذا المساء زوار من الجوف. لذلك قمنا بجولة أخرى خارج القرية فشاهدنا حُفَر الملح ، وحينما أردنا مشاهدة أطلال منزل أسود يقع خارج القرية رأينا خمسةَ جمَّالة مدججين بالسلاح فوق إبلهم المسرعة قادمين نحونا مباشرة من الجنوب الشرقي ، فأوقفوا إبلهم مندهشين من هؤلاء الغرباء الغامضين ، ووضعوا أسلحتهم على أهبة الاستعداد ، فأمسكت أنا وهوبر كذلك بأسلحتنا ، ونظرنا إليهم ، فلم نكن نعرف هل هم قطاع طرق أم أصدقاء ؟ لكونهم كانوا ملثمين ، وعلى حين فجأة صاح أحدهم كالمجنون (هوبر! هوبر!) ، وعلق سلاحه على الشداد وقفز من راحلته متجها ناحية هوبر فاحتضنه وانهال عليه بالأسئلة ، وسرعان ما شملتني أيضاً موجة الترحيب تلك، حيث توجه نحوي ذلك البدوي وقبلني وسألني عن حالي ، وبعد أن انتهت موجة الترحيب تلك علمت أن الرجل من حائل ، ويدعى (حمود المجراد) بعثه أمير شمّر محمد بن رشيد[١٣] خصيصاً لكي يحضرنا من دمشق ، ولتوضيح الأمر أذكر هنا أنه قبل أن أرحل من شتراسبرج في بداية مارس ١٨٨٣م كتبت خطاباً إلى أمير حائل أخبرته بأنني وهوبر نريد زيارة أراضي قبيلة شمّر، كما أشرت إلى أننا سنحضر معنا كل ما يشتهيه قلبه (وكنت أعني بذلك الأسلحة) ،

(١٣) هو محمد بن رشيد تولى الإمارة في حائل عام ١٢٨٩هـ ، وتوفي عام ١٣١٥هـ ، وهو ابن عبدالله بن رشيد الذي عين من قبل الإمام فيصل بن تركي آل سعود أميراً على حائل ، انظر فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ، ٣٥٢-٣٥٣ .

على أن يتكرم بإرسال رجل موثوق به إلينا في دمشق مثل حمود المجراد الذي تعرف عليه هوبر خلال رحلته الأولى إلى المنطقة، كما بعثت مع ذلك الخطاب خطاباً آخر إلى ابن عم الأمير حمود العبيد . أما الخطاب الذي وجهته إلى الشيخ نجم الأطرش[١٤] ، فقد سُلم إليه في شهر إبريل بواسطة مبعوث عاجل لنائب قنصل القيصر الألماني السيد ليتكة[١٥]، ولكن يبدو أن الخطاب الموجه إلى الأمير قد بقي في عمان فترة طويلة حتى أمكن إيجاد شخص يقبل التضحية بنفسه ، وينقل الخطاب إلى حائل خلال رحلة تستمر أسبوعين . وعلى أي حال فإن ذلك الرسول لم يكن في عجلة من أمره ، ولا شك أنه استمتع بالضيافة في أفضل صورها خلال توقفه في المناطق المأهولة، وذلك بصفته حامل رسالة إلى الأمير ، إضافة الى ذلك فالشيخ لم يكن موجوداً في ذلك الوقت في حائل وإنما - كما علمنا لاحقا - كان في حملة على الجانب الآخر من عنيزة الواقعة على مسافة سفر قدرها عشرة أيام إلى الجنوب من عاصمته حين وصلته رسالتي هناك ، وقد كان حمود المجراد يشارك أيضاً في تلك الحملة ، حيث تلقى أمراً من الشيخ بأن ينطلق فوراً نحو دمشق لكي يستقبلنا ويحضرنا معه ، فلم يتوقف سوى يومين في حائل من أجل أن يقوم بإعداد الأمور الأخرى التي ستنجز في دمشق . استغرقت رحلته من حائل إلى هذا المكان أربعة عشر يوماً وكان يرافقه شخص شبه زنجي اسمه إبراهيم أبوخليل وآخر يدعى محيثلاً أباحميد من الجوف وتاجر جمال دمشقي يدعى حسين ، وأحد مواطني إثرة انضم إليه في الجوف ، كما كان يحمل معه مجموعة كثيرة من الخطابات والمهام التي سينجزها في دمشق ، وقد كان هذا الأمر الأخير أمراً مفزعاً بالنسبة لي ، لأن ذلك يعني تأجيل رحلتي لمدة ثلاثة أسابيع ، وحيث إنه لم تكن لدي أي رغبة في العودة إلى دمشق مرة أخرى - وحتى لو كان هوبر مستعداً لمرافقة حمود إليها - لذلك لم يكن أمامي سوى أن أنتظر بصبر عدة أسابيع في قرية كاف المقفرة.

لا شك أن مثل ذلك المبعوث المهم للأمير قد استُقبِل بحفاوة تختلف تماماً عما حدث لنا هذا الصباح ، إذ قدم له في البداية التمر والزبد وليس البسر كما هو الحال معنا، ثم قام الشيخ

(١٤) أحد زعماء الدروز .

(١٥) قنصل القيصر الألماني في دمشق .

في الحال بذبح عنـز دهنت رقاب جمالنا وأفخاذها اليمنى بدمها ، لأن البدوي يرى في ذلك تكريماً لضيفه ، ولكي يشعره بأنه أعد له ذبيحة ، وبعد الغداء قامت المجموعة جميعها وانتقلت إلى منـزل الشخص الذي رافقهم خلال الرحلة من الجوف ،وهناك تم تقديم وجبة أخرى كاملة ، وهذا شيء لا تتحمله سوى معدة البدوي ، ويبدو أن المضيف أراد أن يتفوق على الشيخ في كرمه ، فقد كان الطعام أكثر وأنظف مما قدمه الشيخ .

بينما كانت القهوة تعد أحضرت المبخرة وهي وعاء خشبي مصفح بالصاج ، ثم وضع خشب الصندل (من العود أو الورد) على الفحم المشتعل داخل الوعاء ، فأدى ذلك إلى انبعاث روائح نفاذة ، والمعروف أن أثرياء الناس يكتفون بتبخير ذقونهم بتلك الرائحة حيث يضعون الإناء تحت الذقن ممسكين به من أسفله باليد اليمنى ، ثم يقومون في الوقت نفسه بالمسح على الذقن مستخدمين اليد اليسرى ، في حين أن البدوي البسيط يقوم أيضاً بتبخير الجزء الداخلي من الكوفية (الغترة) ، ثم يضع المبخرة تحت معطفه حتى يصل إلى إبطيه ، وعند الضرورة تتم إعادة ملء المبخرة لكي تدور مرة أو اثنتين على الموجودين في الجلسة .

في وقت متأخر من الليل أعدت جلسة أخرى لشرب القهوة خارج القرية قرب منزل تاجر الجمال حسين ، وفي تلك الجلسة أخذ صفوة القوم يناقشون أهم الأخبار السياسية في نجد .

وفي صباح الخميس ١٨٨٣/٩/١٣م أعدت وجبة دسمة أخرى ، ثم انتقلنا في السابعة والنصف إلى قصر الوشواش المجاور ، وفي الحقيقة لم نكن نوّد الإطالة هناك ، إلا أننا فوجئنا بأن جمالنا قد دهنت بالدم مرة أخرى مما يعني أنه قد أعدت ذبيحة لنا ، ولم تحن الساعة العاشرة إلا ونحن قد انتهينا من أكل تلك الوليمة . وعند الساعة الثانية عشرة رجعنا إلى كاف بموكب ضخم وبصحبة رجال قصر الوشواش ، وقد سبقنا رجلان لإعلان قدوم مثل ذلك العدد الكبير ، حيث وجدنا أطفال الشيخ في انتظارنا في الفناء مرتدين ملابس نظيفة ، ولم يمض وقت طويل حتى كان رجال القرية وشبابها كافة موجودين سواء في قهوة (ديوان) الشيخ أو في فناء منزله، حيث تم تقديم التمور للصحبة ثم الخيار الذي كان يبلغ طول الواحدة منها

متراً ، وبعد ظهر هذا اليوم تمكن أحد الصبية من اصطياد طائر ذي لونين رمادي وأصفر ، ومسح بدمه وريشه بندقيته دليلاً على توفيقه في الصيد ، ثم قام بشيّ الطائر حتى تفحم .

وفي يوم الجمعة ١٨٨٣/٩/١٤ شاهدنا أثناء شرب القهوة مشهداً تمثيلياً لا يمكن أن نراه إلا في مثل هذا المكان ، فقد قام الشيخ عبدالله بتشجيع ابنه خميس ذي الثلاث السنوات وتدريبه على تدخين النارجيلة !

بسبب حدوث سرقة للملح في الليلة الماضية شهد ميدان القرية الفسيح في الصباح معركة حقيقية حيث هجم المذنبان الأساسيان على بعضهما بعضاً مستخدمين أيديهم في توجيه الضربات ، ثم تدخل آخرون بالهراوات والسيوف وتلقى صبي زنجي وقع ضربات من الحدّ المسطح لسيف الشيخ عبدالله حتى انبثقت منه الدماء، وقد انتهت المسألة بشكل مرض للجميع عندما تم إبعاد المسؤولين الرئيسين عن هذه السرقة إلى بستان الشيخ .

قام في هذا اليوم شخص يدعى منصوراً بدعوتنا لتناول طعام الإفطار عنده ، وهو يسكن في الجزء الشرقي من القرية ، كما أنه يعد ثاني أغني رجل في كاف بعد الشيخ، ويمتلك جواداً ويرتدي سترة قانية الحمرة يزهو بها ، لابد أنه قد غنمها ذات يوم في مكان ما [١٦]، حيث تشير تلك الندوب الكبيرة على وجهه ، وكذلك أسنانه المتكسرة إلى أنه خاض كثيراً من المشاجرات. أما اليوم فإنه أراد أن يظهر تميزه وتفوقه في كرم الضيافة، ولقد استطاع بالفعل أن يتفوق بشكل رائع على الشيخ ، فما كان منا إلا أن قمنا بتلبية دعوته مرة أخرى في مساء اليوم نفسه.

ثم قمنا اليوم بمناقشة خططنا المستقبلية مع حمود المجراد والذي فتح أمامنا مجالات طيبة قائلا طالما أنكم في أراضي قبيلة شمر فليس عليكم أن تقلقوا من أي شيء ، ذلك أن الشيخ سوف يرسل معكم في كل مكان أفضل الأدلاء ،كما سيمنحكم كل ما تريدون من مؤن . كما

---

(١٦) ليس هناك ما يبرر بأن يدعي أويتنج بأن تلك السترة الحمراء التي كان يرتديها مضيفهم غنيمة حربية ، غير أنه على ما يبدوا كان يحاول وضع تفسيرا - وإن لم يكن منطقياً - لكل شيء جميل يقع عليه نظره .

أخبرنا بأن ابن سعود نفسه[١٧] يمكن أن يأتي إلى حائل ، وفي تلك الحالة ستكون أفضل الظروف قد أتيحت أمام رحلتنا إلى الرياض ، أما إذا وصل ونحن غائبون عن حائل فسوف يحاول الشيخ أن يطلب منه البقاء حتى عودتنا ، وفي جميع الأحوال سوف يحدثه الشيخ عن زيارتنا إلى الرياض لكي يحصل منه على وعد بالاهتمام بنا .

جلسنا في المساء سوياً تحت ضوء القمر ، حيث قمنا بمحاولات عدة لإقناع أحد الأشخاص بإحضار ربابته ، وهي أداة ذات وتر واحد ، ويلعب عليها بأربعة أصابع ويمرر فوقها القوس ، وقد ألقى أحد الرجال قصيدة على أنغامها الحزينة لم أستطع سوى فهم القليل منها . كان الجالسون مأخوذين بشكل أو بآخر بحضور حمود المجراد القادم من حائل ، تلك المدينة التي انتشرت فيها الدعوة الوهابية[١٨]، وحيث يعتبر أي تعبير عن الفرح وخاصة بواسطة الموسيقى شيئاً غير مناسب ولا يتفق مع الدين[١٩] .

قبل طلوع فجر يوم السبت ١٥/٩/١٨٨٣ بدأت الاستعدادات لرحلة العودة التي سيقوم بها هوبر مع حمود ورفاقه إلى دمشق ، وقد بدأ حمود يتفقد خطاباته من جديد حتى يتأكد من عدم فقدان أي منها والتي من بينها رسائل موجهة إلى صلخد[٢٠] ومحمد بن دوخي بن زمير من قبائل ولد علي (عنزة) ، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الرسائل الموجهة إلى دمشق ، كما أنه أخذ من هوبر وعد بأن يقوم بإرسال برقية إلى السفير الفرنسي في القسطنطينية ليسأله عما إذا كان في وسعه دفع الباب العالي[٢١] لكي يعيد خيبر التي يحتلها باشا المدينة إلى

---

(١٧) هو الإمام عبدالله بن فيصل آل سعود الذي تولى الإمامة في عام ١٢٨٢هـ ١٨٦٥م . وتوفي - يرحمه الله- في اليوم الثامن من شهر ربيع الآخر من عام ١٣٠٧هـ الموافق ٢٤ نوفمبر من عام ١٨٨٩م.

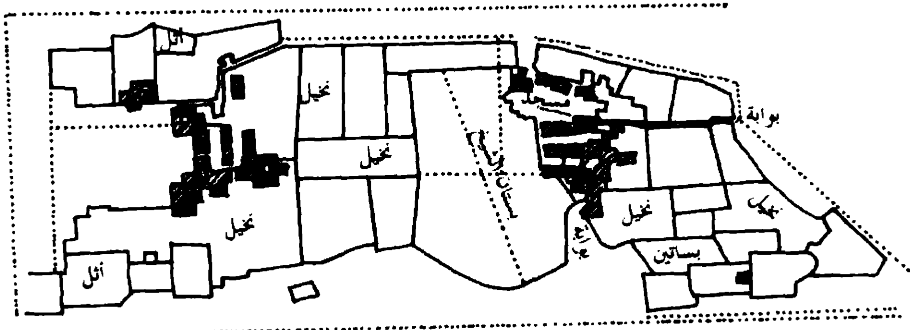
(١٨) الوهابية مصطلح شاع عند بعض الكتاب والمؤلفين الغربيين على اعتبار أنها مذهب في الدين ، وهي ليست كذلك، فدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوة سلفية مجددة تقوم أصولها على الكتاب والسنة وعقيدة السلف ، وتدعو إلى القضاء على كل ما يخل بالعقيدة . وقد ولد الشيخ محمد في العيينة سنة ١١١٥هـ / ١٧٠٣م ، وانتقل إلى الدرعية في عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م حيث تبايع مع الإمام محمد بن سعود على إعلاء كلمة التوحيد ، وتوفي عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م.

(١٩) ليس صحيحاً ما ذكره المؤلف هنا حيث إن التعبير عن الفرح ليس محرما في الإسلام ، وإنما استخدام الموسيقى فقط.

(٢٠) قرية سورية تقع في جنوب منطقة حوران إلى الشمال من دمشق .

(٢١) لقب لبلاط السلطان العثماني .

الشيوخ مرة أخرى ، ثم بدأ يحسب الفترة التي سيقضيها في دمشق للقيام بمشترياته ، وكان يأمل أن تستمر أربعة أسابيع (٤) في حين أنني كنت آمل أن تستغرق أقل من ذلك ، بعد ذلك طلب مني ذلولي الجميلة ، كما أنه لم يهدأ قبل أن يبتز مني تأكيداً بأن أسمح له بأخذ بندقيتي ذات الماسورة المزدوجة من طراز (لي فوشيه Lefauche ux)، والتي كنت أعهد بها حتى ذلك الحين إلى حمود للعناية بها ، كما كان يرغب في التمكن أيضاً من أخذ مسدس حمود معه لتدعيم هيبته إلا أنه لقي معارضة حاسمة قضت على كل محاولاته ، ومنذ تلك اللحظة تملكت محمود كراهية لا يمكن نزعها تجاه ذلك الشخص ، ولم يترك فيما بعد أي فرصة تسنح دون أن يضايقه ، وفي اللحظة الأخيرة جاءت النساء إلى القافلة طبعاً، وقد رغبت فهيدة وهي إحدى زوجات عبدالله في الحصول على سوار فضي وخواتم وما شابه ذلك ، إلا أن حموداً الذي يتسم بالشك والدهاء لم يكن لبقاً، بحيث إنه طالبها مقدماً بثمن تلك الأشياء، وعندما لم تتمكن بعد جهد ومحاولات الاقتراض من النساء الأخريات من جمع النقود الضرورية



مخطط بلدة كاف

انتاب الغضب حموداً حتى قمت أنا باستكمال القدر الناقص وقدره مجيدي واحد (٣.٥مارك) ، وفي نهاية الأمر بدؤوا رحلتهم في السابعة مصحوبين بدعواتنا .

بقيت الآن هنا وحدي مع الخادم محمود وشعرت أنني أشبه بالأسير، إذ ما الشيء المعقول الذي يمكنني القيام به هنا ، وكيف يمكنني قضاء هذا الوقت الطويل في كاف، والاستفادة منه؟ لقد كانت خطتي تتمثل في أن أقوم بدراسة العادات التي لاتزال غريبة علي، وكذلك اللهجة البدوية التي كانت لا تزال غامضة بالنسبة لي، بالإضافة إلى ذلك نويت القيام بتدريبات بدنية شاقة والتعلم على كيفية السير حافي القدمين تحسباً لأي طارئ ، ونتيجة لأسري الاضطراري هذا بدأت أشعر بأنني مواطن بسيط من أهالي كاف، ومن ثم أتيحت لي الفرصة لكي أتغلغل داخل الحياة الهادئة لإحدى قرى البدو المتواضعة ، وبعد أن رحل كل الغرباء بدأت النساء والأطفال في الظهور تدريجياً مما أتاح لي كذلك مراقبة النشاط المنـزلي.

في البداية أصابني الهدوء بنوع من الارتياح بعد الاضطراب الذي شهدته الأيام الأخيرة ، وحاولت قدر الإمكان أن أوفر أسباب الراحة لنفسي داخل القهوة حيث قمت بإعداد مايشبه المنضدة مستخدماً غطاء أحد الصناديق وشداد جملي؛ كي أتمكن من استخدامها في الكتابة بشكل أكثر راحة ، وأن أرسم عليها أفضل مما كنت أفعل فوق ركبتي، كذلك قمت بتصنيع مهفة من فروع النخيل لأهش بها الذباب الكثير .

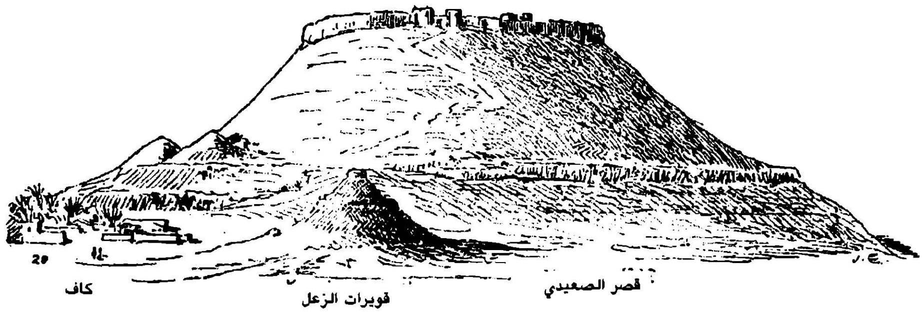
في أثناء ذلك بدأ الشيخ عبدالله يظهر على حقيقته شيئاً فشيئاً ، وهو الأمر الذي اتضح بشكل خاص من خلال بخله الشديد ، ولأنني كنت سأقضي في المكان ثلاثة أو أربعة أسابيع فقد تخلى عن الاهتمام بكرم ضيافتي، ومن ثم تخلى عن أداء أي نفقات لا لزوم لها ، ولكي يتجنب إحساسي بخيبة الأمل أو حتى الشكوى الصامتة فإنه بادرني بسحنة بائسة قائلاً: إنه يأسف إذلم يعد لديه أي دقيق أو أرز في المنزل ، إلا أنني أعفيته من الاستمرار في الكذب ورجوته ألا يهتم بذلك الأمر، لأنني راض تماماً عن بيته المضياف. وفي الحقيقة فإنني رحبت بتلك العلاقة الجديدة التي تتسم بالنفاق، وذلك لأنه كان لدي مؤونة كافية من الأرز والدقيق والقهوة، وبعد أن رأى الشيخ أنه غير محتاج طوال يوم كامل أن يقدم لي ولو فنجان قهوة واحد، فإنني اعتبرت نفسي قد أصبحت صاحب المكان وأمرت الخادم محموداً أن يعتمد في تدبير شؤون المأكل والمشرب على مؤونتنا الخاصة، وبعد أن استقر بنا الحال رتبت الوجبات كالتالي

عند شروق الشمس يتم تناول القهوة ، وحوالي الساعة التاسعة يقدم طعام الإفطار الذي يعتبر بمثابة وجبة الغداء، ويتكون من التمر مع الزبد ، أو الأرز مع السمن ويعد الخبز باستخدام آنية خشبية أو نحاسية ، وبعد غروب الشمس مباشرة يقدم طعام العشاء أو الوجبة الرئيسة ، وتتكون من القهوة في البداية ثم الأرز أو البرغل وفي بعض الحالات يقدم معه اللحم، وإذا أمكن تقدم البامية أو الباذنجان أو الخيار ، وخلال ساعات الليل الأولى تقدم القهوة من جديد ، فإذا جاء بعد وجبة الغداء ضيفٌ ما خلال النهار لا تقدم له وجبة كاملة ، ولكن تقدم له القهوة والتمر فقط ، وعليه أن ينتظر قدوم الليل ليحصل على وجبة حقيقية . جلست اليوم بعد العشاء في الفناء المظلم حتى استمع إلى الحديث الذي يدور بين الضيوف وهم يدخنون الشيشة (النارجيلة) ، حيث قام رجل زنجي بإعداد القهوة وقدمها إلى الضيوف، وعندما تركني إلى أخر الدورة علقت قائلاً : إنني لم أعتد أن أكون آخر من تقدم له القهوة، ثم غادرت المكان إلى القهوة (المجلس)، في أثناء ذلك استيقظ الشيخ الذي كان نائماً بالقرب من مكان الجلوس وأسرع نحوي مقدماً اعتذاره قائلاً: إن الخادم رجل فظ ليست لديه أي فكرة عن مكانتي، وأكد على أن هذا الأمر لن يتكرر ثانية ، وبناء على إلحاحه رجعت إلى الجلسة، وتناولت من يديه أول فنجان من القهوة التي قام بإعدادها بنفسه .

وقد اضطررت إلى التصرف بهذه الطريقة لأن هؤلاء الناس لا يتغاضون مطلقاً عن قيام أي شخص بتجاهل تقاليدهم ولأنهم تعودوا على الحكم على كل شخص آخر حسب ما يظهره من اهتمام بكرامته الذاتية .

يوم الأحد ١٨٨٣/٩/١٦م إلى الشمال الغربي من قرية كاف يقع قصر الصعيدي على ارتفاع يصل إلى حوالي ٣٠٠ متر ، ويتكون ثلثه السفلي من شرفة متصلة من الأحجار البركانية الرملية السوداء ، وفي الحافة الشرقية من تلك الشرفة يظهر جبل يطلق عليه اسم قويرات الزعل ، وهو مخروطي الشكل ذو رأس مدبب يتكون أيضاً من الأحجار البركانية السوداء. أما ظهر الجبل البيضاوي نفسه فإنه يبرز من الشرفة متجها ناحية الجنوب الشرقي صاعداً نحو جهة الشمال الغربي ، ويتكون قلب الجبل من الحجر الرملي الأبيض

الذي تتخلله عروق مبلورة من الجبس ، ويعلو الجميع طبقة حجرية ضخمة سمكها ١٠ - ١٥ قدماً ، وسطحه العلوي محاط بأسوار وأبراج ، ولأن من الطبيعي أن تتيح قمة ذلك الجبل الرؤية لمسافة بعيدة، فقد أقنعت الشيخ لكي يرافقني إلى أعلى وأن يشرح لي ما نراه من هناك، وفي أثناء مسيرنا إلى الجبل عبرنا خلال المقابر الواقعة خلف القرية مباشرة وهنا أشار الشيخ إلى قبور عائلته، وطلب مني الانتظار قليلاً لكي يصلي ركعتين ، وفي أثناء ذلك ألقيت نظرة على القبور التي كانت تعلوها شواهد ترتفع قدما أو اثنين ، وهي من الحجر الأسود غير مهذب ، وتخلوا أيضاً من الكتابة لأنه لا أحد في هذه القرية يستطيع القراءة أو الكتابة ، وعلى بعض القبور وضعت بعض سعف النخيل، كما شاهدت على قبر إحدى النساء بقايا من قميص أزرق وبعضاً من شعر ضبعة . ولقد حاولت أن أستغل تسلق الجبل لتجريب أول محاولة لتعلم السير حافي القدمين ، ولقد حدث ذلك بشكل جيد أثناء النهار حيث كان بمقدوري أن أرى موقع أقدامي ، وبالفعل كانت تلك الطريقة أفضل من ارتداء الأحذية التي تدخلها الرمال والأحجار الصغيرة ، كما أن الأجزاء غير المستوية من الحجر لا تضغط على نقطة واحدة من القدم ، وعلى أي حال تمكنا خلال ٢٥ دقيقة من الصعود إلى قمة الجبل ، ثم عبرنا من خلال بوابة نحو بضع درجات حجرية إلى أعلى مروراً ببعض حجرات الحراسة القديمة على اليمين واليسار حتى وصلنا إلى القمة المسطحة للجبل ، حيث وجدنا السور



قصر الصعيدي

ساقطاً تماماً من الجهة الجنوبية الغربية في حين بقي قائماً في الجهتين الشمالية والشمالية الشرقية ، وقد تمت تقويته عن طريق أبراج مربعة وبارزة إلى الأمام .

أما بقايا المنازل فليست ذات أهمية ففي النصف الشمالي الغربي يوجد أكبر تلك المساكن ويحتوي على عدة غرف وبجانبه بركة مسطحة ، وإلى الجنوب الشرقي يوجد بئر مردوم، وفي الوسط يقع المسجد ذو المحراب النصف دائري ، وحيث إن محراب المسجد لم يكن متجها نحو القبلة فربما كان في الأصل كنيسة(٢٢) . وبالطبع لم يستطع الشيخ أن يقدم أي معلومات حول تاريخ القلعة ومصيرها ، كما لم يكن في وسعنا أن نكتشف وجود أي معثورات أثرية(٢٣) ، ما عدا حجراً وجدته في البئر منقوشاً عليه صورة الهلال والشمس ، بالإضافة إلى بعض الشواهد التي ربما تكون من العصور الحديثة ، كما شاهدت هناك بعض وسوم القبائل البدوية وكان بعضها ملوناً باللون الأحمر ، وقد ادعى من قبل و . بلنت(٢٤) (W. Blunt) أن إبراهيم باشا هو الذي قام بتدمير تلك القلعة عام ١٨٣٤ م أثناء الحملة المصرية على شبه الجزيرة العربية.

يمكن للزائر أن يشاهد على مد البصر منظراً جميلاً يستحق الرسم ، إذ في الجهة الشمالية الشرقية تبدو جبال مقّل وشميسانة وبغيّث الذي يسمى أيضاً جبل شامة ، ويقال: إن الجليد يسقط على قمم هذه الجبال في الفصول الباردة ، وقد سمعت عن حكاية تقول: إن طائراً ضخماً يأوي إلى تلك القمم في ليالي الشتاء الباردة ، أما المرتفعات الملحية (النبك والعقيلة) فإنها تأخذ في الاختفاء ناحية الجنوب الغربي وتتخللها بعض الطرق المتقاطعة ، كما تلتقي في

---

(٢٢) إن وجهة نظر المؤلف أن المسجد كان في السابق كنيسة لميل في محرابه غير صحيحة نظراً لوجود بعض المساجد ذات المحاريب المائلة ربما لعدم الدقة في معرفة اتجاه القبلة ، كما أن ما وجد في هذا القصر من فخار نبطي يرجح أن هذا المبنى الذي يصل طوله ١١ مترا ، وعرضه ٦ أمتار كان في الأصل معبداً نبطياً أعيد استخدامه في الفترة الإسلامية . انظر خليل المعيقل ؛ سليمان الذييب ، الآثار النبطية في منطقة الجوف ، الرياض ١٤١٧، ص ٦٠.

(٢٣) تم العثور داخل القلعة على كسر فخارية تؤرخ إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، المرجع السابق ، ص ٦٠.

(٢٤) هو الشاعر والسياسي والرحالة الإنجليزي ولفرد بلنت، بدأ رحلته إلى شمال الجزيرة العربية برفقة زوجته الليدي آن بلنت في عام ١٨٧٨م ، وظهرت نتائج رحلتهما في كتاب لزوجته مترجم إلى العربية تحت عنوان (رحلة إلى بلاد نجد)، ترجمة ، محمد غالب، الرياض ١٣٨٩هـ.

ناحية الجنوب في شكل زاوية مع الجبال ذات الزرقة الفاتحة المسماة أم الفناجيل ، كذلك استطعت أن أميز على مسيرة ساعتين أو ساعتين ونصف نقطة سوداء متحركة ، وقال لي عبدالله: إنه أحد عماله يقوم بسكب المياه من أحد الآبار على الأرض الملحية لتنظيف الأرض الصلبة ، ولقد قضيت فترة قبل الظهر كلها في محاولة استعادة سماع أسماء الجبال التي ذكرها الشيخ عدة مرات ونطقها ثم كتبتها على الرغم من بقاء بعض الشكوك لدي حول نطقها السليم ، لكون أذناي آنذاك لم تدربا بعد على التفريق بين أصوات الحروف المتشابهة.

قرب حلول المساء واصلت تدريبي على السير حافي القدمين في حين علقت الحذاء من الرباط على كتفي ، وكان بعض رعاة الغنم قد أقاموا خلف القرية بعض الخيام رقيقة الحال ، وكان يجلس إلى جانبها بعض البدو ، قام أحدهم متجها نحوي وطلب مني أن أكتب له (حجاباً) ولأنني كنت في حيرة بشأن كيفية الرّد عليه، فقد طلبت منه أن يأتي إليّ صباح اليوم التالي لأرى ما يمكنني عمله ، ثم جاء آخر وسألني عن سبب سيري حافياً مضيفاً أنني رجل محترم وغني ولدّي حذاء فأجبته (نعم ، ولكن الحذاء لن يبقى معي طويلاً، فعندما يُسرق مني أريد أن أكون قادراً على الجري وراء السارق لاستعادته) . فكان أن قال البدوي لزميله: (انظر إنه ذكي ويعرف طباعنا !) .

تناولنا مع العشاء البيض والتمر مع الزبد الساخن ، وبعد ذلك جاء الكثير من الزوار لشرب القهوة ، وقد طالبني الجميع دون استثناء تقريباً بإعطائهم إما دخاناً أو حتى مسدساً، ولكنني لم أعط أياً منهم شيئاً ، بعد ذلك تحركت من الجنوب الشرقي عاصفة أثارت الغبار على الجالسين اضطرتهم إلى العودة إلى منازلهم بعد أن خاب أملهم .

الإثنين ١٨٨٣/٩/١٧ في الصباح الباكر اصطحبت معي ابن الشيخ المدعو (سالم)، و البالغ من العمر ١٣ عاماً إلى قمة جبل قصر الصعيدي ، وطلبت منه أن يذكر لي أسماء الأماكن من جديد ، وعندما نزلت من الجبل قابلني البدوي غيران وسألني عن الحجاب الذي طلبه مني في الأمس ، وحيث إن مزاجي لم يكن يسمح بتقبل ذلك الحمق حاولت إقناعه بترك الأمر،

ولكن دون جدوى ، وقال: إنني غير راض عنه لأنه شيطان فقير، ولن يستطيع أن يدفع لي مقابل ذلك ، فأفهمته أن الأمر لا يتعلق بالنقود وأن عليه أن يشرح مشكلته بالتفصيل ، فقال لي:إنه صائد غزلان ، ولكنه لم يصطد شيئاً منذ وقت طويل رغم مروره بمواقف خطيرة ، وإن أقصى أمانيه ألا يخترق الرصاص جسده ، وهنا أظهرت له بعض الأهمية، وأوضحت له بعض الأمور حول ضرورة توافر شروط أخلاقية وغيرها ، وبدونها لن يصبح الحجاب ذا فائدة ، بل ربما يكون أكثر ضرراً لحامله ، وبعد أن أكدّ لي أنه يمتلك الصفات المطلوبة كافة ، وأنه في حالة حدوث مكروه لن يلقي عليّ بالمسؤولية أصرّ أكثر من أي وقت مضى على الحصول على ذلك الحجاب السحري، فكتبت له الأمنية التالية باللغة الألمانية (أيها المسكين ليرحم الله روحك ، وإذا كنت فتى طيباً فإنني آمل أن يخرج الرصاص من جسدك كما دخل إليه)[٢٥] ، وقبل أن يعلق الحجاب طلبت منه وعداً بأن يهديني أول صيد يصيده وليكن مشوياً ، ثم وقعت على الورقة وكتبت تاريخ اليوم ، ثم وضعت الورقة بشكل مهيب داخل إطار صغير وجعلت منها عقدة خماسية ، وعندما سألني عن كيفية حمل الحجاب أجبته بضرورة أن يخيطه في قطعة نظيفة من جلد الغزال ، ويثبته على الجهة اليمنى من رأسه ، ولم يكد البدوي يتناول الورقة حتى هب واقفاً وحيّاني وابتعد دون كلمة شكر حسب تقاليد آبائه[٢٦] .

ظل مضيفي عبدالله الخميس صامتاً طوال هذه العملية ولكنه كان متنبها لما يدور، وطبيعي أن شعوره بالحسد سبب له قلقاً شديداً ، وبمجرد أن ابتعد البدوي طلب - هو الآخر - حجاباً له و لإبنه الأصغر ، فماذا كان في وسعي أن أفعل ؟ لقد كتبت له أيضاً بضع كلمات على ورقة، وسلمتها له بعد أن طالبته بعدم التقدم بأي طلب من هذا النوع مستقبلاً وكتبت كلمات أخرى لابنه قلت فيها: (أيها الوغد يجب أن تستحم كيلا تصبح غلاماً بائساً ، وإن شاء الله ستكون مضيافاً أكثر من أبيك، وأخيراً أتمنى لك السعادة الدائمة)، ثم حررت التاريخ ١٦/٩/١٨٨٣ ووقعت عليه .

(٢٥) لاشك أن طلب بعض الأشخاص مثل هذا الحجاب هو ناتج عن الجهل الذي كان يسود تلك المنطقة فاستغل المؤلف ذلك ليحيط نفسه بهيبة كبيرة بين سكان المنطقة .

(٢٦) لم يستوعب أويتنج أن هذه التحية التي أسرع البدوي بتقديمها له هي بمثابة التعبير عن الشكر والوداع في آن واحد ، ثم إن ادعاء المؤلف أن ذلك جرى حسب تقاليد آبائه مرفوض تماماً ، لكون سكان تلك المنطقة عرف عنهم السخاء والشجاعة وتقدير الضيف .

عند الظهر أعددت بعض الأرز والذرة والمشمش ، ثم استلقيت لأنام في القهوة المظلمة ، وحينما كنت مستيقظاً كان في وسعي أن أتحمل وجود ٢٠ - ٣٠ ذبابة على الوجه واليدين والقدمين دون أن أهشها ، ولكنني عندما أردت النوم الآن سحبت ملاءة بيضاء شفافة طولها متران فوق جسمي ، وكنت آمل بذلك تجنب مضايقات تلك الحشرات والخلود إلى الراحة ، وكان عبدالله يشهد تلك المحاولات لعزل نفسي عن كل ضوضاء وإثارة ، ولم يكن في عجلة من أمره لفعل شيء ، واكتفى بنداء الرجال والنساء والأطفال من خلال الباب المفتوح لكي يشهدوا تلك المعجزة ، وهكذا وقف الجميع هناك في صمت وعلى وجوههم تعبير ينم عن الدهشة كما لو كانوا يشهدون سندريلا في كفنها الزجاجي ، ولكن لم يكن في وسعهم أن يكتفوا بمجرد النظر، ومن ثم أخذ أكثرهم فضولا في الاقتراب مني ، إذ كان عليهم أيضاً أن يختبروا بأيديهم تلك المعجزة، وقد حاولت إبعادهم دون جدوى، حيث أخذوا يرفعون عني الملاءة وبدأت أولى الذبابات في مهاجمتي ، وكان أفضل شيء أفعله في تلك الحالة هو الاستيقاظ وإعطاءهم الملاءة ، ثم انطلقت إلى الخلاء لتدخين النارجيلة ، وهناك لحقت بي النسوة فأصبح عليّ الآن أن أجيب عن تساؤلاتهن كافة ، الأمر الذي وثّق معرفتي بنساء كاف وخاصة أسرة الشيخ .

تتكون ملابس النساء من ثوب قطني شديد الزرقة له أكمام طويلة وذيل يتفاوت في طوله ويوضع على الرأس غطاء من القماش نفسه ، حيث تتم تغطية الوجه به عند اقتراب الرجال، كذلك كانت النساء يتزيَّن بوضع أي أزرار في فتحة الأنف اليمنى[٢٧] لونه أسود أو تركواز أو وردة صغيرة مكونة من عدة أحجار ، كذلك يحملن أكبر عدد ممكن من الخواتم إن لم تكن من الفضة ، فيمكن في حالة الضرورة أن تكون من الرصاص ، بالإضافة إلى أساور من الزجاج أو المعدن ، كما أن الفتيات الصغيرات يلبسن أيضاً خلاخل حول الأرجل . لم تكن النسوة إلى حد ما يخجلن مني ، بل إنهن أصبحن بالتدريج أكثر جرأة ، وفي أحيان كثيرة كنت أذهب إلى الفناء الداخلي وأراقبهن أثناء تأدية الأعمال المنزلية كطحن الحبوب وخبز الخبز

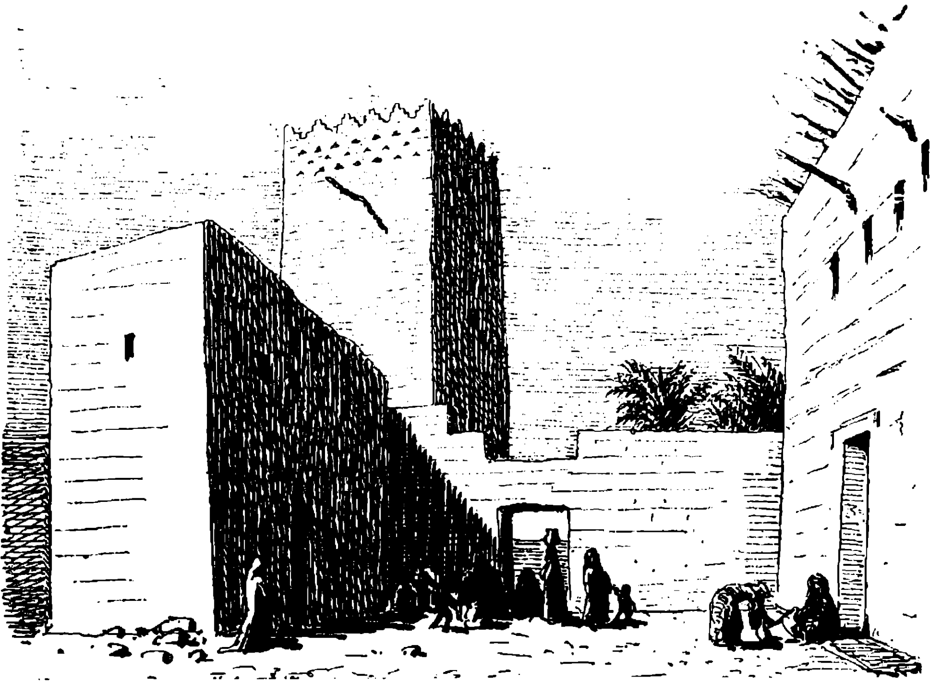
(٢٧) ما يعلق في الأنف للزينة يسمى زماماً وحلقة .

وكذلك الطبخ والحياكة وما شابه ذلك . كانت تجلس هناك في العادة ثلاث من نساء عبدالله هن فهيدة ومقبولة وفضة ، وكانت لكل منهن حجرة خاصة يمكن إغلاقها ، أما الرابعة فهي حكيمة التي لا تزال صغيرة جداً وجميلة وذات خصلات شعرحمراء ، وقد كان الشيخ يخفيها عادة في منزل خاص، فلم أتمكن من رؤيتها سوى مرة واحدة ، ولقد كانت تأمل في أن تمارس عليّ حسنها حتى يمكنها أن تطلب مني خاتماً ذهبياً ، إلا أنني رفضت طلبها بشكل قاطع ، أما الزوجات الأخريات فكنت بين الحين والآخر أهديهن أشياء بسيطة مما يبعث السرور عادة في قلوب النساء ، وانضمت إليهن أيضاً أخت الشيخ طريفة وهي تنين منزلي غير مقبول من جميع النواحي وتتمتع بصوت جهوري ، وهي متزوجة من بدوي لم تره منذ ست سنوات في حين كان ولدها غطيان ذو الخمسة عشر عاماً شاباً رائعاً ، أما فهيدة فكانت أُمّاً لخميس المدلل ذي الأعوام الثلاثة ولسالم الأكبر منه ، وعندما سألتها عن عمره أجابت أنه ولد في عام المجاعة، وقد وجدت مشقة في حساب عمره الذي يساوي اثني عشر عاماً ، ففي ذلك العام لم يُثمر النخيل واضطر الناس إلى ذبح الإبل، حيث بلغ سعر صاع التمر القديم مجيديّاً واحداً أي ما يعادل ٣.٥ مارك .

لم يكن المرء عند حساب عدد الأولاد يحسب معهم عدد الإناث ، فإذا سألت شخصاً له نصف دستة من البنات عن عدد أولاده كان يرد بتنهيدة أنه ليس لديه أي أولاد، في حين أن الولد بمجرد أن يستطيع الإمساك بطبق الطعام الخاص به يمكنه أن يظهر في مجتمعات معارفه، ولكن لا يسمح له بالحديث، وإنما بالرد على الأسئلة فقط، ذلك أنه لم يكن من السهل بالنسبة إلى الكبار أن يوجهوا حديثهم إلى الأطفال، بل لم يكن المرء ينظر إليهم تقريباً، فما بالك بإظهار الإعجاب بهم، حيث إن ذلك قد يعني أن المرء يحسدهم ، ثم ما الحديث الذي يمكن تبادله مع الأطفال ؟ كذلك ليس مفهوماً سواء بالنسبة إلى الطفل أو الكبير سؤال الطفل عن عمره كما يحدث في أوربا، لأنه أمر لا يهم أياً منهما ، بل إن الكبار يصعب عليهم تحديد عمرهم ، ويمكن للمرء أن يلحظ ترتيب أفراد الأسرة عندما يشاهدهم خلال إحدى الولائم، ففي البداية يأتي الرجال من المضيفين والضيوف الذين يبدؤون الأكل، وعندما

يشبعون يتركون ما تبقى لمن هم أصغر منهم من الفتيان الذين يهجمون على الأطباق ويرجعونها خاوية إلى النساء اللاتي يحتفظن لأنفسهم بالأرجل والأمعاء وما شابه ذلك من أجزاء الحيوان ، وأخيراً لا يبقى للخدم وحيوانات المنزل أكثر من الجلد والعظم .

كنت أحظى بكثير من السرور مع زنجية تدعى بلوى كانت تجلس عادة في الفناء، في حين يعمل زوجها طول اليوم في الملاحات ، وذات يوم طلبت مني أن أرسمها ، وسُرّت هي والنساء الأخريات كثيراً بالرسم الذي تركته لهن ، ولكن بعد دقائق وحينما كنت خارجاً من القهوة إلى الفناء وجدت بلوى جالسة تبكي وتنوح ، وعندما سألتها عن السبب أجابت بأن محموداً المهرج ذا الدعابات أوهمها أنني طالما رسمتها فقد أصبحت تحت سيطرتي دون حماية ، وأنه يمكنني في أي وقت أن أرسلها إلى بلاد النصارى ، وأن الله وحده يعلم ماذا ينتظرها هناك ، ورغم



فناء منزل الشيخ عبدالله في كاف

محاولاتي تهدئتها فإنها اعترفت لي بأنها لن تنام الليل كله بسبب خوفها ، فقمت بإحضار عدد من الرسومات الأخرى لأناس وحيوانات حتى أوضح لها أن الرسم لا ضرر منه، وحينذاك أدركتُ مدى التأثير الذي تحدثه الصور التي تمثل أشخاصاً في هؤلاء البسطاء، فقد كانوا يتأملونها في البداية ثم يرمونها من أيديهم، وهم يطلقون صيحات مفزعة كانت تتحول إلى الضحك حينما أقنعهم بأنه لا ضرر منها، وينادون أصدقاءهم لرؤية الرسوم ، وكان ذلك يتكرر عدة مرات يومياً كلما جاء زائر جديد .

جاءت اليوم لزيارة منزل عبدالله فتاة جميلة عمرها ١٧ عاماً تسمى لهود ، وهي من قريبات الشيخ في إثرة ، وقد طالبتني بجرأة متناهية أن أتزوجها(٢٨) ، وكانت هذه أيضاً رغبة النساء الأخريات ، ولكي أدفع عن نفسي ذلك الطلب ذكرت لها أنني سأذهب إلى بلاد البدو دون أن أستريح ، وهناك لن أكون في حاجة إلى امرأة وإلا لكنت اصطحبت امرأة من بلادي ، كذلك تعللت بأن نساءهم غير معتادات على ركوب الجمل في حين أنني سوف أركب ليلاً ونهاراً بالإضافة إلى أنه ليس لدي سوى ذلول واحد فقالت هذا لا يهم سأركب رديفة لك خلف الشداد ولن أحتاج إلى رسن أو مقعد آخر ، فقلت لها هذا ممكن لكنني لن أستطيع أن أعيش بقية حياتي في بلادكم ، بل أريد الرجوع إلى بلاد النصارى ، لهذا فلا يمكنك الذهاب معي، فقالت لم لا ؟، هل سيقتلونني ، ثم إن عليك باعتبارك زوجاً لي أن توفر لي الحماية ، كما أنه في إمكانك وأنت رجل موسر الحال أن تقدم لي البرغل وحفنة من الأرز والتمر كي أظل على قيد الحياة ، وعند حاجتي إلى ثوب لن تتردد في شرائه لي ، أعتقد أن تلك المطالب ليست عسيرة عليك، فقلت لها: وماذا ستفعلين حينما تذهبين إلى بلد لا تستطيعين فهم لغته وأهله غرباء عنك، وهل ستجهشين بالبكاء على فقدان أبيك وأمك، فقالت: أعتقد أنني لازلت في نظرك ساذجة وبسيطة ، فباستطاعتي تعلم لغتكم كما يتعلمها أطفالكم ، تزوجني واحكم بعد ذلك هل سأبكي على فراق والدّي وإخوتي أم لا ، بل أؤكد لك الآن بأنك لن تسمع شيئاً من ذلك يخرج من بين شفتاي ، وهكذا بقينا نبحث مسألة الزواج هذه يوماً بعد آخر ،وأحيانا كانت تلك

---

(٢٨) يستمر المؤلف هنا في توجيه الحديث عن نفسه وأهميته وجاذبيته وهو الشيء السائد في رحلته هذه .

الأحاديث الصريحة والساذجة مصدراً للبهجة . ويجب أن أعترف أنه نادراً ما صادفت بين الفتيات من لها مثل تلك الشخصية الجريئة والوديعة في الوقت نفسه، ومن يعرف فربما كانت الأمور ستصبح على ما يرام معها ، مثلما كان الحال مع بيترو دي لافالي[٢٩] .

الثلاثاء ١٨/٩/١٨٨٣ كانت السماء اليوم مثلها بالأمس مغطاة بالسحب ، وكانت رياح الجنوب الشرقي الساخنة تهب علينا ، وبينما كنت على وشك القيام بزيارة إلى منصور ذي السترة الحمراء قدم إلى بابي خمسة من البدو من قبيلة الحوازم لكي يتزودوا بالملح من كاف، وقد أكد لي عبدالله الذي يدعي الفقر في سحنة شاكية أنه لا يستطيع أن يقدم القهوة لضيوفه، ويريد أن يقترض مني بعض حبوب البن. جاء إلى كاف قبيل غروب الشمس مجموعة من رجال قصر الوشواش ، وهم أولئك الذين أعدوا لي وليمة قبل أيام عندما كنت في زيارة لهم ، فاستغل عبدالله هذه الفرصة وأرسل زوجته فهيدة لكي تقترض مني شيئاً من حبوب البن . وفي المساء انقلبت رياح الجنوب الشرقي إلى عاصفة صحراوية مما أثار الأتربة القذرة حتى إن المرء لم يكن في وسعه أن ينصب قامته في الخلاء ، لذلك دعوت الجماعة كلها للجلوس معي في القهوة، ولعلي هنا أجدها فرصة مناسبة لأشرح لكم طريقة إعداد القهوة عند البدو، فهي تختلف عما يسمى بالقهوة التركية إذ تتفوق عليها في الطعم وإثارة الانتباه ، فبينما المرء في أوروبا يريد القهوة جاهزة أمامه على المائدة ويستمتع معها بتدخين السيجار ، فإن البدوي يجد متعة بالغة في مراقبة العمليات الطويلة المملة في إعداد القهوة بحيث يبدو أن شرب القهوة لا يمثل أخيراً سوى الجانب غير المهم من العملية . في البداية يتم إشعال النيران في الحطب الموجود في الحفرة (الوجار) أو إشعال الفحم في الفرن الموجود في الركن على ارتفاع ١.٥ قدم (رقم ١ في الشكل المرفق) ، وذلك باستخدام الفحم الذي ينفخ فيه بمنفاخ (رقم٢)، ثم توضع الحبوب على محمصة مسطحة من الحديد (رقم ٣) ذات ذراع طوله قدمان ، ويتم تقليبها أثناء التحميص بواسطة ملعقة مربوطة بسلسلة حديدية ، ثم توضع بعد ذلك في المبرادة

(٢٩) رحالة إيطالي قام في عام ١٦١٤م برحلة إلى الشرق بدأها من البندقية إلى تركيا ثم مصر ثم القدس ومن هناك إلى سورية ثم إيران والهند. وفي عام ١٦٢٦م عاد إلى إيطاليا وقد تزوج من فتاة شرقية .



أدوات عمل القهوة

(رقم٤) ، ثم بعد ذلك توضع في النجر (رقم ٥) وتطحن بأدوات حجرية (رقم ٦) ، حتى تصبح مثل الدقيق ، ثم تخرج بواسطة ملعقة التقليب الحديدية (رقم ٧) ، وفي أثناء ذلك تجهز الدلال الثلاث (رقم ٨) حيث يوضع الماء في أكبرها على النار حتى يغلي ثم يصب في الثانية التي تحتوي أيضاً على البن المطحون ، وتوضع فوق النار لمدة عشر دقائق حتى تختفي الرغوة وينضج البن تماماً ، ويظل مترسباً في القاع ، وخلال ذلك تطحن بعض حبوب الهيل، وتوضع في الدلة الثالثة ، ويصب عليها محتوى الدلة الثانية ، ثم توضع الدلة الثالثة قليلاً فوق النار، ثم تنحى جانباً حتى تترسب كل المواد في القاع وبذلك - وبعد حوالي ٣٠ إلى ٤٠ دقيقة- يكون قد تم إعداد القهوة، ويقوم شخص بإمساك الفناجين الصغيرة، وكلها بلا أيدٍ أو أطباق في يده اليسرى[٣٠]، وتتراوح ما بين ٦ - ٨ فناجين داخل بعضها بعضاً، ثم يصب فنجاناً للجالسين حسب ترتيب أهميتهم، ولا يتجاوز ما يصبه في الفنجان نصف محتواه . وتوزيع

(٣٠) العادة المتبعة في صب القهوة ، أن يمسك الشخص بالدلة في يده اليسرى ، والفناجين بيده اليمنى ، ويعدون تقديم الفنجان باليسرى إلى الضيف عيباً .

الأربعاء ١٨٨٣/٩/١٩ عاد صباح اليوم الصبي الصغير الذي يعد القهوة عادة في منزل عبد الله – وهو صبي غير طيب واسمه مطيلق – إلى المنزل وقميصه ملوث بالدماء ويرتدي بعض قطع الملابس الغريبة ، وكان حسب رأي محمود الذي يدعي دائماً أن مطيلقاً هذا لص مدرب قام في ليلة البارحة بتنفيذ إحدى مغامراته وقتل شخصاً ما. ذهب عبدالله خلال الليل للقنص مع رجال الوشواش ، أما أنا فقد قضيت فترة بعد الظهر في بستان فادي صاحب الربابة ، حيث حدثته عن الوقعات الحرببية والمدافع والبنادق وما شابه ذلك .

الخميس ١٨٨٣/٩/٢٠ قام عبدالله بإحضار صيده، وكان عبارة عن ست دجاجات ، وقد شرفني بإعطائي اثنتين منها على سبيل التغيير لأكلها مع الأرز ، بالإضافة إلى ذلك أتيحت لي الفرصة لشراء البيض ، وكان سعر الخمس بقرش (١٦ بفنج) ، أما سعر الديك فكان يتراوح بين ٣ – ٦ قروش (٥٠ بفنج = نصف مارك) ، وعموماً كانت هذه هي آخر الدجاجات التي رأيتها حتى نهاية الرحلة كلها . كانت الرياح المحملة بالأتربة شديدة هذا اليوم ، كما كانت السماء ملبدة بالغيوم والجبال محاطة بطبقة قاتمة . في المساء خرجت حافي القدمين للتنزه فوق الأرض الصلبة بسبب تغلغل الملح فيها ، ثم رقدت ناظراً نحو السماء واستمتعت بالهواء البارد الذي حملته رياح الشمال الغربي . وفي المساء تجمع كثير من الناس حول الربابة موقدين نيران القهوة ، وللأسف أدى شربي لكثير من القهوة إلى صعوبة نومي تلك الليلة ، فكان على حمود أن يقص عليّ خلال ساعتين عما يحدث في رحلة الحج إلى مكة، حيث إنه شارك بصفته كاتباً سبع مرات في رحلات الحج التي يقوم بها محمد سعيد باشا ، كذلك فإنه قضى سبع سنوات مع حمود باشا عبد اليقين وأربع سنوات مع أحمد باشا بوظو ، وقد أعطى وصفا تفصيلياً لترتيبات الحج ونظامه كافة، كما تحدث عما يحدث خلال تسع وأربعين محطة توقف بين دمشق ومكة ، وفي صباح اليوم التالي دونت ما قاله، وخاصة ما يتعلق بالملاحظات الطبوغرافية حول طريق القافلة ، وربما أقوم ذات يوم بنشر تلك المعلومات ذات الطبيعة المتخصصة في مجال آخر .

الجمعة ١٨٨٣/٩/٢١ حضر اليوم غيران الصياد الذي اعترف بأنه خلال عامين لم يصطد فريسة واحدة ، ومعه غزال مذبوح وأرنب، ولأنه كان على اقتناع تام بأنه حصل على تلك الغنيمة بسبب ذلك الحجاب الذي عملته له من قبل فإنه أعطاني بملء رغبته تلك الغنيمة وحصل مقابلها على هدية مقدارها ١٥ قرشاً (١.٥ مارك) .

وفي المساء أخرجت (البومرنج) (قطعة خشبية تقذف وتعود إلى حيث انطلقت) من متاعي، وقذفت بها في الخلاء نحو المرتفع فأحدثت قوساً كبيراً وعادت ثانية، وطبيعي أن تلك الأداة أثارت دهشة بالغة إلى حدّ أن معظم الناس اعتقدوا أنها أداة سحرية ، ولاسيما أنني جعلت من أرادوا تجربتها يمسكونها خطأ من الناحية الأطول ، وهكذا حين كانوا يلقونها لم تكن تعود مرة أخرى ، فكان أن تجمعت القرية كلها لكي ترى المعجزة الجديدة ، وحينما رأيت بعض النساء خارجات من باب البيت لمشاهدة هذه اللعبة قمت برمي الأداة على ارتفاع ٢٠٠ قدم من فوقهن مما أثار فزعهن واضطررن للجلوس على الأرض، وعندما أردن النهوض عادت الأداة مرة أخرى إلى حيث انطلقت ، مما جعل الجميع يصيحون قائلين : ما شاء الله ! وقد كان من الصدف العجيبة في حال رجوع اللعبة إلى مقر قذفها أن تصيب للمرة الخامسة على التوالي الشخص نفسه الذي كان يقف معنا ، وقد كانت الإصابة الخامسة شديدة لدرجة أنها أحدثت ثقباً في ثوبه المهتري ، مما جعله يدعي أنني تعمدت ذلك ، فقمت فوراً بتعويضه .

تم على غير العادة في هذا اليوم تحضير عشاء وفير أرز مع دجاجة بالإضافة إلى لحم غزال ولحم ماعز ، وقد أرسلت مع محمود بعضاً من القطع الفائضة إلى النساء في الفناء المجاور، وقمت بنفسي كالعادة بدعوة الشيخ عبدالله إلى الأكل ، وكعادته أعلن في البداية رفضه، ولم يجلس إلا حين انتهيت، فأجلس معه خميساً ومحموداً ليأكلوا بقية الطعام.

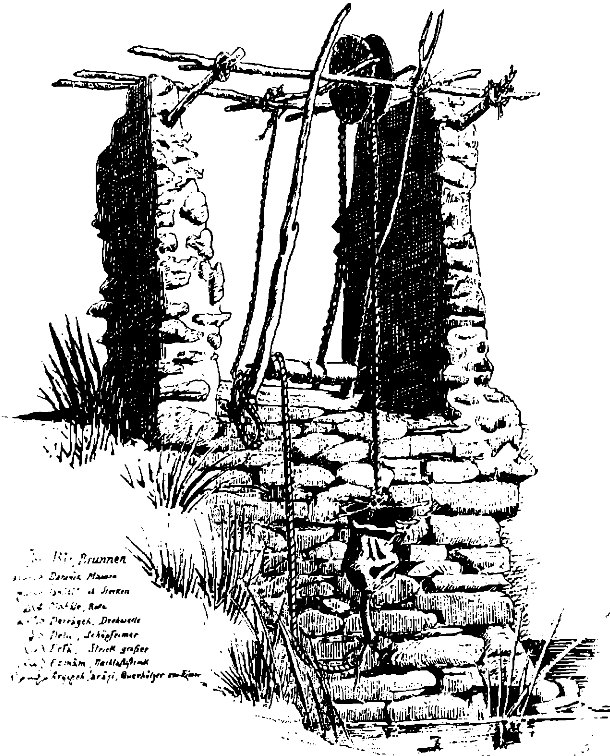
السبت ١٨٨٣/٩/٢٢ جاءني قبل شروق الشمس شخص ليحصل على تعويض وعدته به نتيجة لإصابةٍ لحقته من (البومرنج) في اليوم السابق فأعطيته ٠,٢٥ مجيدي، فذهب وهو

يقول: سيكون المرء متأسفاً لو أن هذه اللعبة لم تصبه ، وسيحرم من هذا التعويض. وبالنسبة إلى حالتي الصحية فقد كانت جيدة ، إلا أن عيني كانتا ملتهبتين باستمرار بسبب الأتربة والرمال الكثيرة، بل أنهما كانتا في الصباح مغلقتين تماماً بسبب (الغمص) ، وكنت أعالجها بمحلول من الكبريت والزنك ، وكان الحمام الذي آخذه عادة كل يوم مفيداً جداً لي، وكان ذلك يتم في البئر الرئيسة بالبستان والذي بني عليه -كما توضح الرسمة المرفقة - بعض المنشآت البدائية .

في هذا اليوم تم بناء على رغبتي تنظيف الفناء أمام القهوة ، حيث أخرجت العديد من الأوعية المملوءة بالأتربة والمخلفات الأخرى ورميت في البستان ، وعندما ظهرت لنا أرضية الفناء البكر تم نصب موقدين فيه ، كذلك طلبت تنظيف القهوة نفسها وغسلها بالماء ، وبعد ذلك لبيت دعوة شخص يدعى شاهراً لأشرب القهوة عنده ، وكان لديه بالإضافة إلى ذلك نوعان من الدبس وهو مشروب غليظ ، أحدهما مصنوع من الزبيب، والثاني من المصع وهو عبارة عن حبات حمر اللون تجنى من أشجار تنبت في الصحراء . كنت أتضايق كثيراً حينما أطلب من الناس إعادة بعض الكلمات التي لم أتمكن من فهمها ، فيقومون بإعادتها بصوت عالٍ جداً معتقدين أن الصراخ سيساعد على فهمي إياها.

وخلال فترة بعد الظهر كان الكثيرمن سكان البلدة ينتظرونني، حيث قمت بإحضار (البومرنج) مرة أخرى ، ولكن اللهو لم يستمر طويلاً هذه المرة ، فقد انكسرت القطعة الخشبية حين سقطت على حجر مما أثار استياء الناس .

الأحد ١٨٨٣/٩/٢٣ لماذا يستيقظ الجميع مبكرين في ظلمة الليل، وقبل ساعة على الأقل من شروق الشمس ؟ لا يمكن أن يكون السبب هو الدافع الديني وحده، وحتى لا تفوتهم صلاة الفجر، كما أن السبب ليس الإسراع بعقد الصفقات المهمة ، ولكنني أعتقد أن معظمهم يستيقظ حين يشعر بالبرد الشديد ، لأن ثلاثة أرباعهم لا ينامون على أسرة أو أبسطة، كما



إحدى آبار بلدة كاف

أن بعضهم لا يملك بجانب ثوبه سوى غترة يغطي بها رأسه ، ولا يملكون معطفاً ، وحين يريدون النوم يلقون بأنفسهم هكذا فوق الأرض العارية في أي مكان ، فعلى الرغم من أنه ليس هناك أجمل من نوم تحت سقف السماء في ليلة مقمرة ، إلا أن أولئك المساكين يشعرون ببرودة الليل القارصة ، فيضطرون إلى الاستيقاظ محاولين السير هنا وهناك لتدفئة أجسادهم[٣١]. بعد الإفطار وجدت نفسي مضطراً - بصفتي واحداً ممن يهتمون بالماء ، ويستطيعون العثور على منابعه - أن أقوم بملاحظة طبوغرافية الأرض الممتدة عبر الطريق المؤدي إلى حافة جبل

(٣١) يبدوا أن المؤلف هنا لم يتمكن من التكيف مع الوضع وتعرض إلى عدم الراحة في النوم بسبب ذلك واعتقد أن الجميع مثله ، بينما كان من طبائع أهل المنطقة أن يستيقظوا مبكرين لأداء صلاة الفجر والاستعداد للعمل .

الصعيدي ، فاستطعت الكشف عن الحفر كافة، وأخبرت بها الشيخ وأتباعه مبيناً لهم أن إعادة حفرها سيؤكد أنها كانت في السابق مواطن آبار قديمة ، وبالفعل فقد أكدوا لي أن اثنتين منها كانتا في السابق مناهل للماء، ولكنهما انطمرتا بفعل زحف الرمال ، وقد كانت إحدى الآبار الواقعة خلف المدينة هي التي نالت اهتمام الشيخ لكونها تتبع البستان المجاور لبستانه ، ولم يهدأ له بال حتى قمت بتحديد فوهة البئر له ، ثم أراد فوراً معرفة عمقها ، فأشرت له إلى أحد جدران البيوت المقابلة مستخدماً طوله قياساً لتوضيح عمقها ، وأضفت قائلاً كيف يجرؤ أولئك على إهمال بئر أجدادهم ، فمن الواجب عليهم أن يحصنوها بجدار دائري ، وخلال ذلك وجدت الوقت مناسباً لأستفيد من حالتهم المعنوية المرتفعة ، كي أجعلهم يذكرون لي أسماء مواقع المياه والآبار وغيرها في أنحاء البلاد ، وخلال ذلك علمت بنبأ سيئ وهو أن نبع (الشقيق) الذي يعد أهم منهل في الطريق الذي سأسلكه مستقبلاً - وهو الوحيد خلال مسافة خمسة أيام دون مياه خلال النفود بين الجوف وجبة - قد أصبح غير صالح للاستخدام، حيث أمر شيوخ حائل بإلقاء الحجارة فيه ، لمنع هجمات جيرانه الشماليين (خاصة قبائل الرولة والصقور) . ولما كنت أعرف مسبقاً أن بئر الشقيق التي هي عبارة عن دحل (خفس) يسير عبر التجويفات الصخرية وماؤها قليل مقارنة بالآبار الأخرى في الجزيرة العربية ، وقطرها يصل إلى حوالي المترين ، وعمق الماء فيها يتراوح ما بين ٦٣-٧٠ متراً فقد أحضرت معي من أجل ذلك أربعة حبال طول الواحد منها ٢٥ متراً وأربعة جرادل ، أما الآن وبعد أن ردمت هذه البئر فأرى لزاماً علي من أجل قطع تلك المسافة الخالية من الماء أن أحصل خلال إقامتي في الجوف على مجموعة أخرى من قِرَبِ الماء .

في هذا اليوم أحضر لي الصياد (ذيبان) أرنباً وطلب مني مقابل ذلك أن أعمل له حجاباً ، ولما كنت قد عملت ذلك لأناس من قبل فلا بأس أن أعمل له أيضاً، على أي حال فأنا مقتنع أنني أعمل شيئاً جميلاً لهؤلاء الناس ، فلو قدر لشخص ما بعد مائتي سنة أن يجمع تلك الأحجبة من أصحابها البدو فسيجد مقابل ذلك ما يضحكه . لقد أدى وصول بعض البدو من قبيلة الرولة إلى أن أتخلص من زواري ، فبعد الترحيب بهم أجلسوا في الفناء يتقدمهم

زعيمهم كريم بن دغمي الذي يبدو أنه في مهمة رسمية ، حيث سيتوجهون بعد ذلك إلى الجوف ليمضوا بعض الوقت هناك ، لذلك تركوا هنا بعض أمتعتهم إلى حين عودتهم في الشتاء .

بدأت في هذا الوقت بشائر فصل الخريف تتضح تدريجياً ، ففي وسعي الآن أن أتجول خلال الساعة الثالثة بعد الظهر ووجهي مكشوف وقدمي عارية فوق التل الرملي دون أن تحترق بشرتي ، و ذلك مالم يكن متاحاً قبل أسبوعين . وفي ذات مرة قابلت لهود وفتاة أخرى جالستين خلف السور الخارجي للقرية وشعورهن منقوضة ومعهما إناءان فيهما سائل أصفر ، وقد أجابتا عن تساؤلي بأنهما تريدان غسل شعرهما، وأنهما تنتظران صديقة لهما تملك مشطاً لعلها تحضره معها ، وقد أخبرني محمود فيما بعد أن ذلك السائل ليس سمناً كما كنت أعتقد، بل إنه بول أحد الجمال ، وقد كان من المرغوب لديهم أن يضعوا رؤوسهم تحت الجمل ليصب عليها بوله مباشرة ، لكون بول الجمل يعد وسيلة شاملة للعلاج والتنظيف[٣٢] ، كما هو الحال عندنا مع الحمام الدافئ والصابون وماء الكولونيا ، وقد رأيت النساء في معان[٣٣] يفضلن رائحة وطعم عصير النيكوتين، ويستخدمنه لجلي الأسنان ودهن الشفاه .

بينما كان أفراد قبيلة الرولة يجلسون في الخارج كنت أجلس في القهوة ، وتركت محموداً يقص علي من أنباء العلا والحجر (مدائن صالح) ، حيث بدأ يصف لي تلك المساكن الصخرية أو بعبارة أصح المقابر النبطية[٣٤] المنحوتة في الصخر ، وقال لي إن المرء سيجد هناك مجموعة من الأحجار الصغيرة عليها كتابات قديمة ، وأضاف أنه أخذ واحدة منها غير أنه بسبب إهماله لا يعرف أين مصيرها الآن ، ولعل ما يقصده حمود هي لوحات الطين المشوي التي وجد أمثلة عديدة منها في تدمر[٣٥] .

(٣٢) كانت عادة مستخدمة في الماضي لدى بعض القبائل لاعتقادهم أنه يطيل الشعر ويحافظ على بريقه .

(٣٣) بلدة تقع في جنوب الأردن .

(٣٤) نسبة إلى الأنباط ، وهم قبائل عربية يعود أول ذكر لهم في المصادر التاريخية إلى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وقد تمكنوا من تأسيس مملكة قوية استمرت قرابة ثلاثمائة عام (١٩٦ ق. م - ١٠٦م) ، حيث امتد نفوذهم من البتراء عاصمة مملكتهم شمالاً حتى الحجر (مدائن صالح) جنوباً ، ومن صحراء سيناء غرباً حتى دومة الجندل شرقاً .

(٣٥) مدينة أثرية تقع في الصحراء السورية على مسافة ٢٣٠كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من دمشق ، وقد جاء أول ذكر لها في النصوص البابلية العائدة إلى الألف الثاني قبل الميلاد .

الإثنين ١٨٨٣/٩/٢٣ جاءت مع طلوع فجر هذا اليوم جماعة أخرى من الرولة المنتمين لقبائل الحوازم والكواكبة وعنزة والدغمان ، ولأنهم لم يثيروا اهتمامي فقد بقيت داخل القهوة طوال اليوم ، وجعلت محموداً يُملي عليّ أسماء الأسلحة النارية ومكوناتها، في تلك الأثناء دخل علينا مطيلق غاضباً يريد الجلوس في أحد زوايا القهوة غير أنني قمت بإخراجه، وقد كان سبب غضبه هو أن عبدالله - رغبة منه في نصرة ابنه سالم- أهانه أمام النساء، وقد أدى به غضبه أن يمتنع عن المجيء إلى الأكل .

فجأة سمعنا صوتاً يصيح في القرية - إنه حوران الشراري الذي يملك أكثر من أربعين نعجة، ويتجول معها طوال العام خلال الصحراء - قائلاً : في الأمس بينما كنت بالقرب من القرية جاءني ستة عشر رجلاً ممتطين ثماني ركائب، وساقوني أمامهم إلى مكان ليس ببعيد من القرية، ثم أخذوا نعاجي وولوا هاربين.

وسمعنا في المساء طلقات نارية خرج الناس على إثرها من القرية لمقابلة القافلة التي خرجت من هنا قبل عشرة أيام محملة بالملح إلى حوران ، وعادت الآن وهي محملة بالحبوب، واحتفالاً بقدومها أعد حفل ضخم لشرب القهوة والترحيب بأعضاء القافلة البالغ عددهم بين ٥٠ –٦٠ شخصاً، أما أنا ففضلت النوم مبكراً غير أنني عبثاً حاولت النوم دون جدوى ، ففي البداية جاءني مطيلق ليأخذ مني فناجيل القهوة والنجر، ثم رده إلى محمود مرة ثانية ليبحث في القهوة عن المصباح ، ولكنه لم يجده ، فجاءت من بعده طُرَيْفَة للبحث عنه فأحدثت هي الأخرى ضوضاء مزعجة ، وبينما كنت متهيئاً للاستغراق في النوم فوجئت بطفل يشعل النار بعسيب نخل، ويحاول العثور دون جدوى على المصباح، مما جعلني أنهض من فراشي وأطلب من محمود أن يخرجه من القهوة .

الثلاثاء ١٨٨٣/٩/٢٥ استيقظنا اليوم قبل طلوع الشمس بوقت طويل فحيينا بعضنا بعضاً، وتحدثنا عن بعض المستجدات، كان طعام الإفطار أشبه ما يكون بزبدة الشوكلاتة ، حيث

تكون من الخبز الممزوج بالسكر والزبد ، وقد كان طعمه لذيذاً . وفي مساء البارحة قام الشبان مستخدمين مصيدة معدنية باصطياد ضبعة، وأرادوا أن يقدموها إلي، ولكن محموداً طردهم. وأراد عبدالله في هذا اليوم أن أرافقه إلى منازله حتى أتعرف على طراز بنائها ، وقد كانت البيوت مبنية كلها من الطوب النيء (اللبن) ، ومعظمها من دور واحد ، وسمك الحوائط يتراوح ما بين قدمين وثلاث أقدام، وتعلوها الزرانيق (الشرفات) ، أما بالنسبة إلى الغرف وحجرات الاستقبال على وجه الخصوص (وما يطلق عليها اسم القهوة) فهي مرتفعة جداً وتصل من ٤- ٦ أمتار ، وهي مسقوفة بخشب الأثل وفوقها سعف النخيل المغطى بالطين والجير ، وهناك ماسورة جانبية لتصريف مياه الأمطار، ويترك المرء بين البيوت بعض الأحواش ذات الأحجام المختلفة وغرف الفضلات، أما الفناء الداخلي الكبير فتحيط به حجرات التخزين والمطبخ وغرف أخرى تستخدم لأغراض مختلفة، وأعتقد أن كل زوج من زوجات الرجل تحتفظ مع أبنائها بجناح خاص مستقل على شاكلة بيوت العرب الأثرياء التي سأقوم فيما بعد بتقديم توضيحات ورسومات لها حين يأتي وصف إقامتي في حائل .

جاءني اليوم أحد البدو من مشهد الواقعة على شط الفرات طالباً المساعدة ، فقال لي: إنه وزملاءه تعرضوا لحالة سطو في الحرة وفقدوا جميع مايملكون من جمال، فأعطيته ربع مجيدي (فرنك واحد)، ولكنني بعد ستة أيام سمعت أنه كاذب، وأنه هو وزملاءه قاموا بسرقة ٢٥ جملاً من جبل الدروز .

بعد أن خرج عبدالله مساء اليوم مع مطيلق في رحلة تستمر يومين إلى إثرة أصبح علي أن اهتم بضيوفه الذين جاءوا لتناول القهوة ، ومن ثم العزف على الربابة والغناء ، وبينما كنت مستلقياً على فراشي بجانب أحد جدران الفناء قام نزّال بكل وقاحة بوضع قدميه على الفراش فأمسكت برجليه ورميته في مكان آخر ، فكان ذلك مؤشراً للآخرين كي يبتعدوا إلى الزاوية الأخرى من الفناء ، ولكنهم رغم ذلك استمروا في لهوهم إلى أن جاءت إحدى الغنم إلى مكاني، فقفزت لأخذ سيفي الذي كان بالقرب مني ، فاعتقد الصبية أنني أقصدهم فولوا هاربين ، في أثناء ذلك استيقظ محمود فتناول بندقيته وجرى خلفهم ، إلا أنه خلال هذه

المطاردة فقد مرجس[٣٦] البندقية مما أثار غضبه على البلدة وسكانها، مهدداً إياهم بأنني سأنتقل في حال تكرار ذلك إلى بلدة إثرة ، في أثناء ذلك خرجت طُريفة وفُهيدة مسرعتين من بيتيهما ، وبعد أن عرفت طُريفة بالأمر هددتهم بأن أي واحد منهم يتجرأ على دخول الفناء في الليل ستقوم بإطلاق النار عليه .

الأربعاء ١٨٨٣/٩/٢٦ استيقظت قبل شروق الشمس بوقت طويل فجَاء إليّ شخص ممن تمت مطاردتهم ليلة البارحة وهو يحمل معه مرجس البندقية . وفي هذا اليوم أحضروا ضبعة أخرى أمسكت بها المصيدة المعدنية التي وضعت في المقبرة الواقعة خلف البلدة ، وقد سحبت المصيدة معها باتجاه الجنوب الغربي من جبل الصعيدي إلى أن وصلت إلى جبل أم جرس وهناك تم اللحاق بها وقتلها . كان الجو رغم مرور ساعة من الشروق لا يزال بارداً ومنعشاً، لذلك حملت بندقيتي واتجهت صوب قمة جبل سمراء الوريك (جنوب شرق كاف) ، ونتيجة لصفاء الجو تمكنت من رؤية الجبال الأخرى في الشمال الشرقي نحو جبل شميسانة ومقل وبغيث ، كما بدأ السراب يظهر أمامي في السهل منذ الساعة التاسعة صباحاً ، وقد كان ذلك المنظر يبعث حقاً على الإغراء ليس فقط لمن يشعر بالعطش ، بل إن المرء حين يشاهده يحس برغبة في الإسراع نحو تلك البحيرة الجميلة . وعند عودتي من جبل الوريك التقيت مع ذيبان وغيران وكانا قد اصطادا غزالاً فأعطيتهما ٣.٥ مارك مقابلاً له على أن أعطى فوقه أرنباً، وقد تم ذلك بالفعل بعدها بمدة حيث حصلت على أرنب حي .

جاءت حوالي الظهر بعض النساء من إثرة بعد أن سمعن بالرسومات وأردن رؤيتها ، فتكررت المواقف السابقة نفسها، كما أن عدم عودة عبدالله حتى تلك اللحظة جعل الفوضى تسود داخل القرية .

الخميس ١٨٨٣/٩/٢٧ لا يمكن مطالبة أيُّ شفابي[٣٧] وهو خارج وطنه سواء في أمريكا أو في الجزيرة العربية أن يحتفل بعيد ميلاد الملك فلهلم فون فورتمبرج مثل ذلك الاحتفال الشعبي

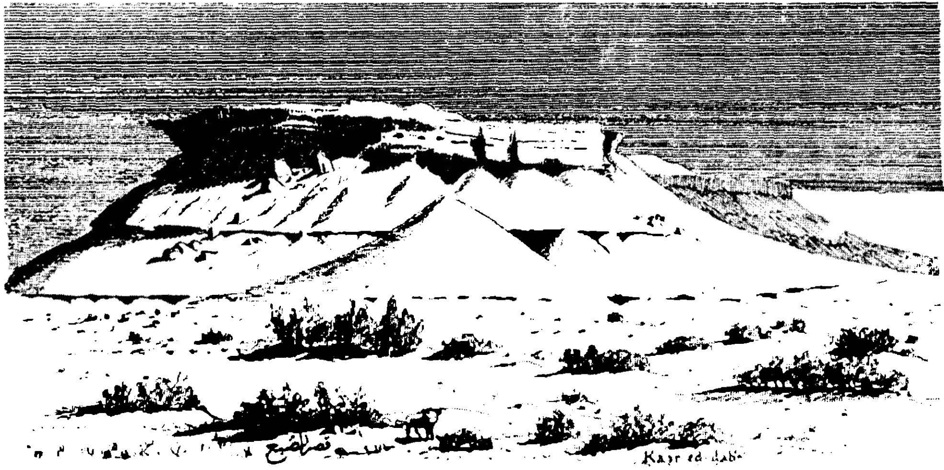
(٣٦) قضيب معدني يُدخل من فوهة البندقية لتثبيت البارود في عينها .

(٣٧) منطقة شفابيش وهي في جنوب ألمانيا و ينتمي إليها المؤلف

الكبير الذي يقام له هناك ، ولكنني في هذه المناسبة التي سميتها عيد ميلاد السلطان أقمت وليمة فاخرة، حيث قمت بخلع ثوبي الحريري الأحمر الطويل، وتجردت من السلاح مشمراً عن ساعدي لأظهر لهم كرم ضيافتي، وقد تناول كل من حضر القهوة والشاي وماء الكاكاو والدخان والتمر والزبد والخبز وشوربة اللحم وغير ذلك، حتى النساء كان لهن نصيب من ذلك أيضاً، وعند الظهر عاد عبدالله الذي أدهشته تلك الوليمة التي لم ير مثلها قط ، ولكنه سرعان ما شارك فيها ، ليس ذلك فحسب، بل إنه شاركني أيضاً في وجبة العشاء المكونة من شوربة العدس والأرز و لحم الغزال والمشمش .

وعند المساء كان هناك صقران يحومان في الأفق ، مما شحذ همة الصيادين فراحوا يعمرون بنادقهم ويجرون خلف بعضهم بعضاً ، ولكن الصقور لم تمنحهم الفرصة، إذ إنها اتجهت نحو الشمال بعيداً عن كاف .

الجمعة ١٨٨٣/٩/٢٨ كان لزاماً على عبدالله أن يبني بيتاً جديداً لحكيمة أصغر زوجاته ، من أجل ذلك جلب معه من إثرة بعض التجهيزات اللازمة للمنزل الجديد. وفي هذا اليوم



جبل قصر الضباع

ذهبت لرؤية المكان الذي اصطادوا فيه الضبعة ، ثم سرت بعد ذلك بمحاذاة حافة جبل الصعيدي الشمالية إلى أن وصلت واحة ساس القف ، وهناك جلست بجوار بيت متهدم عند البئر المردومة ، لكي أرسم أحد الجبال البيض الذي قيل لي فيما بعد: إن اسمه قصر الضباع الذي يمكن للمرء منه مراقبة بداية الصحراء بوضوح تام.

خرجت خلال فترة بعد الظهر للتجول ناحية واحة النبك عاري القدمين ، فقابلت هنالك بعض الصبية ورجلاً مسناً ، وقد كانوا جميعا يقفون حتى وسطهم داخل المياه التي يخرجونها في أوعية جلدية من حفر على عمق ٥ - ٦ أقدام ، ثم ينقلونها عبر مجرى صغير إلى حفرة أخرى عمقها حوالي قدم ، وإلى جانبهم مباشرة كانت توجد بعض أكواخ الطين بعضها مسقوف وبعضها الآخر ليس كذلك ، وقد تصورت أن العملية خاصة باستخلاص الملح، ولكنني علمت أنها تتعلق بصيد الطيور ، ذلك أنه في ذلك الوقت الذي تشح فيه المياه تجد الطيور صعوبة بالغة في الحصول على رشفة ماء، وهنا يختفي الصيادون مع بنادقهم ليلاً ونهاراً داخل الأكواخ، لكي يصطادوا الطيور المسكينة التي تأتي للشرب . كانت نسبة الملوحة في الماء عالية إلى درجة أن كتل الطين المستخرجة من الماء تجف بسرعة تحت تأثير أشعة الشمس، وتتكون فوقها مباشرة قشور ملحية بيضاء . أما بخصوص ملاحظاتي على عملية استخراج الملح فهي تتمثل في أن قاع وادي السرحان الواسع يحوي في الثلث الأعلى منه على خزانات ملحية طويلة تكونت خلال السنوات التي تكثر فيها الأمطار مشكِّلة بحيرات ومستنقعات



عملية استخراج الملح بالقرب من بلدة كاف

ملحية متماسكة تكثر كلما اتجهنا نحو إثرة وكاف، و يبدو أن هاتين القريتين تدينان للملح بوجودهما على الرغم من وجوده أيضا في أماكن أخرى، فحين يمتلئ الغدير بالمياه يخرج الملح بكميات كبيرة من الأرض ، ويستطيع أي بدوي أن يحصل على ما يشاء من تلك الثروة المبعثرة إلا أن تلك الغنيمة تكون عادة مبللة ويجب أن تجف أولاً ، ويشاع عن ذلك الملح المحلي أنه حلو وليس مراً كملح تدمر . على أي حال بالقرب من هاتين القريتين يتم استخراج الملح بصورة منتظمة طوال العام .

ترتفع على مسيرة ساعتين من كاف نحو الجنوب الشرقي فوق تل النبك جبال سمراء غطي وقِليب الملح ، وفي حافة هذين الجبلين قام عبدالله باستخدام المياه الجوفية بعمل برك وقنوات تتيح تدفق المياه المستخلصة وقتاً طويلاً ، مما يؤدي إلى تخلل المياه في الأرض وظهور الملح على سطحها، ومنذ الصباح الباكر حتى المساء يذ هب إلى هناك الخادم بلوي ليقوم باستخراج المياه وحجزها وتجميع الملح ، ثم يتم تجفيف الملح وتنظيفه في حجرات ذات أسوار منخفضة عند مدخل القريتين . وفي كل عام يجلب بدو السرحان وبنو عيسى نحو ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ حمولة جمل إلى حوران[٣٨]، حيث يقومون في العادة بمقايضة بضاعتهم بما يعادلها من الحبوب ، ويتم قياس حجم البضاعة باستخدام مقياس خشبي يسمى (الصاع)، وهو يحتوي عند ملئه على حوالي ١٣ - ١٤ رطلا من الملح ، وحتى لا يخطئ من يقوم بالقياس تتم خلال العمل المناداة بصوت عال عن آخر رقم عدة مرات ، ولذلك يقف أحياناً بعض الرجال إلى جانب صديقهم الذي يقوم بالحساب لمساعدته في تلك العملية الشاقة ، وبعد ١٥ صاعاً أي نصف حمولة، وهي ما يعادل شوالاً كاملاً يبدأ المرء في عمل كومة جديدة .

قام الأتراك أثناء فترة احتلالهم بلدة كاف في عام ١٨٧٠ ميلادية بتعيين موظف لجمع الضرائب ، وقد كان ذلك الموظف يقوم بأخذ مجيدي واحد عن كل حمولة جمل ، يعطي نصفه شيخ البلدة، أما نصفه الآخر فيحتفظ به ضريبة حكومية ، ويذكر أن ذلك الموظف الطيب

(٣٨) منطقة تقع في جنوب سورية تمتد من جنوب دمشق إلى شمال عمَّان ومن شرق جبل العرب إلى تخوم فلسطين .

رغم أنه سرق من قبل كاتبه إلا أنه قام بتسليم مبلغ جيد يقدر بألفي مجيدي إلى عامل الحكومة التركية بدمشق الذي لم يكن يعلم في الأساس بتلك الضريبة المفروضة على كاف مما جعله بأخذها دون تقديم شكره لذلك الموظف .

رأيت عند المساء رجلاً في ميدان القرية يرتدي قميصاً ويضع فوق رأسه غترة بيضاء ويمسك عصا بيده ، وحينما أثار فضولي بلون بشرته البيضاء سألته عن المكان الذي قدم منه بيد أنه لم يكن راغباً في الإجابة إلى أن قام الشيخ عبدالله بطمأنته وأن لا خوف عليه مني ، وهنا بدأ في حذر شديد يجيب قائلاً: إنه وعدداً كبيراً من زملائه الذين يبيتون اليوم في إثرة هاربون من تلك الكتائب الأربع الضعيفة التي أقامها الأتراك بمثابة حاميات في صنعاء والحديدة ، ثم أضاف قائلاً: إنه خرج منذ حوالي ستة أشهر سيراً على الأقدام يتجول مستجدياً البدو إلى أن وصل إلى حائل، حيث تمتع هناك بضيافة ابن رشيد عدة أيام ، وقدم له ولرفاقه ثوباً وغترة وربع مجيدي ، أما الآن فهو ورفاقه يرغبون في الوصول إلى مناطقهم الواقعة قرب دمشق ، ويتمنى أن تنتهي مسيرته إلى هناك بسلام ، أما عن سبب هروبه من هناك فقد علله بسبب انتشار الحمى والأمراض الأخرى من جراء حرارة الشمس وعدم نظافة المياه . وقد قال لي الشيخ عبدالله: إن هؤلاء الهاربين يمرون من هنا كل بضعة أسابيع ، وإنه لمن العجب أن يكون قد بقيّ منهم تركيّ واحد في اليمن ، فبمجرد هروبهم وتركهم لكل أوسمتهم وأسلحتهم فإنهم يتخلصون من كل متاعبهم ، كما أنهم يلقون كل ترحاب من جانب البدو الذين يعتبرون الأعداء الألداء للحكومة التركية ، حيث تقوم كل قبيلة بنقلهم إلى القبيلة الأخرى حتى يعودوا إلى بلادهم ويذهب الجميع في البداية إلى حائل حيث يستريحون ويستمتعون بكرم الضيافة قبل مواصلة مشوارهم نحو بلادهم .وقد رأيت في وقت لاحق عندما كنت في حائل أعداداً أخرى من أولئك الجنود الأتراك الفارين من حامياتهم .

في صباح هذا اليوم وعدني عبدالله بأنه سيعد لنا خبزاً على العشاء ، ولكنني حينما وجهت الدعوة إلى ذلك الجندي الهارب من الحامية التركية في اليمن ازدادت مخاوفه بأن رفاقه الآخرين سيأتون معه إلى العشاء ، لذلك فقد أحجم عن الوفاء بتلك الدعوة ، ولكنني كنت

معتاداً منه على تلك الوعود الكاذبة ، فأخرجت من حقيبتي بعض الخبز ، وحينما أردنا الأكل دعوته فقفز على عجل ليتناول قطعة من الخبز ، علاوة على ذلك دعوته ليتناول معنا القهوة والشاي والشوكولاتة ، وقد كان عليه حيال كل ذلك أن يشعر بالخجل ، ولكن مشاعره لم تتأثر.

السبت ١٨٨٣/٩/٢٩ جاء الهاربون الأربعة الآخرون في الصباح وهم في حالة بائسة ، حيث ساعدتهم ببعض المأكولات والمشروبات ، كما أعطيت كلا منهم ٠.٢٥ مجيدي ، وقد استخدمت معهم جميع الأساليب الممكنة حتى أحصل منهم على وصف للطريق الذي سلكوه، ولكنني لم أستطع سوى الحصول على بعض الأسماء التي تذكروها دون ترتيب نتيجة لتجوالهم مدة ثلاثة أشهر وهي صنعاء ، والملح ، وجبل يام ، ومأرب ، ووادي خب ، ومخلاف (سبيع) ، وجبل عسير ، وقلعة بيشة ، وتربة ، والطائف ، ووادي الدواسر (وهو ذو كثافة سكانية كبيرة) ، وشقراء ، وبريدة ، وحائل، والجوف .

خيم اليوم في ساحة القرية بدو السرحان محضرين معهم حمولة ستة وأربعين جملاً من الحبوب، لكي يتمونوا منها عند الحاجة في فصل الشتاء ، وقد كان معهم في أثناء ذلك أبناء عمهم بنو صخر الذين يستوطنون المنطقة الواقعة بين البلقاء والسلط في شرق الأردن، وقد قام بنو صخر حين عودتهم إلى أوطانهم بأخذ مؤونتهم من الحبوب معهم . بينما كنت أتجول وسط تلك الجموع في ساحة القرية وقع نظري مصادفة على فناء المسجد المجاور فرأيت في أحد الزوايا شخصاً آخر من أولئك الهاربين من الحامية التركية ، فطلبت منه أن يتبعني ، وقد كان علاوة على إصابته بجروح في قدميه يشكو من مرض الحمى ، مما جعله يسير بصعوبة بالغة إلى حيث مقري ، وبعد أن تناول الخبز ولحم الغزال وشرب الشوربة والقهوة بدأ يستعيد قواه ، وحينما أراد الخروج أخذ مني مسحوق الحمى الذي يعرف مدى أهميته بالنسبة له ، وقال لي كلمات شكر لم أسمعها منذ مدة طويلة (الله يطول عمرك ويخليك).

بدأت في آخر نهار هذا اليوم الغيوم تتلبد في السماء، وثارت عند الغروب رياح جنوبية شرقية حارة، وحلت علينا عاصفة قوية استمرت عشر دقائق، مما أدى إلى ارتفاع الأتربة وسقوط

التمر من النخل ، وفجأة هدأ كل شيء وبدأت من الغرب بشائر ذرات المطر تسقط على الأرض، مما أثار سعادة غامرة في نفسي ، فلم أر منذ شهر إبريل (نيسان) نقطة ماء تنزل من السماء ، وعلى الرغم من ذلك فإن درجة الحرارة لم تهبط حيث وصلت عند الساعة التاسعة مساءً إلى ٣٤ . وفي الصباح الباكر وبينما كنت أغط في نوم عميق استيقظت على تحيات أمل جميلة تمثلت بسقوط ذرات المطر، وهي تلامس الأرض بكل لطف .

الأحد ١٨٨٣/٩/٣٠ في هذا اليوم طلب مني الشيخ عبدالله ألا أقوم بالنزهة، وإن كان ولابد من ذلك فليس بمفردي أو دون سلاح ، وذلك بسبب وجود أعداد كثيرة من البدو حول الطريق، وكذلك وجود ضيوفه الذين لا يزالون يرعون إبلهم في المراعي المجاورة للبلدة ، وقد ذكر لي أحد أفراد قبيلة الشرارات أن أكثر من مائتي شراري يتجولون مع إبلهم في المنطقة منفردين أو في شكل مجموعات ، وأنهم دخلوا القرية ليلة البارحة ليتزودوا بالماء .

وعلى الرغم من أن الشيخ عبدالله يقوم بدفع مبلغ من المال لقبيلة الشرارات وبني عيسى والرولة، وكذلك لقبيلة الحويطات فإن حماس قبيلة بني عيسى يزداد مع ازدياد أعداد بنادقهم ، فلديهم اليوم ما يقرب من أربعين بندقية .

إنّ من الصعوبة بمكان محاولة إقناع الشيخ عبدالله بترك طريقة تعامله الخشنة المتعجرفة، فقبل أن آخذ مكاني حول موقد النار لتناول طعام الإفطار وجدت أحد البدو يجلس على فراشي الخاص ، ولم ينهض منه حتى قام محمود بنهره وإبعاده عنه ، ولكنه رغم خطئه بدأ بكيل السب والشتم لمحمود الذي لم يرد عليه بكلمة قط . كان ذلك الرجل يحمل معه قربة مصنوعة من جلد الضب مملوءة بالسمن ، وحينما سألته عن الضب قال لي: إن طوله يقارب طول الذراع ويعيش في الأراضي التي تكثر فيها الكسر الحجرية الصغيرة ، وهو من الحيوانات البياضة ولحمه بعد وضع الملح عليه وطبخه يصبح أبيض .

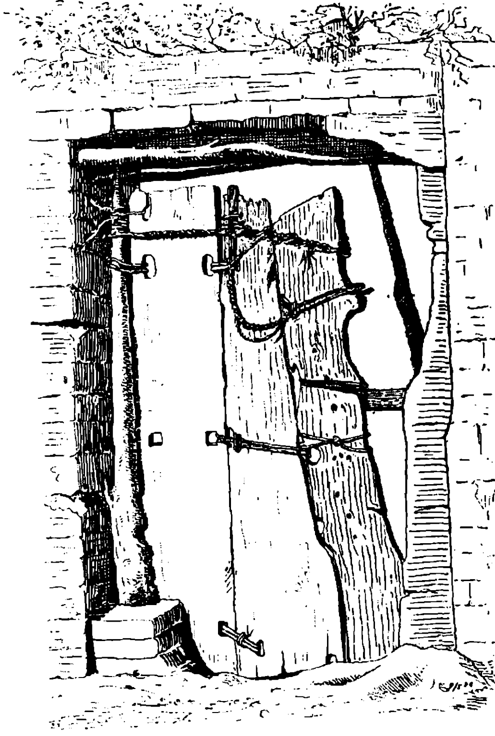
سمعت بعد ظهر اليوم فجأة صراخاً يصدر عن بيت الحريم ، إنها لهود التي تلقت توّاً نبأ وفاة أخيها في إثرة ، وكانت النساء الاخريات في البيت يشاركنها في البكاء والعويل ، وبينما الدموع

تتساقط من عيني لهود قام الشيخ عبدالله بإرسالها إلى إثرة ، وودعتها التوديع الأخير، فلن أرها مرة أخرى.

وبعد مغيب الشمس جاء حوالي خمسة وثلاثون رجلاً من المرعى إلى بيت الشيخ عبدالله ، وجلسوا في شكل دائرة يتناولون التمر الذي قدم لهم في ثلاثة صحون كبار ، بينما كان أحد الخدم يقف ممسكاً بعسيب نخل مشتعل لكي يضيء الأكل الذي كان ينتظر قدومهم . وقد تمكنت من خلال ضوء النار المشتعلة من ملاحظة وجوههم وحركاتهم في وضوح تام . وبعد أن تناولت طعام العشاء فضلت عدم الانتظار إلى حين تصب القهوة فذهبت إلى النوم ، ولكنني لم أتمكن من وضع رأسي على الوسادة حتى بدأ فوراً صوت الربابة الذي استمر إلى قبيل الفجر.

الإثنين ١٨٨٣/١٠/١ كان الصباح شديد البرودة ، وقد عاد أبناء بني عيسى باكراً إلى حوران ، وتركوا مكانهم لأفراد قبيلة الشرارات.

إلى جانب مكاني الذي اعتدت الجلوس فيه دائماً يوجد مباشرة باب يؤدي إلى بستان الشيخ عبدالله ، و يوجد فيه غلامان هما بقّان وسعود ليقوما بحراسته ، غير أنني لم أر قط أن أحدا منع من الدخول ، وكان ذلك الباب يفتح في الساعة الواحدة ما بين ثلاث إلى أربع مرات وغا لباً ما



أحد الأبواب الخشبية في بلدة كاف

تسمعهم ينادون بصوت عالٍ (يا بقّان ، يا سعود) لكي يقوما بإصلاح أسنان المفتاح الخشبية المتكسرة من جراء كثرة استخدامه .

لقد كنت أقضي عادة عدة ساعات في ذلك البستان حيث كنت أحظى بتسلية لا بأس بها، وكلما أتى عدد من الضيوف أو حتى ضيف واحد كان أحد الحارسين يتسلق نخلة ليحضر بعض التمر الطازج ، وقد شعرت بالدهشة إزاء المهارة التي يؤديان بها تلك المهمة دون كلل أو ملل . تثمر النخلة التي يتراوح طولها ما بين خمسين إلى ستين قدماً في العادة ما بين ستة إلى عشرة قنيان ، يحمل كل واحد بضع مئات من التمر ويصل وزنه إلى حوالي ستمائة رطل[٣٩] ، ويكون التمر في شهر يونيو أخضر في لون البازلاء، ثم يبدأ في الاصفرار مع حلول شهر أغسطس، ولا يميل إلى اللون الأحمر القاني في هذه المنطقة إلا في شهر سبتمبر ، وعندما ينضج فإنه يكون شهي الطعم إلى حد بعيد ، وفي حالة تمام النضج يبدو كما لو كان على وشك أن يتحول إلى عسل لدرجة أن الدبس يبقى أثره منسابا على النوى . وتجدر الإشارة إلى أن النخل ينقسم إلى جنسين: جنس مؤنث ويسمى النخلة، والآخر مذكر ويسمى الفحال ، بحيث يكفي لكل ألف نخلة خمسة أو ستة فحاحيل ، والنخلة هي وحدها التي تنتج الثمار بعد أن يقوم المرء أولاً بإخصابها ، ولهذا الغرض يقوم شخص بتسلق النخلة ويقطع بالمحش عسبانها اليابسة ، ثم يقوم بتشذيب ذلك الغلاف الذي يكسو الطلع، ويضع في وسطه شماريخ اللقاح البيضاء، ويختم تلك العملية بذرٍّ طحين اللقاح المتناثر عليه . كل ذلك رأيته مرات عديدة فيما بعد حينما كنت في شهر فبراير أقيم في تيماء.

ليس بإمكان النخلة الاستمرار في الحياة إلا إذا توافر لها الماء سواء كان ذلك عن طريق امتصاصها بنفسها للماء من خلال جذورها الممتدة إلى أعماق مستوى الماء أو عن طريق الري المباشر لها من قبل أصحابها ، وهذا يعني أن المرء حين يرى نخلاً فلابد أن يوجد الماء على عمق مباشر أو بالقرب منه مباشرة ، وقد قال الشاعر هاينه[٤٠] في قصيدة له ذات مرة

(٣٩) حمل القنو لايصل إلى هذا المقدار مهما كان حجمه ، ولعل المؤلف أراد حمل النخلة جميعه .

(٤٠) هو الشاعر الألماني هاري هاينه ، ولد سنة ١٧٩٧م وتوفي عام ١٨٥٦م .

(كنخلة وحيدة في الشرق البعيد تحزن بصمت على جدار حجري ملتهب). لكن هذا القول وإن كان جميلاً من حيث شاعريته فهو مخالف للواقع الملموس ، فليس في جزيرة العرب ثمة نخلة واحدة تنمو دون عناية وملاحظة ، وبمجرد أن تظهر أولى الثمار الخضراء لا تترك النخلة ساعة واحدة منفردة ، بل تحرس ليلا ونهاراً درءاً للصوص الذين لا يتورعون حتى عن قطف الثمار غير الناضجة ، وحتى إذا حدثت أشد المعارك بين القبائل لا يتعرض المرء للنخيل إذ إن ذلك يعتبر عملاً بربرياً ووحشياً .

وصل في الرابعة والنصف بعد الظهر هوبر وحمود عائدين من دمشق ومعهما عدد كثير من المرافقين ، حيث قاموا بقطع مسافة طويلة وشاقة تعرضوا خلالها لغارة من قبل أفراد قبيلة الرولة حينما كانوا بالقرب من قصر الأزرق ، ولكن معرفة هوبر المسبقة بأفراد تلك القبيلة أخرجتهم من ذلك المأزق سالمين . وحين وصولهم ذكر لي هوبر أنه شاهد هناك في قصر الأزرق نقشاً عربياً واحداً فقط كتب بالخط الكوفي . أما حمود فقد جلب معه من دمشق أشياء لا لزوم لها ، من بينها مجموعات كثيرة من الرصاص ، وثلاث حقائب فارغة . وقد تضايقت كثيراً من تلك الروائح التي كان يدهن بها جسمه ، وأزعجني كذلك بكثرة طلباته وفضوله الذي لم يتوقف حتى رأى بعينه ولمس بيده أغلب الأشياء الموجودة في حقيبتي ، كما كان يحاول أن يظهر لي رغبته في الحصول على حقيبتي ، غير أنني رفضت بشكل حاسم أن أدخل معه في أي نوع من المقايضة .

الثلاثاء ١٨٨٣/١٠/٢ بدأ قبل أيام قلائل يظهر بين الإصبعين الأول والثاني من قدمي اليمنى دمل ضايقني كثيراً عندما أمشي ، وقد كنت رغم النصيحة أغطس قدمي في الماء عدة مرات في اليوم ، وحيث إن الدمل رغم ذلك لم ينفتح قمت بوضع شريط لاصق عليه ، لكن ذلك لم يساعد كثيراً مما جعلني أحاول تناسيه ، وربما تكون الإصابة بسبب عدم تعودي على المناخ الجديد وعلى الحياة الجديدة التي أعيشها الآن . قال لي الشيخ عبدالله - ولعله محق في ذلك - إن كل من لم يولد في جزيرة العرب - حتى وإن كان من دمشق أو صلخد - معرض لتلك الإصابة بالدمامل ، مما يعكر صفوه ويعيق ممشاه ، ولكنها على أي حال ليست خطيرة ، بل

على العكس فالإصابة بها دليل على تمتع الإنسان بصحة جيدة ، ونصحني الشيخ بأن أترك الدمل على حاله ، وهكذا تركت ذلك الدمل وغيره من الجروح التي أصبت بها مستقبلا مفتوحة لأسابيع طويلة رغم أن الرمال والأتربة كانت تزيد من التهابها .



كاف

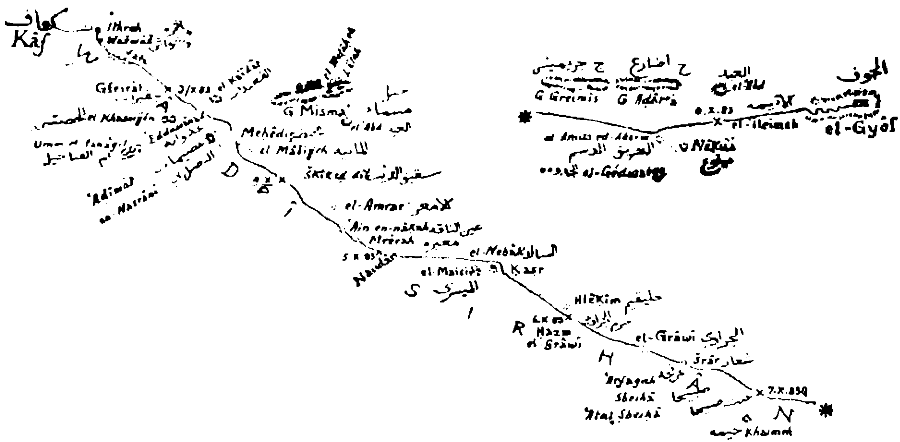
عبر وادي السرحان إلى الجوف

١٠/٣ - ١٨٨٣/١٠/٩

الأربعاء ٣- الأحد ١٨٨٣/١٠/٧ تم بعد طلوع الشمس مباشرة إحضار الجمال ، وبدأ إعداد الأمتعة للرحيل عبر وادي السرحان إلى الجوف . لم يكن هوبر قد أخبرني قبل ذلك أن الرحيل سيكون اليوم ، لذلك أصابتني الدهشة قليلا ليس لأن رحيلي عن كاف كان أمراً شاقاً، بل على الرغم من أنني تركت له كل ما يتعلق بتنظيم الرحلة كنت أتوقع منه أن يخبرني عن اتفاقه على الرحيل مع حمود المجراد . و بمناسبة الوداع أعطيت النساء بعض الهدايا البسيطة ، وسألت الشيخ عبدالله عن أي رغبة يريد مني أن ألبيها له ، فطلب اقتراض بعض المال على أن يرده لي أثناء رحلة العودة، فأعطيته ٥ مجيديات (١٨ماركاً تقريباً)، وألمحت له أن يحتفظ بها حتى نلتقي في الجنة .

تجمعت القرية كلها خارج البوابة كي يتمنوا لنا رحلة سعيدة ، ثم أخذت القافلة في التحرك نحو إثرة في الساعة الثامنة والنصف ، وهي تتكون من ٢٤ رجلا راكبين ٢٣ جملاً، بالإضافة إلى زنجية معها طفلان ، وعلى الرغم من أنني وهوبر كنا أهم شخصيتين في القافلة إلا أن حمود المجراد كان هو القائد الحقيقي لها والذي لا يمكن لأحد أن يعارض توجيهاته ، وفي الحقيقة فقد تمكنت فيما بعد أن أعرف الرجل حق المعرفة وأدرك أنه باستثناء أمير حائل يُعّد أفضل من قابلتهم من البدو ، على الرغم من أنني كنت أستنكر أحيانا بعض خصاله البدوية وطبائعه الشخصية . كان عمره على ما يبدو ٤٧ عاماً ، طويل ونحيف ، ذو عينين ثاقبتين وأنف مدبب ، ولم تكن هنالك حدود لرغبته في التملك ، فهو يريد الحصول على كل ما يراه ولا يستنكف أن يحاول امتلاكه حتى لو لم يستطع ، وإذا لم تكن كل جملة يقولها تحتوي على كذبة فإنه على الأقل يفضل إخفاء الحقيقة من قبيل الحرص ويضلل بإجاباته من يسأله ، لذلك فإنه قام بعدد من المهام الصعبة والدبلوماسية (فقد تم إرساله مثلاً إلى إسماعيل باشا نائب ملك مصر السابق) وأدى مهمته بشكل رضي عنه أميره ، كيف لا وهو الذي يتصف بالذكاء

والشجاعة المطلقة ، كما أنه تفوق بجدارة في كثير من المعارك التي خاضها ، فالضربات ومواضع الإصابة بالرصاص يمكن أن ترى بوضوح في مواضع عدة من جسمه ، على العكس من ذلك وهو مما يبعث على الغرابة أنه مولع بزخارف الحياة ومحب للبهرجة والزينة ، فمن الصعوبة بمكان إحصاء عدد المرات التي يخرج فيها مرآته الصغيرة لينظر بكل لطف وتمعن إلى وجهه ، فقد كان يزين عينيه بالكحل ويمضي الوقت الطويل للعناية بذقنه الأبيض ، وهو كعادة أكثر الشرقيين يصبغها بلون أحمر ، حيث يقوم كل يومين أو ثلاثة بخلط الحنا مع الماء في إناء ويدهن بذلك المزيج لحيته وخصلات شعر رأسه ، وبعد أن يجف الحنا يقوم بإزالة بقاياه المتماسكة في الشعر ، وعندما رأيته أول مرة على هذه الحالة لم أتمالك نفسي من الضحك فمازحته قائلاً: إن محياك يبدو لي وكأنك سقطت على فضلات بقرة ، مما جعله يتأثر من قولي ، وعلى أي حال فعندما يقارن بالبدو الآخرين يبدوشديد النظافة، فلم يكن يطيق النظر إلى الماء دون أن يستخدمه ، إذ يقوم في الحال بغسل يديه ووجهه ثم ينشفهما مستخدماً مفارشنا لهذا الغرض .



طريق الرحلة من كاف إلى الجوف

لم يكن هناك من يتفوق على حمود في قدرته على قيادة القافلة ومعرفته بالطريق ، فقد كان مستبداً في إلقاء تعليماته، كما كان يحثنا دائماً على العجلة ويهتم شخصياً بجميع التفصيلات، إلا أنه كان دائماً ما يحاول تحاشي الصدام مع محمود خاصة بعد أن أراد محمود ذات مرة – وهو على صواب – أن يضربه بشداد الجمل ، ، لأن تلك الأوامر والتعليمات التي يفرضها عليه حمود كانت تضايقه كثيراً، فهو لا يريد منه أن يعلمه كيف يمكنه أن ينصب الشداد أو يربط الحبل ، لأنه تعلم ذلك من خلال ذهابه سبع مرات إلى الحج ، أما بالنسبة إليّ فإنه منذ العودة من دمشق لم يعد ينظر إليّ نظرة الشك كما كان يفعل من قبل، وكان يقول: إنه سمع عني كلاماً طيباً في كل مدينة نزل بها .

أما الشخصية الثانية التي بدأت التعامل معها عن قرب فهي شخصية محيثل أبوحميد من الجوف ، فقد كان رديفي على الذلول طوال سبعة الأيام التي استغرقتها الرحلة حتى الجوف، وقد بذل جهداً كبيراً لكي يجعل جلستي فوق الراحلة مريحة، ولكي يخفف عني بعض الآلام التي أصبت بها مؤخراً ، فلم يزعجني منه سوى صراخه على الذلول لكي تحث الخطى بالمسير، تجدر الإشارة أيضاً إلى إبراهيم أبو خليل من حائل وهو نصف زنجي ، ثم رجل من قبيلة الشرارات يدعى صلبوخاً قام بتأجير الإبل لنا حتى حائل ، بالإضافة إلى تاجري إبل من دمشق، أحدهما هو حسن الذي كان أبوه يمارس المهنة نفسها لمدة ٣٠ عاماً، والثاني يدعى أحمد ، وهما يأتيان بشكل منتظم منذ عشر سنوات إلى جبل شمر من أجل شراء الإبل ، حيث كانا في السابق يرافقان قوافل الحجاج ، أما هذه المرة ففضلا السفر مع حمود ، كذلك كان ضمن القافلة شخص مريض بالحمى من القصيم ، كان عائداً إلى وطنه بعد ٢٢ عاماً قضاها في دمشق ، حيث ظل على الرغم من أنه ملفوف ببطانية يرتجف من تأثير الحمى عليه، ولم يكن باستطاعته الجلوس وحده على ظهر الجمل ، وبالتأكيد كان مصيره للسقوط، لو لم يتفضل أحد ممن تعاطفوا معه بإمساكه ، أما بقية رفاق الرحلة فلم أهتم بالتعرف عليهم .

ولكي نزيد من احتياطات الأمن وأيضاً لتخفيف العبء عن الجمال ، أخرجنا نصف البنادق التي أعطاني إياها الملك كارل فون فورتمبرج، ووزعناها على مرافقينا الذين حملوها راضين

لمدة ٢٠ يوماً حتى وصلنا إلى حائل ، وقد ظلوا - على الرغم من أنهم يعرفون أن تلك البنادق لن تبقى معهم سوى وقت قصير - يأملون طول تلك الفترة أن تكون من نصيبهم .

إن وادي السرحان عبارة عن وادٍ يمتد مسيرة ٥ - ١٠ ساعات من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي وتحيط به الصخور الجيرية البيضاء، وتتناثر فيه كتل حجرية سوداء لامعة، وبغض النظر عن المستنقعات المالحة التي أشرنا إليها فإن الأرض خصبة وغنية بالأشجار، حيث يمكن للمرء أن يجد الماء كل بضع ساعات ، بل يمكنه أن يحدد مكانها من بعيد وبالذات حول الأماكن التي تكثر فيها النباتات والأشجار ، وهذه الأعشاب يندر وجودها خاصة في الأماكن القريبة من الآبار الكبيرة لكونها تعرضت إما للرعيّ أو للدهس من قبل الحيوانات التي ترد على هذه الآبار ، أما الماء هناك فهو عذب غير أنه مملوء بالحشرات والقوارض، ولكن هذه الحشرات تعتبر بالنسبة للعربي دليلاً قاطعاً على صحة الماء وصلاحيته للشرب. وقد كنا نقوم أثناء مرورنا بهذه الآبار بإنزال مريض الحمى الذي يرافقنا في الماء لكي تخف درجة حرارته .

كانت درجة الحرارة في تلك الأيام تصل إلى ٣٦ درجة مئوية، ولكنها كانت تتراجع في الصباح الباكر إلى ١٠ درجات مئوية مما جعلنا نشعر ببرودة واضحة ، كما كنا نشاهد كثيراً العواصف الرملية والسراب ، أما النباتات الرئيسة التي كنا نصادفها فكانت من أنواع الحلفاء ، والغضى، والسبط ، والنصي ، والمصاع ، بالإضافة إلى نبات الروض الذي يملأ الجو عطراً برائحته الجميلة . في ذات مرة قدمت لي تلك السيدة الزنجية التي ترافقنا وأطفالها - والتي أقوم في بعض الأحيان بإعطائها ما يزيد من أكلنا - مجموعة من فضلات الغزلان (دمن) وهي تأخذ شكل كريات سوداء صغيرة، وتنبعث منها رائحة عطرية جميلة . وأثناء الطريق رأيت مجموعات كثيرة من الأشجار التي تعرضت أغصانها وجذوعها للتقشر قد اندفنت بفعل زحف الرمال والأتربة ، حيث تعرضت لمرض قال لي حمود: إن اسمه (الأرضة)، أما محمود فقد سماه (الأرمة)، أما بالنسبة إلى الحيوانات فلم يقابلنا سوى ثعبان واحد والعديد من الغزلان وأرنب واحد فقط تمكنا من اصطياده وطبخه ، أما الجبال التي شاهدناها خلال

الطريق فقد صادَفَنا في اليوم الثاني من اليمين فوق المرتفع شكلان هرميان أبيضان يسميان الخصين، وفي اليوم الثالث شاهدنا على الجانب الأيسر سلسلة جبال مسماء، وأمامها جبل صغير قاتم اللون ، وفي اليوم الثامن شاهدنا إلى اليمين جبلي جريميس والأضارع ، إلى اليمين على مسيرة يوم كامل يرتفع شامخاً في وسط النفود جبل الطويل .

كان جدول الرحلة يسير في شكل منتظم تقريباً على الوجه التالي الانطلاق قبل ساعة من شروق الشمس في حوالي الساعة الخامسة ، ونستمر دون إفطار حتى الساعة السابعة والنصف، ثم نتوقف لمدة ساعة أو ساعة ونصف لتناول الإفطار ، ثم نواصل السير دون توقف من التاسعة حتى الرابعة بعد الظهر فنستريح من الرابعة حتى السادسة لتناول العشاء وأداء صلاة المغرب ، ثم نواصل السير ليلاً حتى التاسعة ، وحينما نعسكر في مكان ما نقوم بتكليف واحد أو اثنين بالحراسة .

لا شك أن مميزات الانتقال عبر الصحراء عديدة ، ذلك أن الإنسان يصبح معتمداً على نفسه تماماً ولا يحتاج إلى نقود ،كما أن الهواء نقي بشكل رائع ويشعر المرء مساءً ببرودة منعشة ، وليس هناك أي ذبابة أو ناموس أو بعوض ، كما أن هناك الكثير من أخشاب التدفئة (الحطب) ذات الرائحة الجميلة ، بالإضافة إلى نومة رائعة فوق الرمال البلورية . من جانب آخر فالأمر لا يخلو من بعض المعاناة التي من المفترض ألا يكون لها وقع كبير في نفسي، لأنني جديد على مثل هذا النوع من الحياة ، فتلك الجروح التي ظهرت في جسمي مما اضطرني إلى الجلوس على جنبي لمدة عشرة أيام متتالية ، واختلاط الأكل بالرمل وكسر الحصى الذي أصبح حالة طبيعية بالنسبة لي ، وعراك الإبل مع بعضها البعض الذي لم يعد يزعجني ، كما أنني لم أهتم كثيراً بذلك الصراخ وتلك الضوضاء التي تصدر عن مرافقينا حين يريدون حث الإبل على الاستعجال بالمسير .

لا خوف عليك عزيزي القارئ فأنت بعيد ولست مجبراً على أن تعاني من ذلك الرفيق الملازم دوماً لمن يعيش في الصحراء وأعني بذلك القمل الذي أصبح ولله الحمد معدوماً عند الرجل

العادي في وسط أوربا ، أما في الصحراء فكما أكد لي كثير ممن التقيت بهم من الرحالة المجربين أنه شر لابد منه ، لذلك فلم أستغرب على الإطلاق حينما أحسست في اليوم التالي بشيء غريب يعض رقبتي ، وتأكد لي بعد أن ساعدني محيثل الذي كان يركب خلفي على الجمل في اصطيادها أنها قملة ، في هذه الأثناء حاول محيثل أن يهدئ من روعي قائلاً: بأن ذلك ليس بالأمر السيئ . وعلى أي حال فمن أجل الخلاص من ذلك الحيوان الصغير تمكن المرء منذ أربعة آلاف سنة مضت من ابتكار طريقة للقضاء عليه تتمثل في قيام الشخص كل صباح باصطيادها وقذفها مباشرة في وسط النار الملتهبة ، وهكذا يتخلص المرء من متاعبه طول اليوم ، فالصغار منها تحتاج إلى يوم كامل كي تكبر وتتمكن من العض ، وفي هذه المناسبة لابد لي من الاعتراف بأنني طوال سبعة أشهر متتالية لم أخْلُ من ذلك القمل .

في صباح اليوم السابع (الثلاثاء ١٨٨٣/١٠/٩) بدأ طريقنا ينحدر بشدة في اتجاه واحة الجوف المنخفضة حيث أخذنا طريقنا عبر ممر يقع بين صخور رملية إلى منطقة واسعة متموجة تكثر بها الصخور والرمال التي تتخللها أحجار فضية اللون على شكل فقاعات ضخمة. في منطقة تحيط بها سلاسل جبال يتراوح ارتفاعها ما بين ٥٠٠ - ٤٠٠م تقع في العمق واحة النخيل مع بعض البيوت التي تشرف عليها قلعة مارد والقصر ، وإلى الخلف من الناحية الشرقية تظهر صحراء النفود الخالية من المياه وذات الرمال المتطايرة ممتدة جنوباً إلى جبل شمل .



القافلة بالقرب من الجوف

عملاً بعادة البدو المتبعة قمنا قبل دخولنا المدينة بغسل أنفسنا ولبسنا أفضل الملابس، فالكل منا يرفل في ثياب فاخرة رغبة في إظهار دخولنا إلى المدينة بالمظهر اللائق .

تضم منطقة الجوف بمفهومها الواسع العديد من الأماكن والقرى المتباعدة عن بعضها البعض والتي تمتد على مسيرة يوم واحد باتجاه الشمال الشرقي وجميعها تشترك في الشرب من حوض مائي واحد ، وهذه القرى هي سكاكا (٨٠٠٠ نسمة) وقارة (١٠٠٠ نسمة) والطوير (٣٠٠ نسمة) ، أما الأماكن الأخرى التي أشار إليها الرحالة الآخرون مثل سحارة ، والجون، وحاسيا، وجوا، ومويسن فيبدو أن سكانها قد هجروها . أما المكان الرئيس هنا فهو الجوف[٤١] ويسكنه ١٢٠٠٠ نسمة، وهذا المنخفض الذي يبلغ طوله مسيرة ساعتين تقريباً وعرضه مسيرة ثلاثة أرباع الساعة لا تشغل المنازل والحدائق التي تصل إلى حافة الهضبة الجنوبية سوى ثلثه، وقد كان الجوف قبل أن تسيطر عليها شمر يتكون من اثني عشر حياً تسمى أسواقا[٤٢] كل منها يشكل حصناً قائماً بذاته، ولما كان سكان هذه الأحياء لا يجمعهم أي إحساس بالمشاركة فقد كانت تسود بينهم الخلافات مما يجعلهم يحاصرون بعضهم بعضاً إلى أن امتدت إليهم يد عُبيد[٤٣] الحديدية وسياسة طلال[٤٤] اللامبالية لتغير من ذلك الوضع، لكنه على الرغم من أن الأمن والنظام يسودان حالياً إلا أننا لا يمكن أن نتحدث عن وجود تجارة أو صناعة، كما لا يوجد هناك أي أماكن للبيع أو أسواق. ليس في إمكان المرء تقديم وصف دقيق لعامة المساكن في البلدة، فالأزقة الضيقة تمتد بين جدران الحدائق والبيوت العالية مشكلة عائقاً لمجال الرؤية داخلها، أما المساكن الأحسن حالاً فيعلو كل واحد منها برج يصل ارتفاعه ما بين ٣٠ - ٤٠ قدماً ومزين بالشرف والفتحات . وقد كان ذلك البرج في السابق يخدم أغراضاً دفاعية، أما اليوم فهو للزينة ودليل على الثراء، أما ما يخص المباني القديمة فلم يبق سوى القليل منها، فإلى الغرب من الوادي أسفل رجم البرج يمتد سور حجري يسمى (عمارة

---

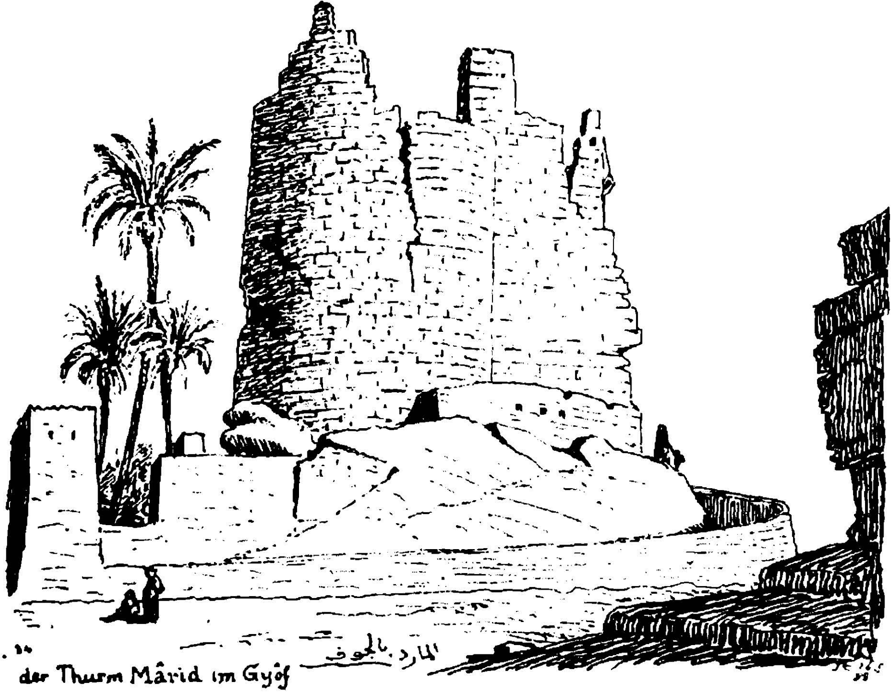
(٤١) المقصود دومة الجندل .

(٤٢) للإستزادة حول تسميات هذه الأسواق (الأحياء) انظر عبدالرحمن السديري ، الجوف وادي النفاخ. ص ١٠٢-١٠٤ .

(٤٣) هو عبيد بن رشيد .

(٤٤) هو طلال بن رشيد .





قلعة مارد

الأكيدر)، ومن الأشياء المهمة التي لا تزال باقية هناك قلعة مارد[٤٥] المشيدة من الحجار المهذبة على شكل ثلاثة طوابق يصل بينها سلم حلزوني ، ويحيط به سد مائي وأسوار دائرية، وقد أدى قصفه بواسطة عبيد في عام ١٨٥٥م إلى فقدان نصف ارتفاعه ، وأصبح خراباً لا يسكنه اليوم سوى أسرة بائسة ، وقد ذكر يوسف المالكي[٤٦] عام ١٨٠٨م أن ارتفاعه يفوق

(٤٥) لم يتوصل الدارسون حتى الآن إلى تحديد دقيق لتاريخ بنائها، بيد أن المجسات الأثرية التي أجريت هناك كشفت عن وجود بعض الكسر الفخارية النبطية ، مما يرجح أن القلعة استخدمت أيضاً خلال القرن الأول الميلادي ، انظر .
al- Muaikel, Khalil., Study of Archaeology of Jawf Region, Riyadh 1994. p 83; 216

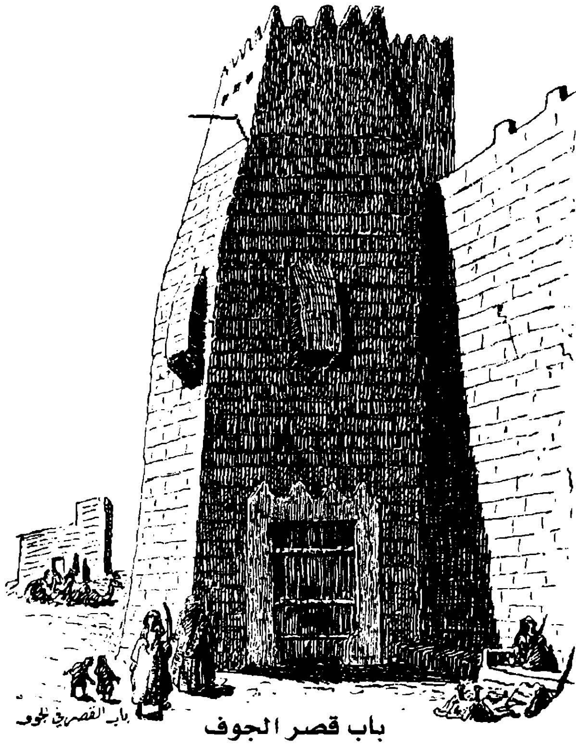
(٤٦) شخصية فلسطينية قدم إلى الجوف بتكليف من الرحالة الألماني أولرش ستزن ليجمع له المعلومات عن المنطقة .

مرتين وربما ثلاث مرات منارة المسجد الأقصى أما اليوم فيصل ارتفاعه إلى ٥٠ قدماً . وفي أحد أقسام المدينة المميزة والمسمى خزاماً تم في العصر الحديث بناء قصر جديد يشعر القادم إليه بالفزع والخوف حينما يرى أسواره وأفنيته وأبراجه ذات الكوات البارزة ، وفي الجانب الجنوبي الشرقي من القصر يوجد برج المدخل الذي بني على شكل مربع يضيق كلما ارتفع إلى أعلى وتتوسطه الكوات البارزة (كاتوله) ذات الأغراض الدفاعية، في أسفل هذا البرج يوجد باب خشبي كبير في وسطه فتحة صغيرة مغطاة من الداخل بصفيحة معدنية تتيح للحارس الواقف في الداخل رؤية ذلك القادم إلى القصر ومعرفته، وهذا الباب الكبير لا يفتح للزوار العاديين، بل يدخلون إلى القصر عبر خوخة صغيرة في الباب ترتفع عن مستوى الأرض بحوالي القدم والنصف ولا يتعدى طولها وعرضها القدمين .



قصر الجوف

وعندما وصلنا يوم الثلاثاء ١٨٨٣/١٠/٩ م تم بالطبع فتح البوابة كلها وأنزلت أمتعتنا وسط تدفق جموع الفضوليين ، وأودعت في غرفة مغلقة في حين وضعت الأبسطة والحقائب اليدوية في ممر أحد المنازل، ثم دخلنا إلى قاعة المدخل المظلمة ، وبعد أن بدأت أعيننا التي لم تر الظلال طوال سبعة أيام مضت تتعود على تلك الظلمة رأيت هناك مدفعاً قديماً نصب على عربة ذات عجلات خشبية ، وفي هذه الأثناء بدأت رهبة اللقاء تتضح على ملامح مرافقينا من البدو، رغم أنهم كانوا يحاولون بقواهم الخفية تجاهل تأثيرها فيهم، من هنا توجهنا بصحبة مجموعة من جنود الشيوخ إلى حيث القهوة (قاعة الاستقبال) ، فدخلنا والسيوف بأيدينا إلى



باب قصر الجوف

غرفة مظلمة قائلين السلام عليكم ، فرد علينا صوت من داخل تلك الظلمة وعليكم السلام، بعد بضع خطوات داخل تلك الغرفة قابلنا عامل الشيوخ في الجوف ، وهو عبد زنجي يدعى جوهراً ، فحيانا بترحاب شديد وقبّل خدودنا وهو يردد لكل واحد منا (كيف أنت)، وقد كنا نرد عليه بعبارة (طيب الحمد الله) في محاولة منا لكبح حماسه في الترحيب .

جلسنا هناك على أبسطة فارسية جميلة متكئين على أشدة الجمال واضعين السيوف أمامنا على الأرض ، كما قمنا بتحية كل الحاضرين بإيماءة من الرأس وعبارة (أسعد الله صباحكم)، وبينما البخور والقهوة الحلوة تقدم لنا ، أخذ الحاضرون يسألوننا بكل تفصيل عن رحلتنا ، ثم قدمت بعد ذلك القهوة العادية مع تمر حباته كبيرة وفي غاية الحلاوة يرافقه

السمن والخبز، وفي أثناء ذلك طلب جوهر من أحد الجنود أن يحضر له غليونه ويشعله، كما قمنا نحن بإشعال النارجيلة الخاصة بنا، وقد أكد لنا جوهر مراراً سعادته البالغة بتلك الزيارة التي تعد تشريفاً له، ولربما كانت تلك السيوف المصنوعة في زولنجن(٤٧) والتي قدمناها له مع ثلاثة جنيهات تركية (حوالي ٥٠ ماركاً) سبباً في ظهور ملامح الرضا على محياه ، ولكن يجب القول: إن شعوره ذلك كان حقيقياً وليس مصطنعا، فقد كان عزيز النفس ولطيفاً، كل همه منصب على تلبية طلباتنا وجعل إقامتنا مريحة، بل إنني لم أجد فيه شيئاً قط من ذلك الوصف الذي ذكرته السيدة آن بلنت(٤٨) والذي مؤداه (إن بشرة جوهر السوداء تنطوي حقاً على قلب أسود، وإن سلطاته اللامحدودة جعلت منه طاغية يخشى جانبه)، فلو كان جوهر كما ذكرت السيدة بلنت لما نال رضا سيده في حائل الذي يسعى إلى تحقيق العدل، علاوة على ذلك فمنذ أن تولى جوهر إدارة الأمور في الجوف أصبح يقوم بنفسه على تقدير محصول التمور ، مما جعل الضرائب التي تدفع من هناك إلى قصر حائل تزداد إلى الضعف، والمعروف أن تولي أحد العبيد تلك المسؤولية غير المحدودة في هذه البلاد أمر لا يثير الدهشة، خاصة وأنه بسبب تبعيته لسيده يعتبر مثالاً للولاء وإنكار الذات، وفيما بعد سيأتي الحديث على ذكر عبد آخر هو عنيبر الذي أوكل إليه الأمير عدة مرات شؤون العاصمة خلال تغيبه عنها، ولكن ثمة فرق بين الاثنين، فبينما يتسم جوهر باللطف في تعامله، يستغل عنيبر مركزه لإبراز تسلطه وغروره كما فعل ذات مرة مع داوتي(٤٩) .

بعد أن انتهت مراسم الاستقبال مباشرة ، خرجت دون أن يشعر بي أحد، فوجدت نفسي تصبو إلى حمام ماء ، وفي أحد الأفنية جعلت محموداً يصب علي عدة جرادل من الماء ، ثم قمت بحلق رأسي من جديد ، وارتديت ملابس نظيفة فشعرت بعد ذلك وكأنني ولدت من

---

٤٧) مدينة ألمانية تقع إلى الشمال من العاصمة الحالية بون . وتشتهر بصناعة السكاكين .

(٤٨) الليدي آن بلنت ، رحلة إلى بلاد نجد ، ترجمة محمد غالب. الرياض ١٩٧٨ ، ص ٨٩

(٤٩) يعتبر تشارلز داوتي (خليل) واحداً من أبرز الرحالة الإنجليز الذين زاروا الجزيرة العربية. استمرت رحلته فيما بين ١٨٧٦ - ١٨٧٨م ، بدأها بزيارة مدائن صالح ثم حائل فخيبر ثم حائل مرة أخرى وبريدة وعنيزة ثم الطائف وفي الثالث من شهر أغسطس لعام ١٨٧٨م دخل إلى القنصلية البريطانية في جدة . وقد ضمن ملاحظاته ونتائج رحلته في كتابه:
Travels in Arabia Deserta , London 1888.

جديد ، ثم خرجت أمام القصر في الفضاء الرحب لكي أقوم بالرسم بيد أني بدلاً من ذلك تمددت على الأرض فرحت في نوم عميق .

في المساء قدم لنا العشاء المكون من الأرز المتبل بالفلفل الحار ولحم الضأن، وعلى ضوء القمر صعدنا إلى مأوانا الليلي في ممر المنزل ذي الطابقين وأخذنا ندخن النارجيلة ونناقش خطط اليوم التالي .

الأربعاء ١٠/١٠/١٨٨٣ في الثامنة صباحاً رحل هوبر مع محارب دليله القديم عبر النفود في رحلة تستغرق يومين إلى قرى الواحة الواقعة في الشمال الشرقي وهي سكاكا وقارة، والطوير ، أما أنا فقد فضلت بسبب جروح قدمي التي تزداد سوءاً عدم المشاركة في الرحلة، بالإضافة إلى أنني كنت أتطلع إلى أن يعيد خادمي محمود سرد قصة احتلال الأتراك المؤقت للجوف[٥٠]، والتي رواها في إحدى الليالي عندما كنت في كاف .

الخميس ١١/١٠/١٨٨٣ جاء في الثامنة صباحاً عشرة أشخاص من رجاجيل (عساكر) الشيوخ في حائل من أجل أن يحلوا محل الحامية المحلية التي ظلت ترابط في الجوف لمدة أربعة أعوام .

سمعت اليوم أن رديفي محيئلاً حينما وصلنا سقط فاقداً الوعي أمام بيته ، وأنه يعاني من مرض الحمى ، فقررت بعد الظهر أن أقوم بزيارته ، وكان منزله يقع في منطقة سوق الهويدي البعيدة ، لذلك قدم لي جوهر حماراً لأذهب عليه ، وقد تقدمني الخادم إبراهيم الأسود على قدميه حاملاً سيفي، وبجانبه محمود يحمل حقيبة الأدوية وخلفي جنديان ، حيث انحدرنا عبر الوادي سالكين طريقنا بين أسوار البساتين الممتدة وأشجار الأثل ، وقد كان يقابلنا في تلك

(٥٠) في عام ١٨٧٢ أرسلت الحكومة التركية قوة قوامها ثلاثمائة وخمسون مقاتلاً انطلقت من معان بقيادة محمد سعيد باشا لاحتلال الجوف ، ولكن من تبقى هناك من تلك القوة اضطروا بعد فترة وجيزة لترك المنطقة مقابل مبلغ ١٥٠٠ مجيدي يدفع سنوياً للدولة العثمانية، انظر،

Doughty, Charlles.,Travels in Arabia deserta, London 1888, p. 47- 50

الأثناء مجموعات كثيرة من الناس ، كانوا يباشروننا دائماً بإلقاء التحية، وخلال الطريق أشار محمود إلى ساحة واسعة تتوسطها هضبة صغيرة قائلاً : هناك على تلك الهضبة كان الأتراك ينصبون مدفعهم ، وبعد مسيرة نصف ساعة وصلت إلى بيت محيثل الواقع داخل بستان اعتني بسقاية أشجاره ، وحينما دخلت البيت وجدت رفيق رحلتي في حالة يرثى لها فلم يكن عليه ثوب أو غترة بل اكتفى بدلاً من ذلك بلف نفسه ببطانية ، وقد كانت قواه منهارة ولا يستطيع النهوض ، بل إن مجرد الحديث كان يكلفه ، فرد عليّ التحية مع نظرة مملوءة بالشكر، وقد حاولت أن أقوي من عزمه وبدأت بفحصه، حيث كان يكح وحرارته عالية ، كما كان يعاني من التهاب في الطحال وإمساك شديد مما يشير إلى أنه مريض بحمى التيفوئيد، لذلك قمت بإعطائه مسحوق (calomel)، وقدمت لابنه ست علب من مسحوق الحمى، لكي يعطيه منه ثلاث مرات في اليوم على مدار ثلاثة أيام متتالية ، وبعد ذلك يمكنه أن يحضره إلي للكشف عليه من جديد،كما طلبت منه أن يغسله أربع مرات في اليوم بمناشف مبللة وأن يناوله مشروبات باردة من بينها اللبن ، ولا يعطيه غذاء عادياً على أن يتوفر له الهدوء ويحظى بقسط وافر من النوم.

قمت خلال إعداد القهوة بتفقد البستان المعتنى به جيداً ، وكان يوجد به إلى جانب أشجار النخيل أشجار التين والعنب والرمان والمشمش والخوخ ، وكذلك الخيار والبطيخ وغير ذلك من الخضروات ، وعند الوداع كررت على ابن المريض كيفية العناية بأبيه ، وعلمت بعد ذلك بعدة أشهر حينما كنت في حائل أنه شفي من مرضه . وفي المساء أتيحت لي أول مرة فرصة أكل لحم الجمل ولم يكن طعمه يختلف عن لحم الماعز أو الضأن ، ولكنه كان داكن اللون وأليافه خشنة ، وبعد العشاء شربنا القهوة خارج القصر لدى تاجر الجمال حسين وهناك عبر جوهر عن قلقه حول هوبر ، ذلك لأن قبيلة عنزة أرسلت ٢٠٠ من رجالها في حملة غزو كبيرة، غير أن هوبر وصل في الثامنة مساء ، وتحدث لنا عن نجاح رحلته .

الجمعة ١٨٨٣/١٠/١٢ هبت في مساء هذا اليوم رياح شديدة أدت إلى قلب أشيائنا الموجودة في سطح المنزل رأساً على عقب. قمت بكل هدوء بعمل رسم بالألوان المائية لجوهر أثارت

إعجابه الشديد، مما جعله لا يجد صعوبة في الجلوس أمامي بشكل منتظم كي أرسمه ، ولعل ما زاد إعجابه وأسعده في ذلك الرسم هو قيامي بإدخال ألوان فاتحة لتضفي شيئاً من البياض على محياه الأسود ، وكذلك أيضاً إدخال غليونه ضمن إطار الرسم ، وما أشد عجبي لسرعة انتشار خبر ذلك الرسم في أنحاء الصحراء ! حتى في حائل، إذ لم يمض ساعة واحدة على وصولي إلى هناك حتى طلب مني الشيخ أن أطلعه على صورة جوهر فقال مازحاً: (لقد رسمته شديد البياض) كما سئلت أيضاً في تيماء ولدى القبائل المترحلة إذا كان في الإمكان أن أريهم رسم جوهر ومفرج .



جوهر

بعثت عن طريق معرفتي بتاجر الجمال حسين بخطابين مع أحد البدو المسافرين إلى دمشق، ليسلمهما إلى القنصلية الألمانية، لتبعثهما إلى وطني ، ولكنهما لم يصلا مطلقاً .

في سبيل الاستعداد للعيد الكبير (اليوم العاشر من ذي الحجة وهو آخر شهر في العام الهجري حيث يقوم الحجاج بذبح آلاف من الضحايا) تم هنا نحر أحد الجمال ، حيث قطعت رقبته بسيف حاد وسط الجمال الأخرى دون أن يصدر عنها أي انفعال يذكر ، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة التي تتطلب وقتاً طويلاً راح يقلب رأسه ذات اليمين وذات الشمال . وقد قام الناس في هذا اليوم بتنظيف أنفسهم ، ففي كل زاوية يرى المرء رؤوساً تحلق، وذقوناً تقص ، وثياباً تغير ، وحلات فاخرة تخرج من مخازنها ، حتى خادمنا محمود فاقني في جمال مظهره. وبعد العشاء أقيم احتفال آخر خارج أبواب القصر عند تاجر الإبل حسين ، حيث شرف جوهر ذلك الحفل ، وهو يلبس بشته (مشلحه) الأسود وغترة حمراء اللون (شماغاً) ، وقد كان عدد الحضور يربو على الخمسين شخصاً جلسوا جميعاً في شكل دائرة حول النار يتناولون القهوة، كما حضر الحفل أولئك العشرون جندياً الذين كانوا في البداية يقفون خلف جوهر ، ولكنهم بعد إشارة منه جلسوا واضعين سيوفهم بصورة عمودية على الرمل أمامهم ، وقد كانت جذوع النخل المشتعلة تنعكس مع ضوء القمر لتظهر انطباعاً جميلاً وسروراً وسط تلك الجموع ، وفي الختام ابتهل الجميع بدعاء طويل إلى الله ، وعاد كل إلى مأواه ، ولما كنت قد شربت الكثير من القهوة في هذه الليلة فلم أستطع النوم بسهولة .

السبت ١٣/١٠/١٨٨٣ في الصباح الباكر تلقى جوهر في القهوة التهاني والتمنيات بمناسبة العيد ، ثم أدخلت الصواني النحاسية المملوءة بالأرز واللحم والتي يبلغ قطر الواحدة منها قدمين ونصف إلى ثلاثة أقدام ويحملها أربعة من الخدم ، لم يمض وقت طويل حتى تم أكل ما بداخلها ، وكانوا حين قيامهم من الأكل يقولون (الحمد لله) ، ثم ينصرفون قائلين لجوهر (أنعم الله عليك) ، فيرد على كل واحد منهم (ينعم عليك) .

كانت نيتنا أن نسافر في الغد ، ولكننا وجدنا صعوبة في تأجير الجمال، إذ لا تترك في الجوف بسبب قلة المرعى فيها ، وإذا أتت الجمال الجائعة هنا تقدم لها أوراق شجر البطيخ أو شيئاً مشابهاً لها ، لذلك يعمد أصحابها بمجرد وصولهم إلى إخراجها إلى حيث وفرة المرعى، وهكذا فعلت أيضاً مع ذلولي التي أخرجتها إلى المرعى على مسافة يوم واحد في وسط النفود،

أما تاجر الجمال حسين فلم يرسل جماله إلى المرعى مما اضطره خلال خمسة أيام متتالية إلى شراء علف لها بمبلغ ٦ مجيديات أي ما يعادل ٢١ماركاً .

لم يكن جوهر راضياً عن تلك الجمال التي أحضرها لنا أفراد من قبيلة الشرارات فقد كانت الأشدة غير صالحة ، والجمال هزيلة وليس في إمكانها حمل أمتعتنا كافة ، ولكن ليس لدينا حل آخر، فعلى صلبوخ الآن أن يرى كيف سيتمكن من إيجاد حل لكل ذلك ، فهو الآن يجد صعوبة في حمل قربتين إضافيتين من الماء أخذناهما معنا استعداداً لرحلة تستمر خمسة أيام متتالية بدون ماء ، فليس بإمكان المرء الآن أن يحسب حساب بئر الشقيق الواقعة على مسار الطريق لكونها - كما ذكرنا سالفاً - قد ردمت .

ولأن جمالنا الخاصة جاءت من المرعى حوالي الظهر فقد قررنا القيام بعد العصر برحلة حتى السور العريض في الغرب ، وخلال عودتنا وبينما كانت الشمس توشك على المغيب رأينا فصلاً تمثيلياً خاصاً لم أر مثله مرة ثانية في حياتي ، ففي الساحة المفتوحة جرت رقصات رائعة ، حيث وقف الراقصون في صفين متقابلين أحدهما يضم حوالي اثنتي عشرة فتاة، والآخر يضم عدداً مثله من الفتية، يفصل بينهما مسافة عشرين خطوة ، وفي الوسط بين الصفين كانت ترقص فتاتان برؤوس مكشوفة، وشعر مسدول إلى الخلف، والأعين موجهة إلى الأرض، والأذرع تقترب وتتباعد بخطوات متزنة ورائعة ، وفجأة أدارتا ظهريهما لبعضهما ، ورفعتا رأسيهما قاذفات بشعورهن الطويلة هنا وهناك حسب الإيقاع الموسيقي ، بينما صديقاتهن الأخريات في الصف مددن أيديهن بصورة متعامدة فوق صدورهن ويصفقن بانتظام ، أما الفتيان في الصف المقابل فكانوا واقفين كتفاً إلى كتف شاهرين سيوفهم ويهزون أجسامهم ذات اليمين وذات الشمال .

لما كنا سنبدأ رحلتنا في الغد الباكر التي تستمر مدة خمسة أيام متتالية خلال صحراء النفود الخالية من المياه، تم في الليلة الماضية تقديم الماء الكافي لرواحلنا ، لأنه ليس من المناسب إسقاء الجمال قبل الرحلة بوقت قصير .

عبر النفود من الجوف إلى حائل

الأحد ١٨٨٣/١٠/١٤ تم قبل طلوع الشمس تجهيز كل شيء للرحيل ، وبعد الإفطار منحنا جوهراً سكيناً جميلة تعبيراً عن امتناننا لخدماته ، وقد سُرّ بها كثيراً، ثم بدأنا المسيرة في الساعة الثامنة ، وبينما نحن نستعد للهبوط من هضبة القصر ودعنا جوهر قائلاً: (في أمان الله)، كما سار معنا مدة نصف ساعة مجموعة لا بأس بها من الصحبة ، وحينما بدأ الطريق بين الجبال يأخذ مساره إلى السهل المرتفع بدأت تلك المجموعات البشرية تقل ، وبعد أن قاموا بتوديعنا لاحظت أنه لم يتبق معنا سوى مجموعة مكونة من اثني عشر شخصاً يمتطون العدد نفسه من الرواحل ، حيث يريد بعضهم الذهاب إلى جُبة وبعضهم الآخر سيواصل المسيرة معنا إلى حائل . ولما كان بعضهم يمتطون جمالاً هزيلة تحمل علاوة على ذلك الأمتعة الثقيلة قال لي محمود: سنكون محظوظين جداً إذا لم تزهق أرواح هذه الجمال.

عندما وصلنا إلى حافة الجبل ألقينا نظرة إلى تلك الواحة الحبيبة التي تركناها خلفنا، ثم يممنا وجوهنا شطر الصحراء الرملية ، وأينما كنا نتجه ببصرنا لا نجد سوى التلال الرملية، فليس هناك عشب ولا أشجار على مدى البصر ، فهل هذه هي طبيعة الصحراء العربية ؟ كلا ، ولكن ما يحدث هو أنه في المناطق التي تحيط بها التجمعات البشرية يتم في وقت مبكر اجتثاث جميع ما يمكن أن يؤكل ، وفيما عدا ذلك فإن الصحراء العربية تعد شريطاً خصباً لا يتمنى أصحاب الجمال أفضل منه ، على العكس من الصحراء المصرية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر .

أصبحت صحراء النفود كلها خالية من الماء بعد أن تم ردم بئر الشقيق كما ذكرنا ، ولكن ذلك لا يعني خلوها من السكان تماماً ، ففي الفترة التي لا تسقط فيها الأمطار وتصبح كبحر من النيران ، لا يمكن الإقامة فيها طويلا ، ولا يمكن عبورها إلا بمشقة بالغة وبالاستعانة بركائب جيدة . ومن الطبيعي أن يجد المرء عالم الرمال ذلك مملوءاً بالأشجار التي يتراوح ارتفاعها ما بين المترين وثلاثة الأمتار ، ويتعدى قطر جذوعها عضد الرجل . لقد لاحظت هنا

الجوف
الشقيق
الطويل
العليم
سميحة
البيضاء
جبل أم سلمان
عوطة
جبة
أم القلبان
قناء
لقيطة
رعيلة
حائل
عقدة
الفرع
قفار
فتق
موقق
جبال أجا
جبال سلمى

الطريق من الجوف إلى حائل

أن زحف الرمال تسبب في تكوين الكثبان الرملية حول تلك الأشجار ، مما اضطر أغصانها إلى الامتداد إلى أعلى طلباً للهواء والضوء ، أما بقية النباتات الأخرى غير أشجار الحطب فإن البدوي يطلق عليها جميعاً لفظ الحشيش ، أي الأعلاف الخضراء ، وجميع أنواع الحشيش تنمو بسرعة كبيرة حين سقوط المطر ، ويعتبر الموسم جيداً إذا سقطت الأمطار على الأقل عشر مرات لمدة نصف ساعة خلال شهور السنة ، وإذا لم يسقط المطر أو كان سقوطه شحيحاً فإن كميات العلف تقل وقد تحدث مجاعة ، أما سقوط المطر بكميات كالتي شهدتها أثناء وجودي في حائل ، حيث ظل المطر يهطل مدة ثلاثة أيام متتالية ويسير عبر واد عرضه ٢٠٠ قدم وعمقه ٧ – ٨ أقدم ، فهذا يعد من الحالات النادرة جداً التي لا تحدث إلا مرة كل ثلاثين عاماً .

بمجرد نزول المطر تعود الحياة والنشاط إلى النفود ، وتبدأ الأعشاب الخضراء الرقيقة في الظهور في كل مكان ، وفي لحظة يظهر البدو مع قطعان الإبل والغنم ، حيث يبدأ موسم الاستمتاع بلا قلق بالنسبة إلى سكان الصحراء ويبدؤون في الاتجاه إلى أي مكان يريدون، فلا قلق عليهم من عدم وجود الماء ، فبإمكانهم الآن العيش على الألبان التي أصبحت تفيض فجأة من النوق ، على العكس من واقع الحال في فصل الصيف، حيث يقتصر أكلها على الحشائش اليابسة، مما يقلل من حليبها ويصبح من الضروري إرواء عطشها كل خمسة أيام على أقصى تقدير، في حين أنها إذا أكلت عشباً أخضر لا تحتاج إلى قطرة ماء واحدة ، وقد لاحظت من خلال التجربة التي عايشتها أن إبلنا لم تشرب الماء طوال تلك الرحلة التي استمرت أربعة وعشرين يوماً عبر الصحراء ، فعلى الرغم من توفر الماء فلم تشعر بالرغبة في الشرب ، بل إنها تكتفي بالنظر إليه ، وتستعيض بدلاً عن ذلك بأكل الحشائش الخضراء .

وعلى الرغم من قدوم الشتاء بخيراته الوفيرة إلا أن له مساوئه الخاصة ، فبمجرد أن يتخطى أصحاب المواشي الرحل همهم تجاه الأكل والشرب يبدأ عهد اللصوص وقطاع الطريق

بالازدهار ، حيث يظهر أولئك اللصوص فجأة في ذلك الوقت الرائع من السنة ، دون أن يعيروا أي اهتمام للمكان أو الزمان أو الجوع أو النوم ، حاملين أسلحتهم البدائية للبحث وراء حظهم، فيسرقون كل ما وقعت أعينهم عليه من الأغنام والأمتعة ، ثم يولون هاربين .

لا تستمر تلك الروائع الصحراوية الجميلة وقتاً طويلاً، تستمر بضعة أسابيع ثم تستعيد الشمس قواها من جديد لتحول الطبيعة الخضراء إلى قحط مدقع ، فلا يتبقى منها سوى تلك التي تكتفي بالندى، وتتحمل حرارة الصيف اللاهبة.

رغم قدوم الربيع كانت درجة الحرارة ظهراً تصل إلى ٤٠ مئوية ، ولكننا لم نكن نشعر بشدة الحرارة ، لأن الرياح القوية كانت تستمر من التاسعة صباحاً حتى قبيل الغروب ، كما أن الهواء كان جافاً، مما يمنع انسياب العرق على الجسم ، فبمجرد خروجه من المسامات يجف مباشرة ، ولكن ذلك الهواء الجاف لم يكن مناسباً لقرب الماء التي بحوزتنا، حيث تسبب بكسر واحدة منها.

ليس في إمكان المرء أن يتحدث عن طريق واضح خلال النفود ، لأن الأمر يتطلب مهارة بالغة لتحديد الاتجاه خلال الصعود والنزول على التلال الرملية والالتفاف حول القعور[٥١] ، فليس هناك من المعالم التي يمكن أن يهتدى بها سوى بعض من دمن الإبل التي تكونت على مر السنين مختلطة مع حبات الرمل . لم تتضح لنا معالم الطريق إلا في اليوم الذي وصلنا فيه إلى جُبة حيث بدا وكأن هناك مساراً واضحاً تظهر عليه آثار أقدام الأشخاص والحيوانات . أما الآن فسأقدم لكم وصفاً للأحداث التي عايشناها خلال تلك الرحلة

الأحد ١٨٨٣/١٠/١٤ نزلنا في مساء اليوم وسط الظلام إلى ذلك المنخفض الذي يقع فيه بئر الشقيق المردوم مؤخراً .

---

(٥١) جمع قعر وهو الجوبة المنخفضة من الأرض .

الإثنين ١٥/١٠/١٨٨٣ كان اليوم حافلا بالصيد حيث تم اصطياد أرنبين وسحلية رملية بالإضافة إلى عدد من الجرابيع ،كما رأينا بقرة وحشية (وهو نوع من الغزلان البيضاء الكبيرة ذات قرون مستقيمة) .

الثلاثاء ١٦/١٠/١٨٨٣ في الصباح الباكر لاح لنا في الأفق إلى الجانب الجنوبي الشرقي جبلان هرميان يسميان العلايم فانطلقت صيحات الفرح، لأن العلايم بالنسبة إلى من يسافرون خلال النفود أشبه بالفنار لمن يسافرون بحراً ، وقد كان طريقنا يمر بين الجبلين اللذين يبعدان عن بعضهما البعض مسافة ٢٥٠ متراً ، والجبل الأيسر هو الأعلى ويرتفع مسافة ٨٠ - ٩٠ متراً وحجارته سوداء في حين أن الأيمن ذو حجارة رملية حمراء عادية ، وخلال فترة بعد الظهر ظهر أمام أعيننا جبل أم سلمان[٥٢] القريب جداً من جبة .

الأربعاء ١٧/١٠/١٨٨٣ بدأت المسيرة عند الساعة الثالثة وخمسين دقيقة، وفي حوالي الساعة الرابعة سقط أحد مرافقينا الذي كان نائماً فوق جمله ، وحيث إنه لم يتحرك من مكانه اعتقدت في البداية أن أحد الصناديق سقط من على ظهر الجمل .

بدأت في هذا اليوم تظهر عليَّ ملامح الجهد الذي بذلته خلال الأيام المنصرمة ، فلم أستطع خلال الظهر أن أتخلص من النعاس الذي داهمني فكان علي أن أبذل قصارى جهدي لكي أتمكن من الجلوس باعتدال على الشداد ، كذلك الحال أيضاً مع ذلولي التي بدأت تشعر بالتعب ، كما أن عدداً آخر من الجمال الهزيلة سقطت خلال المسير ولم تنهض إلا بعد أن أسيئت معاملتها لتنهض مجبرة على المشي، بل إن أحد الجمال تخلف ليلة البارحة عن القافلة ولم نستطع العثور عليه إلا بعد بحث طويل .

نظراً لكوننا سنصل إلى آبار جُبة في ظهر اليوم التالي على أقل تقدير، قمت بملء إناء صغير بالماء لأقدمه إلى ذلولي كي تشرب ، ولكن حموداً أخذ ذلك الإناء مني، وغسل به يديه ثم صب

(٥٢) سلاسل جبلية تقع في الجهة الغربية من جُبة .

ما فيه من ماء على الأرض قائلاً : إن قدراً قليلاً من الماء كهذا لا يمكن أن يطفئ عطش ذلولك بل إنه سيزيد من تعبها ، فوجدت كلامه مقنعاً، ولاسيما أنه يعرف أكثر مني في مثل هذه الأمور. وفي حوالي الظهر مررنا بالقرب من هضبة سميحة المسماة نسبة إلى إحدى فتيات قبيلة شمر .

بينما كنا نسير في ظلمة الليل قابلنا أحد البدو يريد أن يذهب من جُبة إلى الجوف سيراً على الأقدام ، ولم يكن معه سوى قربة ماء صغيرة ، أما من الأكل فلم أر معه شيئاً ، ولكونه يعرف بعض مرافقينا عكس اتجاهه فجأة وسار معنا حتى تمكن من معرفة جميع الأخبار ثم أدار وجهه منصرفاً إلى الجوف .

الخميس ١٨/١٠/١٨٨٣ أقمنا مخيمنا خلال الليل في أعلى نقطة من النفود (٩٦٠ متراً فوق سطح البحر) ، في منطقة تبعد حوالي مسيرة ساعتين إلى الجنوب من البيضاء التي سميت نسبة إلى ذلك المنخفض العميق والمكون من الأحجار الجيرية البيضاء ، والتي فيها تم حفر العديد من الآبار في محاولة للعثور على الماء ، وسألنا الأمير عنها حينما وصلنا إلى حائل عما إذا كان في الإمكان وجود ماء في تلك المنطقة.

عاودنا الانطلاق في الرابعة صباحاً وقبل شروق الشمس انبسطت أمامنا طبيعة ملأت روعتها نفوسنا انبهاراً، إذ بدأت أمامنا صحراء النفود العريضة تأخذ بالانخفاض في شكل قعور متتالية ، وفي وسط المنظر كان جبل أم سلمان يرتفع عالياً وحوله على الجهة اليسرى عدد من الجبال الصغيرة ، وإلى اليسار منه جبل غوطة بقمته الدائرية الشكل ، وقد بدت قمم تلك الجبال تتلألأ بفعل انعكاس أشعة الشمس عليها في حين امتلأ الأفق أمامنا بجدار أزرق فاتح اللون ، ذلك هو جبل أجأ الذي يبعد عنا مسيرة يومين متتاليين .

لم تجد رواحلنا منذ الأمس رغبة في الأكل ، كما رفضت اليوم كذلك أي نوع من الطعام مما جعلني أتألم كثيراً لرؤية تلك المخلوقات الضعيفة وهي تضرب بقسوة لتحث الخطا بالمسير إلى الأمام .



أحد القعور في صحراء النفود

كان الطريق يمتد أمامنا بلا نهاية ، وأخيراً حينما بدأ الطريق يأخذ مساره عبر الأحجار والتربة الطينية اعتقدت الجمال أننا اقتربنا من المكان الذي سنتوقف فيه، وتنال هي قسطاً من الراحة ، ولكن مسيرتنا استمرت عبر ذلك السهل الفضي اللون الذي كان أشبه ما يكون ببحيرة جافة ، وبمجرد أن لاحت لنا قمم النخيل الخضراء انتاب الجميع فرحة ممزوجة باللهفة على الإسراع . كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف حين أشرفت القافلة منهكة على أسوار جبة، وعسكرت في ظلال أشجار الأثل. وقد استغرق الطريق خلال النفود أربعة أيام وساعتين ، واحتاج الأمر بصفة عامة إلى السير المتواصل لمدة ٥٤ ساعة .

بعد أن تم إنزال حمولة الجمال كان لزاماً عليها أن تستريح في هدوء لمدة نصف ساعة قبل أن تبدأ في إرواء عطشها، بعد ذلك سيقت إلى حفرة مملوءة بالماء فشربت تلك الكميات الهائلة من الماء في سرعة مدهشة، ثم أحضر لها العلف الوفير ، وفي المساء قبل بدأ المسيرة شربت مرة ثانية .

تقع جُبة(٥٣) التي أطلق عليها بطليموس(٥٤) اسماً آرامياً هو أينا ومعناه (النبع) في منخفض يصل عمقه ١٥٠ -٢٠٠ متر تقريباً عن حواف النفود المحيطة ، ويمتد آخذاً شكلاً بيضاوياً بمسافة ٨-٩ أكيال تقريباً ، وعدد سكانها حوالي ٥٠٠ شخص ، ومنازلها حوالي التسعين منزلاً ، وقد لاحظت هنا شيئاً لم أسمع مثله في جزيرة العرب كلها، فالمرء حين يريد استخدام البئر التي يتراوح عمقها ما بين ١٢ -١٥ متراً لابد له من دفع مبلغ من المال إلى الشيخ ، أما نحن - على اعتبارنا من ضيوف الأمير - فلم نضطر إلى دفع ذلك المبلغ . وعلى الجانب الغربي من المنخفض وعلى بعد كيلين من الأمتار من أسوار القرية كانت تقع الحافة الحادة لجبل أم سلمان على ارتفاع يصل إلى حوالي ٤٠٠م ، وهي عبارة عن صخرة طويلة من الحجر الرملي الملون ينتهي في أعلاها بقمة مدببة ، أما أجزاؤها السفلى فقد كتب عليها الكثير من النقوش القديمة والرسوم الصخرية التي أشار إليها فالن(٥٥) (Wallin) من قبل .

---

(٥٣) تقع جبة على مسافة ٩٠كم تقريباً إلى الشمال الغربي من مدينة حائل .

(٥٤) هو كلاوديوس بطليموس ، جغرافي وعالم فلك ورياضيات يوناني ولد في مصر وعرفته المصادر العربية تحت اسم (بطليموس الجغرافي)، عاش في القرن الثاني الميلادي . وكتب العديد من الكتب في الرياضيات والفلك . ومن أبرز مؤلفاته "Geographika Hyphegesis"(الدليل الجغرافي) الذي وضعه في ثمانية أجزاء وضمنه العديدَ من المعلومات الجغرافية عن الجزيرة العربية ، بالإضافة إلى خريطة للعالم تعتبر أدق خريطة وضعت في العصور القديمة.

(٥٥) يعتبر الرحالة الفنلندي جورج أوغست فالن المولود في عام ١٨١١م من أشهر الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية. بدأ رحلته الأولى إلى الشرق في عام ١٨٤٤م ، حيث مكث في القاهرة مدة عام كامل ثم غادرها الى فلسطين ومنها إلى الجزيرة العربية . وهو يعتبر أول رحالة أوربي يزور الجوف وحائل التي مكث فيها قرابة الشهرين . في عام ١٨٤٨م عاد مرة أخرى إلى حائل ، ومنها إلى البصرة ثم مصر ومنها إلى هلسنكي ، حيث عمل هناك في جامعتها أستاذاً للدراسات الشرقية . وقد توفي في عام ١٨٥٢م عن عمر يناهز الواحدة والأربعين.

لقد قبلنا دعوة الشيخ نايف لشرب القهوة فقط ، بينما تركنا رفاقنا يعدون وجبتنا عند أسوار البساتين في ظلال أشجار الأثل التي أثار تحرك أغصانها اعتقاداً لدينا بأن الجو بارد، وفي الساعة الواحدة والنصف ركبت أنا وهوبر الجمال، وسرنا برفقة أحد البدو في اتجاه سفح جبل أم سلمان ، وفي هذه الأثناء كان يهرول خلفنا ثعلب ذو لون رمادي ، وهناك رأينا بعض الصبية خالعين ملابسهم، ويتزحلقون بمهارة فائقة على منحدرات الصخور الملساء ، وبعد نصف ساعة من المسير كنا نقف أمام الصفحات الصخرية لجبل أم سلمان المملوءة بمئات النقوش ، بعضها غير واضح المعالم ، وبعضها الآخر عبارة عن أسماء أعلام ، وقد لفت انتباهي من بينها ذلك النقش الذي كتب بقلم اللغة العبرية[٥٦] (رقم ١) ، وآخر كتب بالخط النبطي[٥٧] (رقم ٢)، وثالث كتب بقلم النقوش العربية الشمالية[٥٨] (رقم ٣) الذي لا يزال إمكان اشتقاقه من الخط العربي الجنوبي القديم محط نظر بين الدارسين ، وأخيراً ذلك النقش الذي كتب بالخط الكوفي[٥٩] (رقم ٤) ، وبين تلك النقوش رسم العديد من الجمال والوعول ومناظر الحرب والصيد ، وكان من الأمور النادرة فعلا وجود رسم لعربة ذات عجلتين تجرها الجياد (رقم ٥) ولا شك أن الفنان الذي رسمها قد استوحى فكرتها من

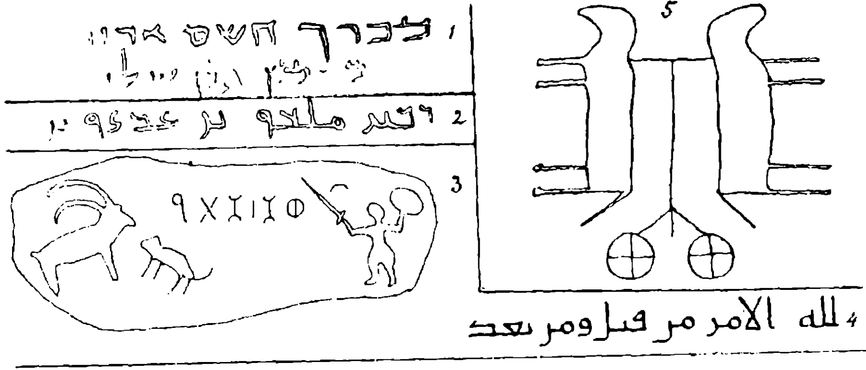
(٥٦) إن ادعاء المؤلف بأن هذا النص كتب بالخط العبري ليس صحيحاً ، فأشكال رسم حروفه تؤكد أنه كتب بالخط النبطي. وهو يقرأ كالتالي د ك ي ر ح س م س.... س ل م (تحيات وذكريات حسام (بن) .....) .

(٥٧) هو الخط الذي اشتقته القبائل العربية المعروفة بالأنباط في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد من الخط الآرامي واستمروا يكتبون به نصوصهم حتى القرن الرابع الميلادي ، ومن هذا الخط تطور خطنا العربي الذي نكتب به اليوم . يتكون الخط النبطي من اثنين وعشرين حرفاً (تحتوي على ثمانية وعشرين صوتاً) . ويكتب من اليمين إلى الشمال ، ويتميز باستخدام الإعجام في بعض نصوصه المتأخرة ، وربط الحروف بعضها ببعض ، والتفريق بين أشكال الحرف في أول الكلمة وآخرها. أما النقش المرفق والذي رمز له المؤلف برقم اثنين فيقرأ د ك ي ر م ل ك و ب ر ع ب ي و (تحيات (سلام) مالك بن عبي).

(٥٨) كتب أصحاب النقوش العربية الشمالية القديمة لغتهم العربية بأربعة خطوط مشتقة من أصل واحد وتختلف عن بعضها البعض في رسم بعض أشكال حروفها هي الخط الثمودي ، الخط الديداني ، الخط اللحياني ، الخط الصفوي . أما نقوش جبل أم سلمان التي يتحدث المؤلف عنها هنا فقد دللت الدراسات التي قام بها الدكتور سليمان الذييب على مجموعة هذه النقوش (تحت النشر)بأنها كتبت بالخط الثمودي . ويقرأ النقش المرفق والذي رمز له المؤلف بالرقم ثلاثة كالتالي و أ ل ا أ ت ي (وائل (من قبيلة) آتي) .

(٥٩) كتب هذا النص بخط عربي كوفي . ويقرأ (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

مشاهد خارج منطقة نجد ، ويلاحظ أن الفنان تغلب على مشكلة الأبعاد من خلال الرسم المقلوب على الجانبيين .



نقوش جبل أم سلمان

عدنا عند الساعة الخامسة إلى مخيمنا ، وهناك تم سقي الجمال للمرة الثانية ، وبعد أن تناولنا عشاءنا بدأنا التحرك من جديد في السابعة والنصف واتجهنا في البداية ناحية الشرق تماماً وبعد ساعة ونصف كان جبل غوطة وراء ظهورنا ، وأقمنا المخيم من جديد في العاشرة مساء فوق المرتفعات الرملية .

الجمعة ١٨٨٣/١٠/١٩ كان مسيرنا طوال هذا اليوم خلال النفود في الاتجاه بين الشرق والجنوب الشرقي ، وبدأت القعور (القيعان) تأخذ حجماً وعمقاً أكبر، إلا أنها لم تعد تظهر بشكلها المنتظم كما كان الحال في النصف الشمالي من الصحراء، وكانت الأعلاف متوافرة وكذا الحطب ، ولذلك قمنا في المساء بمناسبة توديع صحراء النفود بإشعال نيران هائلة جعلت حموداً يشكو من إسرافنا .

(٦٠) تقع شمال غرب مدينة حائل .

السبت ١٨٨٣/١٠/٢٠ في الصباح الباكر صعدنا نحو قرية قنا(٦٠) الصغيرة، وعلى البعد كان يرتفع الحائط الجرانيتي لجبل أجأ، حيث تقع الرعيلة عند سفحه الشمالي الشرقي، وكانت أشجار النخيل العالية تحيط بمنازل القرية القليلة ، وقد دهشنا حين وجدنا هنا بعض حقول الشعير، كما شاهدنا العديد من الآبار التي يتم استخراج الماء منها لسقي النباتات عن طريق السواني، هناك على الجانب الآخر من القرية نصبنا مخيمنا لكي نقوم بإعداد الأكل والاستحمام .



بلدة قنا من الجهة الشمالية الغربية

انطلقنا من جديد حوالي الساعة العاشرة، وبعد أن تجاوزنا مرتفعاً رملياً صغيراً انتقلنا إلى طبيعة مختلفة تماماً حيث سرنا وسط سهل خصب من الرمل ترعى فيه أعداد كثيرة من الإبل، مما يعني دخولنا في منطقة الجبل ، وهذه التسمية تطلق على تلك المساحة الواقعة بين النفود شمالاً والقصيم جنوبا ، وتعتبر هذه المنطقة من أفضل المناطق مناخاً حيث ترتفع مسافة ١٠٠٠ - ١٢٠٠ متر فوق سطح البحر، مما يجعلها أكثر مناطق شمال شبه الجزيرة العربية خصوبة واخضراراً، كما تسمى أيضاً عالية نجد(٦١) لتمييزها عن مناطق نجد الأخرى وعن القصيم .

---

(٦١) لم يكن المؤلف دقيقا في جعله تلك المنطقة هي عالية نجد . إذ إن هذا المصطلح يطلق على ما يلي الحجاز فحسب . قال ابن الأعرابي نجد اسمان السافلة والعالية . فالسافلة ما ولي العراق . والعالية ما ولي الحجاز وتهامة ، انظر بلاد العرب للحسن بن عبدالله الأصفهاني ص ٣٣٦.

ظللنا نسير عدة ساعات وسط قطعان الإبل ، كما بدأت السحب تتلبد في السماء، وبدأنا نسمع صوت الرعد يدوي في الجبال السود أمامنا ، حيث استقبلتنا في سرور بالغ أولى قطرات الغيث، وبدلاً من أن تحدث تلك العاصفة المرتقبة انهمرت الأمطار من جديد، وحين بدأت الشمس تميل نحو المغيب أخذت ترسل أشعتها الهادئة على السهل والجبل .

قبل دخولنا في الممر الجبلي خيمنا لتناول العشاء تحت مجموعة من شجر الطلح[٦٢] ، ولقد أدى منظر المرتفع الخصب والمواشي التي ترعى فيه بسلام ، وكذا الأشجار البرية، وروعة الواجهه الجبلية في خلفية المنظر، بالإضافة إلى الإحساس بالأمان الشخصي وعدم القلق بشأن الأكل أو الشراب ، والشعور بأننا سنصل غداً إلى هدفنا التالي لقد أدى ذلك إلى إضفاء حالة من الرضا الشديد على محيانا .

كانت سلاسل الجبال الجرانيتية التي تتقدم جبل أجأ تقع في صف خلف بعضها البعض، ويتراوح امتداد كل منها ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ قدم، وارتفاعها ما بين ٦٠ -٧٠ قدماً، أما سمكها فلا يتعدى ٢٥ قدماً ، وقد كانت تبدو أمامنا كما لو أنها كسر حجرية تبرز فوق سطح أرض رملية ، وربما لا أكون مخطئاً إذا ادعيت القول: إن جبل أجأ لا يتعدى عرضه عشرة أو اثني عشر كيلاً في حين أن قمته لا تتعدى بضع مئات من الأمتار[٦٣] ، وبعد أن سرنا بسرعة مدة ثلاث ساعات تركنا الجبال خلفنا، وقد حل الظلام الدامس بحيث لم أعد أراها، وبعد مسافة ضربنا معسكرنا الليلي فوق منطقة رملية جرداء، ولكننا لم نستطع النوم بسبب شدة الرياح والمطر .

الأحد ١٨٨٣/١٠/٢١ بدأنا في الخامسة صباحاً المسير من جديد، وكان المطر ينهمر مدرارا، ولكنه رغم ذلك لم يتسبب في إفساد فرحتنا، حيث كان مقرراً أن نصل إلى حائل

(٦٢) شجر ينتمي إلى فصيلة الغضى له جذوع صلبة تفرز الصمغ الأسود ، وتستخدم في البناء والتدفئة . وله شوك تأكله الإبل .

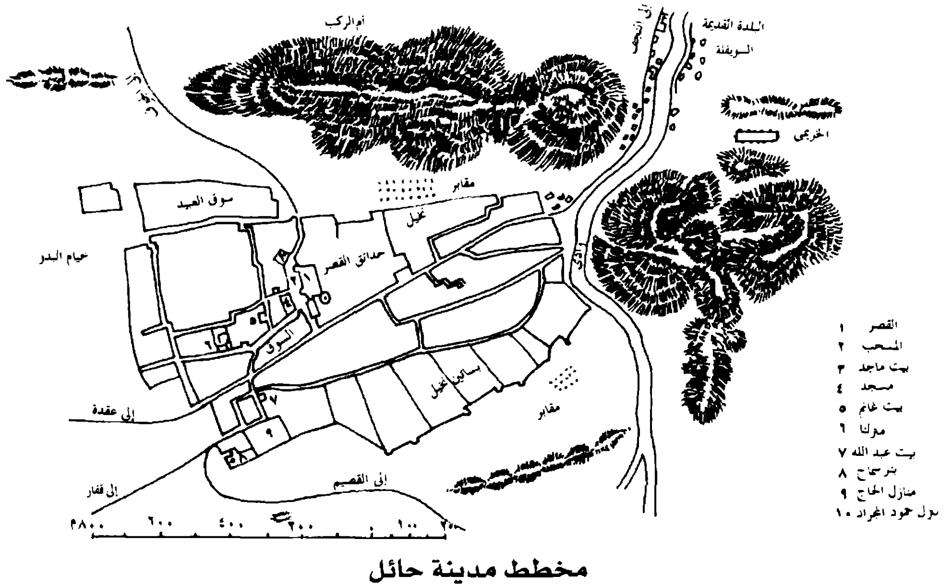
(٦٣) يمتد طول جبل أجأ الواقع غرب مدينة حائل ١٢٠كم من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٢٥ كم ، أما أعلى قمة فيه فتصل إلى ٣٥٠ متراً .

خلال ثلاث ساعات. أخذ طريقنا يتجه مستقيماً نحو الجنوب تاركين جبل أجأ على الجهة اليمنى، وقد كانت صفحاته الجرانيتية تلمع كالفضة بفعل سقوط المطر عليها ، أما على الجهة اليسرى ناحية المرتفعات الرملية الحمر فقد بدأت تظهر صفوف أشجار الأثل تتوسطها أسوار الآبار المتداعية والمنازل المهجورة ، ثم بدأت تظهر لنا ظلال جبل فتق القاتم والواقع بين جبلي أجأ وسلمى[٦٤] ، وقبل نصف ساعة من المدينة وبينما كان المطر ينهمر بغزارة ترجلنا عن الجمال وقمنا بتغيير ملابسنا ، وبعد ذلك مباشرة توقف المطر . وبعد مسيرة يسيرة ظهرت أمامنا مدينة حائل - مقر اقامة ابن رشيد - تحت ظلال شمس الصباح الرائعة .

انطلقنا مسرعين نحو المدينة مارين بخيام البدو السود سالكين طريقنا بمحاذاة أسوار الطين الممتدة جاعلين المدينة القديمة الواقعة خلف أشجار النخيل على يسارنا ، وأمامنا كان يبدو الحي الجديد بقصره الشامخ ذي الأبراج العالية ، وعندما وصلنا إلى الأسوار جفلت ركائبنا إلا أننا أكرهناها على الدخول عبر الأزقة الضيقة إلى أن وصلنا إلى ميدان المدينة الواسع ، حيث حططنا الرحال ونحن محاطون بأعداد كثيرة من الناس ، ثم سرنا عبر العديد من الأفنية إلى حيث مقر الاستقبال في القصر .

(٦٤) يمتد جبل سلمي الذي يبعد عن مدينة حائل سبعين كيلاً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بمسافة تصل إلى ٦٠كم. وعرضه حوالي ١٥كم .وترتفع أعلى قمة فيه إلى حوالى ١٢٠٠ متر عن سطح البحر .

حـــائـل



مخطط مدينة حائل

كان من الطبيعي أن نكون مفعمين بالترقب لرؤية حاكم الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية الذي كانت مصائرنا معلقة في يده خلال الفترة القادمة. وبينما نقلت أمتعتنا إلى المنزل المخصص لنا ذهبنا إلى القصر حيث دخلنا عبر فناء به عدد من المدافع القديمة إلى أن وصلنا إلى قاعة الاستقبال ، وهناك قدم لنا الشاي والقهوة ، كما قام ذلك الشيخ الوقور مفرج ذو الشوارب البيضاء الطويلة ومسؤول التشريفات في القصر بإيقاف جموع الناس الذين كانوا داخلين وخارجين لرؤيتنا والسلام علينا، بقينا في تلك القاعة مدة نصف ساعة، حيث كان حمود المجراد قائد حملتنا يقدم للأمير تقريراً مفصلاً عما رآه وسمعه، بعد ذلك دخل علينا مفرج ليخبرنا بأن الأمير يرغب في استقبالنا، فسرنا عبر ممر طويل ومظلم مارين بغرفة الجنود ثم دخلنا عبر ممر مسقوف تقبع في جهته اليمنى مجموعة من الكراسي الأوربية المتهالكة وأشياء أخرى عديمة الفائدة جلبت من بلاد الغرب إلى أن وصلنا إلى القهوة (قاعة

استقبالات الأمير)، وبعد أن خلعنا أحذيتنا أمام المدخل دخلنا دون انحناء أو أي طقوس أخرى قائلين بكل بساطة (السلام عليكم)، فسلم علينا بيده، وبينما كنا نقبله يمنة ويسرة كان يردد كيف أنت، كيف أنت، وقد تكرر الشيء نفسه مع ابن عمه حمود العبيد ، بعد ذلك طلب منا الأمير الجلوس قائلاً تفضلوا، فجلست أنا وهوبر إلى يساره، وإلى جانبنا جلس أيضاً قائد جيشه صالح بن رخيص وعدد آخر من الأمراء ، بينما جلس إلى يمينه حمود العبيد وبعض أفراد العائلة من كبار السن، أما من الجهة المقابلة إلى يسار المدخل مباشرة فقد جلس عدد من الوزراء (إن صح التعبير)، ورجال القصر والجنود أيضاً، ولأن الأسئلة والأجوبة كانت موجهة أساساً إلى هوبر بصفته صديقاً وضيفاً قديماً فقد أتيحت لي الفرصة لكي أتفقد المكان في هدوء . كانت قاعة الاستقبال (المجلس) واسعة ومطلية بلون أبيض، طولها ١٦ متراً وعرضها عشرة أمتار وارتفاعها أربعة أمتار، أما السقف فهو مسقوف بأخشاب شجر الأثل، ويحمله ثلاثة أعمدة من الطوب النيء (اللبن)، ومعلق عليها أربعة قناديل زيتية، أما الأرض فكانت مفروشة بحصير من سعف النخيل، بينما بسطت الزلالي الفارسية إلى جانب جدران القاعة، وفوقها مجموعة من الوسائد للاتكاء عليها ، وأمام مجلس الأمير يوجد الوجار الذي يصل طوله المترين وتوقد فيه النار بصفة مستمرة، حيث يتم إعداد القهوة، كذلك كان هناك



قناديل للإضاءة، فالقاعة لا ينفذ إليها سوى القليل من الضوء، فبخلاف الأبواب لا توجد سوى فتحات قليلة ضيقة في الجدران المواجهة.

يبلغ الأمير محمد بن عبدالله الرشيد من العمر الثامنة والأربعين تقريباً، وهو مثل كل أمراء عائلته ذو بشرة بيضاء نسبياً، وذقن سوداء تماماً (ربما تكون مصبوغة)، وتعبيرات وجه تنم عن عزيمة وإصرار، وعيناه في حركة دائمة، أما مظهره الخارجي فيتسم بالبساطة، حيث كان يرتدي ثوباً أبيض وفوقه مشلح أسود مطرز، وعلى رأسه شماغ وعقال مطرز بلون الذهب، وتحتها تتدلى ضفيرتان سوداوان جدلتا بشكل رائع، ويلبس في قدميه صندلاً جلدياً بدون جوارب. أما الشيء الوحيد الذي يزهو به فهو سلاحه السيف المعلق جانبه على الجدار الذي ربما تبلغ قيمة الذهب الموشى به نصله ومقبضه حوالي ألفين إلى ثلاثة آلاف مارك. وقد كانت عقلانيته تفوق ليس فقط أتباعه، ولكن أيضاً أقاربه إلى حد بعيد، وعلى الرغم من إيمانه

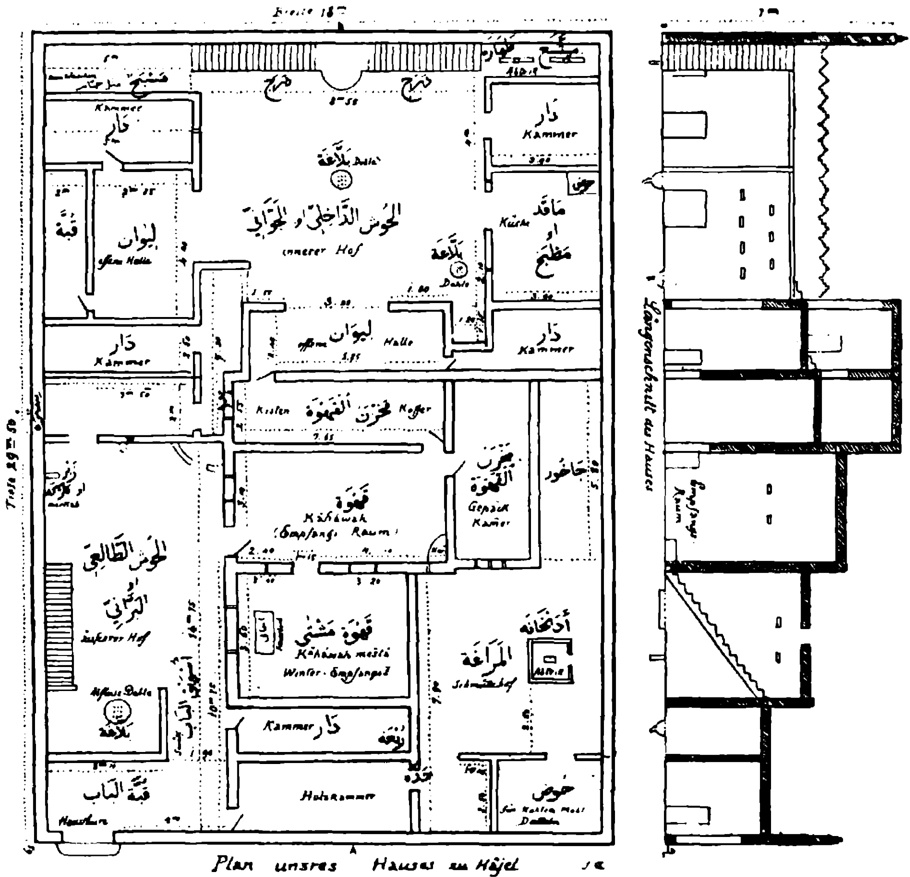


مفرج

إلا أنه يبدي تسامحاً نحو من يخالفونه في العقيدة ممن التقى بهم كثيراً في بغداد ، وهو يتحدث العربية والفارسية والتركية في درجة واحدة من الإتقان، كما أنه على علم دقيق بقدامى الشعراء العرب ، بالإضافة إلى معرفته بجميع أشعار الفكاهة البدوية قديمها وحديثها .

لقد أبقانا لديه هناك قرابة نصف ساعة في حالة مزاجية جيدة ، قدم إلينا خلالها الشاي والقهوة، بعد ذلك ذهبنا برفقة مفرج إلى جزء آخر من القصر لمقابلة عبد العزيز بن متعب، وهو شاب عمره ١٦ عاماً، ولديه قصر خاص به. تناولنا عنده من جديد القهوة والشاي اللذين أتعبا معدتي، فأصبحت بحاجة إلى الأكل، وأخيراً ظهر مفرج ليعلن لنا أن الأكل جاهز . وعلى الجانب الآخر من الفناء، حيث يقدم الأكل للضيوف العاديين صعدنا الدرج إلى قاعة خصصت ليأكل فيها الضيوف المميزون، ودخل معنا جميع رفاق الرحلة ، وبمجرد أن أخذنا أماكننا في ذلك الممر الطويل دخل علينا أربعة من الخدم وهم يحملون صينية يتعدى قطرها المتر ومملوءة بالأرز ولحم الإبل ، فوضعوها على سفرة مصنوعة من سعف النخيل ذات أربعة مقابض ، وبينما نحن نوشك على البدء في الأكل اضطررنا مرة أخرى للانتظار حتى يتم الانتهاء من وضع الصينيات الأخرى في أماكنها ، ولما كانت الغرفة ضيقة فقد كانت ملابس الخدم المتدلية تلامس الأكل. كنت قبل أن نبدأ في الأكل أشعر برغبة جارفة للطعام ، ولكن ما شاهدت بجواري على الصينية المقابلة يفوق كل وصف ، حيث بدأ مرافقونا من البدو يلتهمون الطعام بطريقة وسرعة لافتتين للنظر، كأنهم كانوا خائفين من عدم رؤية الطعام مرة أخرى، عشرة أشخاص التهموا وحدهم صينية كاملة تكفي لإشباع خمسة عشر رجلاً جائعاً، وقبل الأكل وبعده أحضر الماء لغسل الأيدي، وكذا المناشف التي كانت متسخة إلى حد أن هوبر سأل دليل رحلتنا عما إذا كان في وسعنا الحصول في هذا القصر على مناشف نظيفة، وفعلاً تم إحضار مناشف نظيفة لنا. وبعد الغداء كان علينا أن نبدي دهشتنا إزاء ستة مدافع في القصر ذات مواسير حديدية قديمة تحمل أعوام ١٧٩٣م، ١٧٩٤م جلبت من القصيم بعد أن تركها إبراهيم باشا هناك، وقد كانت قواعدها متهالكة إلى حد يمثل خطورة على من يحاول إطلاقها ، إضافة إلى ذلك فلا أعتقد أنه يوجد لها ذخيرة في جزيرة العرب .

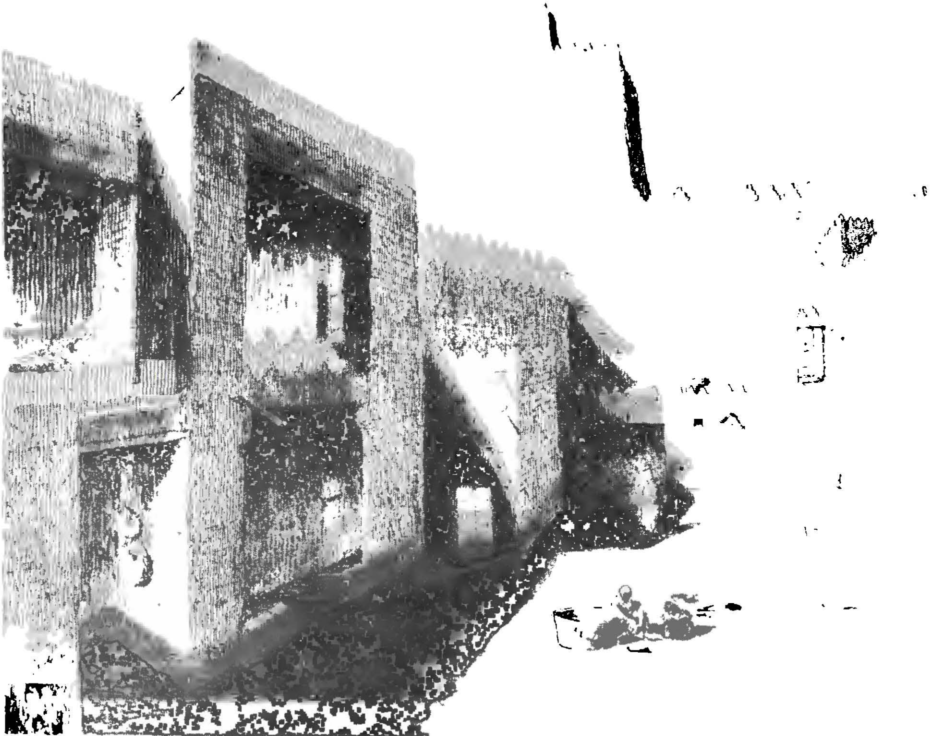
وأخيراً أصبح في مقدورنا الذهاب إلى المنزل الذي وضعه الأمير تحت تصرفنا ، ولما كان حمود المجراد في أول مقابلة لنا معه في كاف قد قال لنا: إن الأمير ترك لكم الخيار ، إما أن تسكنوا في القصر أو في بيت مستقل وحدكم ، ففضلنا الخيار الأخير، لأننا اعتقدنا أننا سنتكفل وحدنا بإطعام أنفسنا. يقع المنزل في الحي الإيراني ، وتعود ملكيته في الأصل إلى



مخطط منزلنا في حائل

شخص فارسي عاد منذ فترة إلى مسقط رأسه في مشهد[٦٥]، وقد قام وكيله بتأجيره على الأمير بمبلغ ٦ مجيديات (٢٠ ماركاً) في السنة، وحتى يمكنني أن أعطى تصوراً عن الأشكال البنائية لبيت عربي سأقوم بمحاولة لعمل مخطط توضيحي ، بالإضافة إلى شكل مقطعي لأحد المنازل.

عبر ممر ملتو نحو اليمين يدخل المرء إلى الفناء الأمامي حيث يوجد في الناحية اليمنى منه مدخل القهوة أي غرفة الاستقبال ، وهي في الوقت نفسه الغرفة التي نستخدمها في المعيشة والنوم وتتكون الحوائط والأرضية من الطين الجامد (اللبن)، وقد قام الخادم محمود بتنظيفها، ووضع فيها حصائر القش والأبسطة وأشدة الجمال التي أحضرها من القصر،



فناء منزلنا في حائل

(٦٥) مدينة تقع في شمال شرق إيران .

ووضع الأمتعة كافة في مخزن القهوة لإخفائها عن أعين الفضوليين وتطلعات الزوار، وبجانب هذه القهوة كانت هناك قهوة شتوية أخرى كان محمود ينام فيها فيما مضى، وهناك سور عرضي يخرج من الفناء الأول ليفصله عن الفناء الداخلي الأكبر الذي يلتف حوله عدد من الغرف التي تستخدم لأغراض الطهي ، وذلك هو المكان المعتاد لإقامة العبيد الذين خصصهم لنا الأمير، وهم مطر عمره ١٥ عاماً، وأخته فريحة، أضيفت لهما فيما بعد واحدة أخرى ، وهم يساعدون محموداً في المطبخ ويجلبون الماء من بئر سماح، والخشب والأرز واللحم والتمر وكل ما هو ضروري من القصر، ولم يكونوا يقيمون هنا في المنزل، بل يعودون كل يوم بعد العشاء إلى ذويهم الذين يسكنون في حي سوق العبيد .

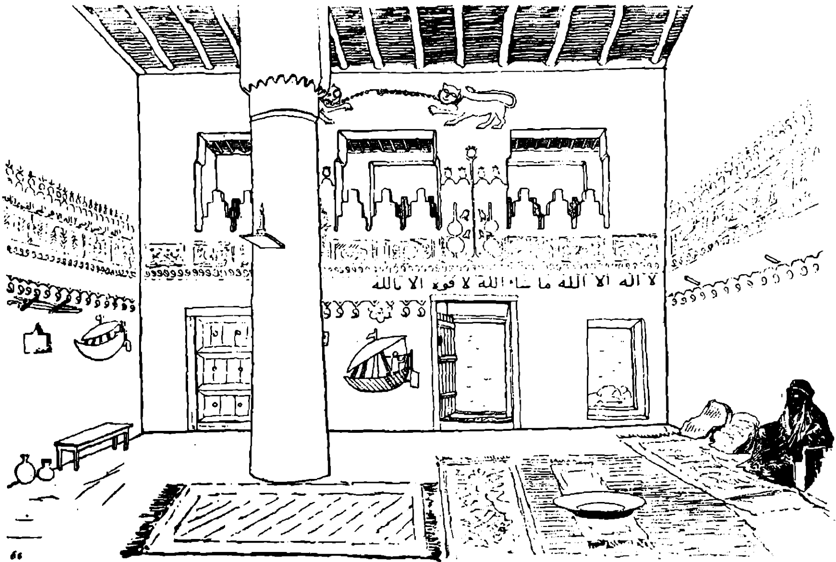
كنا نفضل طبعا أن نوفر لأنفسنا أسباب الراحة داخل المسكن، وأن نخرج من حقائبنا كل ما هو ضروري لنا، ولكن الفرصة لم تتح لنا، وذلك بسبب تدفق صغار الزوار وكبار هم على حد سواء خلال ذلك اليوم والأيام التي تلته ، وقد كان الهدف الأساس من تلك الزيارات التي قام بها فقراء معدمون هو الحصول منا دون عنف على أكبر قدر ممكن من الأشياء، وتخليصنا من أمتعتنا التي كانت تتسم بالثراء حقاً، ولكننا لم نعط هدايا لأي شخص مما سبب المرارة وخيبة الأمل لهم بكل تأكيد، وقد كان كل من يأتي يتمنى في قرارة نفسه أن يذهب الآخرون حتى يختلي بنا، ومن ثم فقد ظلوا جميعاً جالسين يشربون القهوة دون توقف على أمل الحصول على شيء، وقد كان هؤلاء هم أنفسهم الذين يترددون علينا كل يوم ، حيث يبدؤون بالمجيء قبل طلوع الشمس بساعة ، وهذا الوقت المبكر طبعي لاستقبال الزوار في تلك الديار، أما اليوم فلم يخلصنا منهم سوى دعوة الأمير للعشاء معه في القصر.

الثلاثاء ١٨٨٣/١٠/٢٣ قمنا قبل ساعة من شروق الشمس بزيارة ابن عم الأمير حمود العبيد، وعند عودتنا قابلنا الأمراء ماجد وعبدالعزيز ، بعد ذلك ذهبا إلى عبد الله المسلماني الذي قدم لنا خبزاً رقيقاً مصنوعاً على الطريقة البغدادية. وبمجرد عودتنا إلى المنزل وجدنا دعوة من صانع الأسلحة غانم بن باني ، ولكنني اعتذرت عن الدعوة بسبب جروح في قدمي قمت بمعالجتها بواسطة ماء الكربول، ولكنه شرفني بإرسال الطعام إليّ ، بعد ذلك انهالت

علينا الزيارات طوال اليوم، و قد كان من بينهم المرضى الذين طلبوا أدوية من هوبر ، وكما فعلت بالأمس هربت اليوم أيضاً إلى السطح حتى أتمكن من مواصلة رسوماتي دون مضايقة. وفي هذا اليوم أرسلنا إلى حمود العبيد نطلب منه أن يمدنا ببعض الأغطية والوسائد .

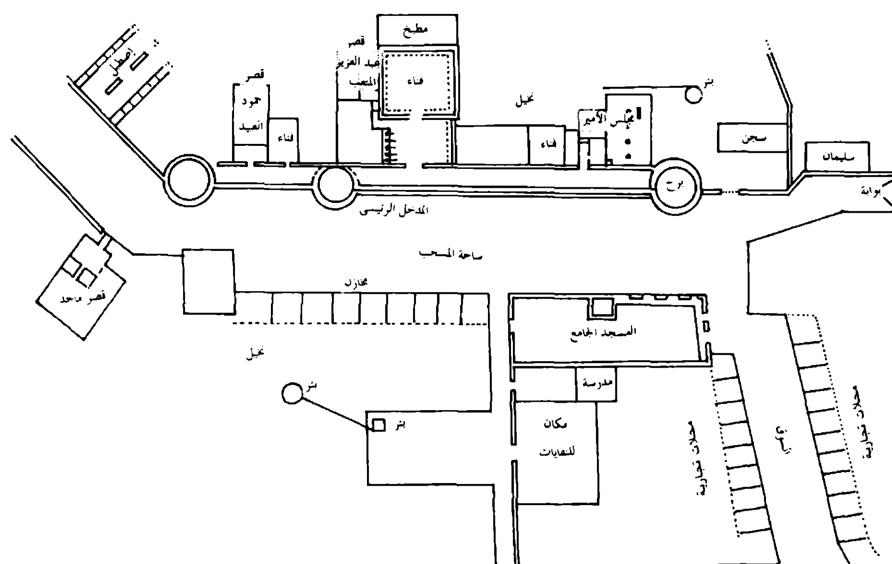
كنت عاقداً العزم اليوم على رسم بعض المناظر التصويرية، وكتابة بعض الجمل على جدار القهوة التي كنا نقيم فيها ، فطلبت منهم القيام بدهان جدران الطين البنية من الأسفل إلى ارتفاع مترين بالجير الأبيض .

وفي المساء أرسل الأمير يطلبنا لكي يرينا قصره ، ولكي يستعرض خيوله أمامنا ، وحيث إنني لا أفهم شيئاً عن الخيل ولا عن صفاتها العربية الشهيرة التي كتب عنها الكثيرون من المختصين وغير المختصين ، ولكنني فقط أريد توضيح بعض الأخطاء الشائعة، وأول ما أريد التنبيه إليه أن أعداد الجياد في شبه الجزيرة العربية قليلة بشكل يدعو إلى الدهشة ، إذ يمكن على أقصى تقدير أن نحصي وجود حوالي ٥٠٠ جوادٍ في نجد كلها باستثناء ٣٠-٤٠ جواداً



إحدى الغرف الداخلية لمنزل عبدالله المسلماني

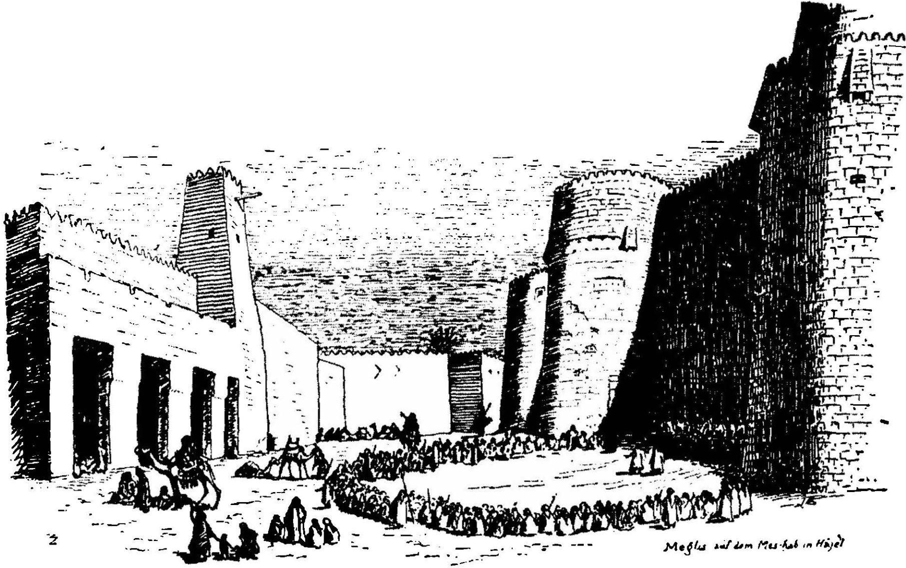
ملك للأمير وأسرته، وربما كان عدد الخيول الموجودة في نجد قبل أربعين عاماً يزيد بمقدار مائة جواد[٦٦]. والآن إلى جياد الأمير هناك على الجانب الشمالي للقصر الضخم الذي يكاد يشغل حياً سكنياً بأكمله عدد من الأفنية التي تحتوي على الإصطبلات، وقد ذهبنا إليها مع الأمير وصحبة كبيرة، كانت الجياد تقف في العراء مقسمة حسب الأعمار والجنس ومربوطة من أقدامها ومغطاة بقطع ثقيلة من السجاد، وبناء على إشارة من الأمير تم نزع الأغطية وكان علينا الآن أن نصدر حكمنا على تلك الجياد، فكان الانطباع الأول غير جيد، فقد كانت الخيل هزيلة هزالاً يدعو إلى الشفقة وغير جيدة المنظر ولا تحظى بعناية كافية. ولما نفد صبر الأمير إزاء تحفظنا طلب رأينا فذكرت له أنني لا أفهم كثيراً في هذا الأمر إلا أنني أعتقد أن الخيل ذات عنصر أصيل، وقد أكد لي ما قلته وشرح لي بعض العلامات المميزة لخيول نجد، وعندما طلب مني عقد مقارنة مع الجياد الأوروبية سمحت لنفسي بأن أبدي ملاحظة تفيد



مخطط القصر والمناطق المحيطة به

(٦٦) إن تقدير المؤلف لأعداد الجياد في منطقة نجد قليل جداً، خاصة إذا ما أدركنا أن الخيول كانت تحظى باهتمام أهالي المنطقة في ذلك الوقت وتستخدم بشكل رئيس.

أن حجم الجياد في الغرب أكبر منه في الشرق فكان رده (إن ذلك ممكن لأنها ربما تأكل أكثر إلا أنها مقابل ذلك لا تتحمل العطش، ومثل تلك الجياد الممتلئة لا نحتاج إليها في بلادنا). وربما يكون على حق في قوله ذلك ، إذا يبدو أن المرء لن يجد جياداً تفوق جياد نجد وأصحابها البدو في قدرة التحمل والصلابة.



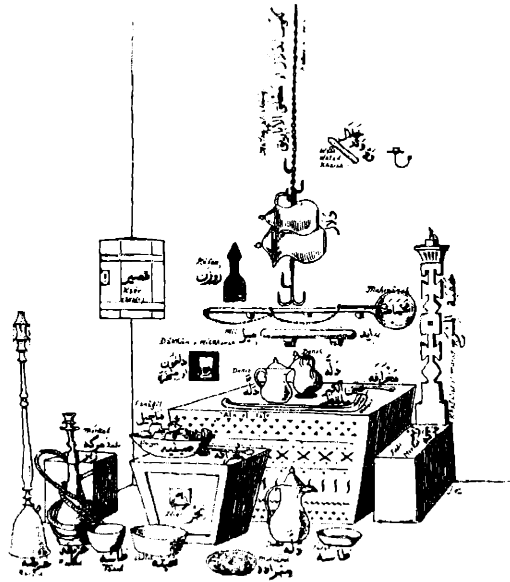
مجلس المسحب في حائل

انتقلنا بعد ذلك إلى بستان القصر المهمل حيث توجد بين النخيل أشجار أخرى متناثرة مثل التين والليمون والبرتقال والرمان والبرقوق ، وكانت هناك ثلاثة جمال تقوم بسحب المياه اللازمة للري من بئر عمقها ١٧ متراً، وفي بعض الأوقات كان الأمير يحتجز داخل جزء آخر من البستان بعض الغزلان والوعول أو البقر الوحشي، إلا أنه أطلقها بعد ذلك، لأسباب من بينها سوء طباعها .

كان الأمير يبدو مزهوا وهو يرينا المطبخ الذي كانت توجد فيه سبعة قدور نحاسية ، وهي كبيرة جداً، يتسع الواحد منها لطبخ جمل كامل. وعادة ما يأكل يومياً في القصر ما بين ١٥٠-

٢٠٠ شخص، ويتكون الأكل عادة من لحم الخراف والأرز المجلوب من العراق، وهناك أيام يتم خلالها إطعام ما بين ٣٠٠ - ١٠٠٠ شخص عدة أيام متواصلة، وذلك عند الاستعداد للقيام بغزوة أو عندما تمر قافلة حج إيرانية[٦٧].

غادرنا بعد ذلك القصر من خلال بوابة عند الزاوية الجنوبية الغربية مروراً بالسجن المبني من أحجار طينية عادية، وخلف بابه المفتوح هناك بعض الحواجز الخشبية لربط الجناة بها، في هذه الأثناء ظل الأمير الشاب عبدالعزيز ممسكاً بيدي طوال سيرنا عبر الممر المؤدي إلى الجياد وإلى أن صعدنا إلى القهوة، إذ يبدو أنه كان يشعر نحوي بالإعجاب، لذلك دعاني إلى زيارته في أقرب فرصة. ومن الغريب أننا بقينا طوال تلك الليلة هادئين فلم نحظ بزوار على الإطلاق.



أدوات القهوة

(٦٧) كانت حائل من أهم المحطات الرئيسة على طريق الحج القادم من العراق.

الأحد ١٨٨٣/١٠/٢٨ أخذ الطقس منذ أن وصلنا إلى حائل يتحول إلى المناخ الشتوي، كما كانت السماء ملبدة بالغيوم بدرجة أو بأخرى، و الضباب يحيط قمم الجبال القريبة، مما جعل صفحات الجبال الجرانيتية الملساء تشع بالبريق عندما تسطع عليها أشعة الشمس، وتأخذ لوناً فضياً عندما يسقط عليها رذاذ المطر.

لقد عقدنا العزم في اليوم التالي على ارتقاء قمة جبل السمراء الواقع قرب المدينة، لذلك طلبنا من سلامة (وزير المالية) أن يجهز لنا حمارين عند الساعة الثامنة صباحاً .

الإثنين ١٨٨٣/١٠/٢٩ لم تأت الحمير بالطبع رغم أننا أرسلنا إلى سلامة مرتين دون جدوى، ولما بلغت الساعة الثانية عشرة تخلينا عن خطتنا لهذا اليوم، وفي الثالثة كتب خادمنا محمود خطاباً إلى سلامة عبر فيه عن أسفه لعدم تلبية أي طلب لنا منذ سفر الأمير ، على الرغم من أنه أصدر أوامره بهذا الخصوص، وإذا لم يكن متاحاً توفير الحمير فعليه أن يحضر جمالنا التي ترعى على مسيرة يوم من المكان حتى نستطيع التصرف، وبعد إرسال الخطاب توجهنا نحو الشمال الغربي إلى هضبة أم المساجد الواقعة أمام المدينة، ومن هناك قمت برسم جزء من سلسلة جبال أجأ .

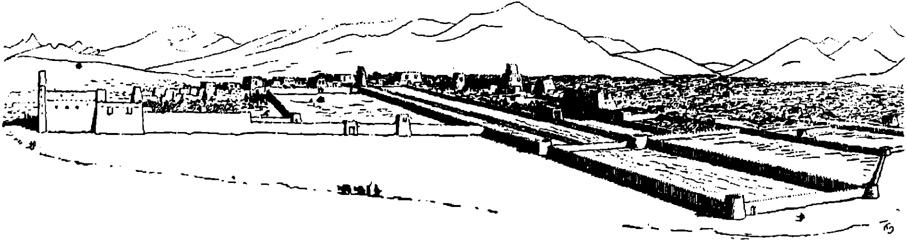
عند عودتنا التقينا في منزلنا مع عبدالله المسلماني الذي قال لنا: إنه أثناء غيابنا حضر سلامة مرتين والدموع في عينيه معبراً عن أسفه الشديد وعذره لعدم استطاعته إرسال الحمير؛ لأن العبيد أخذوا أحدهما إلى لقيطة(٦٨) والآخر إلى عقدة(٦٩) دون إذن منه، وأن الحمير سترجع حتماً صباح الغد .

الثلاثاء ١٨٨٣/١٠/٣٠ في الثامنة صباحاً جاء مع الحمارين شخص من قبيلة هتيم يدعى عائضاً الدرزي ، فركبنا باتجاه النهاية الجنوبية للمدينة ، ووصلنا بعد نصف ساعة إلى سفح

(٦٨) تقع في سفح جبل أجأ الشمالي الشرقي . وتبعد عن حائل ٢٥كم تقريباً .

(٦٩) تقع في وسط جبل أجأ الذي يبعد مسافة ٢٥ كيلا عن وسط مدينة حائل .

جبل السمراء فتركنا الحمير ترعى عند السفح وارتقينا القمة التي يتراوح ارتفاعها ما بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم، كان المكان مناسباً لكي نحدد موقعنا ، فإلى الغرب كان يقع جبل أجأ وإلى الشرق جبل سلمى الذي تغطي فتق جزءاً منه ، هنا رسمت منظراً كاملاً للجبلين ، في حين كان هوبر يقوم بعدد من القياسات للزوايا، أما مرافقنا فكان يعرف تماماً أسماء القمم الجبلية كلها . في السهل الممتد أمامنا كانت ترتفع بشكل لافت للنظر سلسلة من الجبال الجرانيتيه



حائل من الجهة الجنوبية

المنخفضة تمتد من الغرب إلى الشرق. وبعد أن توقفنا مدة أربع ساعات فوق القمة نزلنا من جديد وركبنا إلى بستان للأمير تحيط به الأسوار يسمى (حريمية) ، بعد ذلك سرنا خلال أطلال بلدة عينات المهجورة باتجاه الشمال الغربي إلى المدينة . وعند العشاء جاء القحطاني لوداعنا لأنه سيسافر يوم الغد، في تلك الأثناء منع الغرباء من البدو من مغادرة المدينة حتى لا تتسرب معلومات عن الغزو المرتقب إلى الخارج . لقد ضحكت كثيراً على ذلك المريض الذي جاء إلينا يشكو من الرشح، فقد كان يردد خمس مرات كل ربع ساعة قائلاً: انظر إن رأسي مملوء بالماء، بل إنني أسمع صوت الماء يرتج في رأسي، وبإمكان الآخرين سماعه أيضاً، وحين أكد له هوبر أنه لا يسمع شيئاً مما يقول، أصر على أن يعطيه أي علاج مهما كان نوعه، في هذه الأثناء ولحسن الحظ جاء إلينا المسؤول عن العبيد ، فسألته عن أولئك العبيد الذين يملكهم

الأمير ويسكنون في الجزء الشمالي الغربي من المدينة في الحي المسمى(سوق العبيد) ، فقال: يبلغ عدد البالغين منهم ١٦٠ عبداً، أما المخصيون فعددهم ٣٠، ويبلغ عددهم جميعاً حوالي ألف عبد.

رحلة إلى عقــدة

الأربعاء ١٨٨٣/١٠/٣١ أغلق المنزل وترك الغزال في الفناء وحده مع الشعير والماء ، وحملت الأسرة ومعدات الطهو على حمارين، وأرسلت الشاة سلفا مع ثلاثة رجال ليعدوا لنا طعام الغداء، وفي التاسعة والنصف ركبت أنا وهوبر وعبدالله ومعنا حمود على الحمير، وقد أعطاني عبدالله في الطريق غصناً من قنو نخل (عذق) لأحث به الحمار على المشي . قادنا الطريق الذي يتجه عبر السهل نحو الغرب بعد ساعة ونصف من المسير إلى سفح جبل أجأ ، وهنا ظهر أمامنا سهل بلدة عقدة الذي يصل عرضه الى مائة متر ،وتغطيه الرمال الجرانيتية الخشنة، وفي وسطه تبرز مجموعة من الصخور تسمى القعيِّد تبدو كأنها تسد المدخل .

بعد أن اجتزنا تلك الصخور توجهنا إلى اليمين نحو بئر عويمر ، وهناك أقمنا بعض الوقت في ظلال النخيل الوارفة ، حيث شاهدنا طائراً جميلاً أسود اللون ذا رأس أبيض يسمى (أبا مغيرة) يحوم بخفة وألفة حول الماء ، كان ذلك النبع فيما مضى غزير المياه ولكنها قَلَّتْ كثيراً



سد عقدة

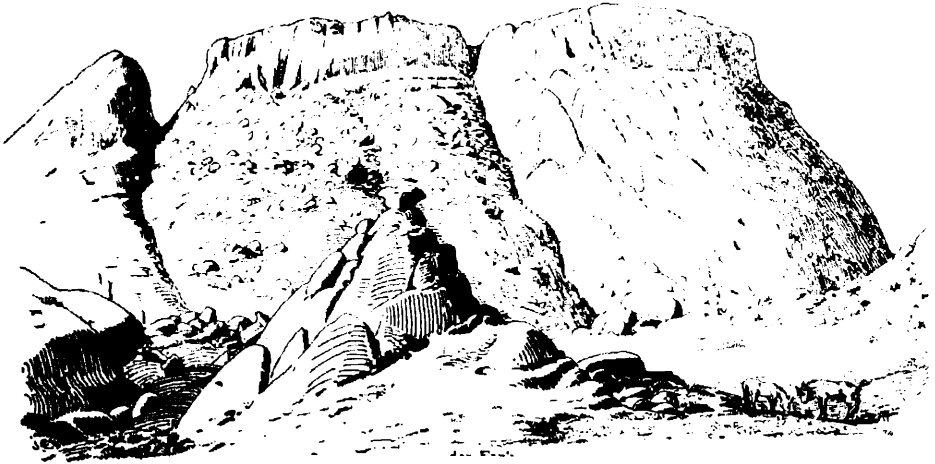
منذ ثلاث سنوات . وفي حوالي الساعة الثانية عشرة انطلقنا من جديد، حيث بدأ الطريق يضيق بين الجبال شيئا فشيئاً ، وبعد فترة قصيرة واجهنا سداً طوله ٥٠ متراً يسد أضيق نقطة بين الجبال فُتحت في جانبه بوابة للخروج ، خلف هذا السد ظهرت منازل واحة عقدة المحصورة بين جبال جرداء، والمختفية بين غابة النخيل الطويلة . نزلنا في قصر الشيخ العاري من الأثاث تماماً، وكانت أمتعتنا قد وصلت قبلنا . وبينما كان يتم مد الأبسطة ووضع المراكي فوقها والشاة تذبح ، قمنا بزيارة منزلين، وشربنا هناك عدة فناجين من القهوة، وفي بستان أحد المنزلين أشعلت النار في أحد جذوع النخل الذي كان يتلظى بهدوء ويقّرب بعضه إلى بعض بين الفينة والأخرى لكي لا ينطفئ .

حينما اقترب المساء لاح لنا ظبي في أعلى قمة الجبل القريب منا ، لعله كان يريد النزول إلى أحد آبار الماء ، وبمجرد رؤيته نهض أحد الخدم حاملاً بندقيته وجرى خلفه ، بيد أنه رجع إلى البيت خاوي اليدين .

كانت حالتي البدنية اليوم غير جيدة ، فقد كنت أشعر بصداع شديد وشبه إغماء، كما تورمت شفتي العليا وأنفي ، بالإضافة إلى تزايد سوء حالة جروح قدمي .

الخميس ١٨٨٣/١١/١ شعرت في الصباح بالراحة بسبب حدوث نزيف قوي من أنفي . ومن أجل الرحلة التي سنقوم بها اليوم إلى الفرع، وهو أعلى قمة في جبل أجأ قمت بمحاولة لتخفيف ضغط النعال على جروح قدمي ، ورأيت في النهاية أن أفضل طريقة هي خلعها تماماً . كان معنا ثلاثة من الأدلاء، أحدهم له معرفة بأسماء الأماكن، هم محمد العائد وعبدالله ، ومفضي، ركب محمد العائد ومفضي سوياً على حمار واحد ، وبقي عبدالله في القصر ولم يرافقنا، وركبت أنا وهوبر كل منا على حماره ، وانطلقنا من عقدة عند الساعة التاسعة والنصف آخذين طريقنا صوب الجنوب الغربي عبر الوادي الذي توجد على جانبيه أشجار النخيل ، بعد ذلك بدأ الطريق يضيق بسبب تقارب الجبال من بعضها البعض . وبعد مسيرة ساعة نزلنا عن الحمير، وتركناها تسبقنا عبر طريق آخر أكثر راحة ، في حين تقدمنا نحن

إلى الأمام مباشرة نحو الكتل الجيرية ، وقد وجدنا هناك تحت صخرة مجوفة حوض ماء به بضع عشرات من الضفادع الصغيرة السوداء ، ولكن الماء كان بالنسبة لنا لذيذاً جداً . ابتداء من تلك النقطة كان علينا أن نتسلل عبر الصخور الضيقة حتى وصلنا إلى مكان أشبه بالإناء (جازية) اخترناه ليكون مستقراً للحمير التي جاءت بعد وقت قصير، وبدأت تأكل من نباتات المصيع الموجودة هناك ، وقد كان في وسعنا أن نتركها في ذلك المكان دون أن يراها أحد ، كما أنه لن يكون هناك من يفكر في سرقة حيوانات الأمير . أخذ الطريق ينحدر كلما اتجهنا نحو الشق الضيق ، وعلى الجانب الأيسر من الجبل أشار الدليل إلى فتحة يصعب الوصول إليها اسماها النبع ، فتسلقت إليها وكان قطر الفتحة يبلغ ٣٠سم وارتفاع الماء فيها يبلغ ١٥سم ، ولقد اندهشت حينما رأيت على الجدار طحلبا كان هو الوحيد الذي وقعت عيني عليه خلال رحلتي ، و بعد حوالي نصف ساعة أخرى تسلقنا حزاماً من الصخور ، وأصبحنا نرى الآن إلى اليمين الجدران الحجرية المائلة لقمة الفرع الذي تكسوه كتل الأحجار ، ويفصل بيننا وبينه انكسار في الجبل .



قمة الفرع

فوق السطح المائل لاحظنا بقعة بيضاء تعرت نتيجة لانهيار جبلي حديث ، وقد سمعت أن نيزكاً سقط هنا قبل سنوات أدى إلى سقوط الصخور ، أما بقية الصخور الكبيرة المتناثرة فقد سقطت بسبب تقادمها . أمامنا مباشرة كان يمتد صدع صخري إلى أعلى ، وقد قيل لي: إن جملاً انطلق من عقدة ذات يوم، وسار عبر الصدع إلى أعلى قمة الجبل ، لكن الجبل يرتفع بصورة متعامدة مما جعلني لا أصدق ذلك ، و حيث إن استمرار الصعود إلى القمة كان يزداد صعوبة فقد نزعنا كل الثياب غير الضرورية واكتفينا بالقمصان وطاقية من القطن . وبعد أن تسلقنا آخر واجهات الجبل المكون من الصخور الملساء المائلة وصلنا والعرق يتصبب من وجوهنا إلى القمة عند الساعة الثانية عشرة وخمسين دقيقة مما أتاح لنا رؤية سلاسل الضلعان الجرانيتية الدقيقة والخالية من الأشجار والنباتات ، كما كان في إمكاننا إلى الخلف من ذلك أن نرى في ذلك السهل المشابه لسطح البحر منازل حائل ، في حين كان جبل سلمى يمتد مائلاً الأفق بخط أزرق فاتح اللون ، ولكنني للأسف لم أتمكن من الاستمتاع بذلك المنظر الرائع ، فقد اضطرني العطش الشديد إلى النزول إلى ذلك المنخفض الصخري الذي رأيت فيه أثناء صعودنا إلى قمة الجبل حفرة مملوءة بالماء ، وبينما كان هوبر يقوم بأخذ بعض القياسات فوق القمة، ويستعلم عن أسماء مختلف الجبال جلست عند صهوة فواز لأقوم بالرسم . حقاً لقد شعرت براحة غامرة وأنا أتجول بمفردي تماماً وسط تلك الطبيعة الخلابة، لا أحمل أمتعة وأكتفي بالضروري من الملابس وفي يدي دفتر الرسم والقلم مع عدم وجود احتمال أن أضل الطريق أو أن يصيبني خطر ما، وليس هناك شأن عاجل يستحثني على الإسراع سوى معدتي التي بدأت تشعر بالجوع ، و عندما وصلت إلى منخفض الجازية الذي توجد فيه الحمير كان لدي وقت كاف لرسم الطريق النازل نحو عقدة . وسرعان ما بدأت السحب الكثيفة تتكاثر، وبدأ صوت الرعد يدوي بين جنبات الصخور محذراً إيانا بالإسراع في العودة. جاء هوبر مسرعاً مع الدليلين من القمة وركبنا الحمير مسرعين بعد أن استراحت مدة خمس ساعات . وفي هذه الأثناء بدأت الظلمة تغمر السماء تدريجياً ، ولم يحل الليل إلا وقد وصلنا الى قصر عقدة .

بعد العشاء جاء أشخاص آخرون من القرية، وبدؤوا يلعبون على الربابة منشدين بعض الأغاني الحزينة . وقد كانت السماء ترعد وتبرق دون سقوط مطر كثير لأن السحب الممطرة اتجهت نحو جبال الرعيلة في الشمال . في هذه الأثناء وبينما كنا جالسين في الظلام دخل علينا ضيف فريد من نوعه ، إنه ذلك الضفدع الذي لم نتوان في إخراجه إلى حيث مكانه الطبيعي في الخارج .

الجمعة ١٨٨٣/١١/٢ أدى السير الطويل بالأمس إلى سوء حالة قدمي بشكل كبير، الأمر الذي اضطرني إلى البقاء في المنزل مستفيداً من الوقت في الرسم . ظلت السماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم ، ولكنها لم تمطر كثيراً على الرغم من الرعد الشديد . بينما كنت نائما في فراشي أثناء الليل جاءني ذلك الضفدع الذي دخل علينا أمس، مما اضطرني إلى فعل ما فعلنا معه في المرة السابقة .

السبت ١٨٨٣/١١/٣ في الصباح أخليّ القصر تماماً، حيث قمنا بحزم أمتعتنا وركبنا المطايا في العاشرة وخمسين دقيقة ، وبعد ساعتين تقريباً وصلت حائل من جديد برفقة الخادم محمود والعبد خير الله، أما هوبر فقد تأخر في الطريق .

الإثنين ١٨٨٣/١١/٥ في هذا اليوم الذي كانت فيه درجة الحرارة ١٤ م جاء الحلاق ليقص شعر محمود ، وقد تعجبت لأن الاثنين تحدثا معاً باللغة التركية، وعلمت أن الرجل كردي المولد من سيواس(٧٠)، و هو هارب من الحامية التركية في صنعاء ويقيم هنا منذ عامين ، وقد فكرت أن أصنع له معروفاً فقدمت له أداة حلاقة أوربية ممتازة ، ولكنه لم يتمكن من استخدامها وفضل استخدام أدواته البالية والبدائية.

حينما كنا مساء في منزل عبدالله قام هوبر بوضع تلسكوبه فوق سطح المنزل لمراقبة حركة النجوم، وحين رجعنا عند العاشرة وجدنا الباب المؤدي إلى الحي الذي نسكن فيه قد أغلق،

(٧٠) مدينة في تركيا تقع عند الطرف الشرقي لهضبة الأناضول .

فتحدث إلينا الحارس الذي وجدناه يغط في نوم عميق عن التعليمات الصارمة مبدياً عدم رغبته في فتح الباب ، ولكنه بعد طول حديث معه استجاب وتركنا ندخل .

الثلاثاء ١٨٨٣/١١/٦ كانت درجة الحرارة في الصباح تقارب ١٥م، وكان الجو مكفهراً والأفق مملوءاً بالضباب والسماء ملبدة بغيوم حجبت الشمس طوال اليوم مما جعلني أستمر في تزيين جدران غرفة الاستقبال بالرسوم ، كما قمت أيضاً برسم الأمَة فريحة .

ازداد سوء جروح قدمي ، بالإضافة إلى حدوث تورم خبيث في الساق اليسرى قال عنه الناس: إنه ورم حميد ، وقد اضطرني ذلك إلى عدم الاستحمام ففزعت من الوساخة، ولم يكن في وسعي سوى أن أبتهل إلى الله من أجل الخلاص، أما بالنسبة إلى القدم اليمنى فقد وجدت حلاً جيداً يتمثل بعمل فتحة في جلد الحذاء فوق الإصبع الصغير، وبذلك لم يعد جلد الحذاء يضغط على الجرح .

الأربعاء ١٨٨٣/١١/٧ قدم اليوم من منطقة تبوك كبير شيوخ بني عطية المدعو محمد بن عطية لزيارتنا مع أربعة من مرافقيه ، وقد جاء لكي يحث الأمير على القيام بحملة غزو ضد جيرانه الشماليين قبيلة الحويطات الذين بدؤوا يسببون له قلقاً متزايداً ، و قد كان الخادم محمود يعرفه من قبل حين كان كاتباً في رحلة الحج ويتولى توزيع الهدايا على البدو . ولأن هذا الشيخ كان مفيداً لنا جداً عندما نقوم برحلتنا المزمعة إلى الغرب فيما بعد فقد قدمنا له عبارات التبجيل ودعوناه للغداء معنا في اليوم التالي .

الخميس ١٨٨٣/١١/٨ لازالت جدران غرفة الاستقبال تبدو بالنسبة لي في حاجة إلى مزيد من التزيين، وقد قمت بنقش كلمة (يا علي !) على إحدى دعامات جدران الممر المؤدي إلى الفناء مستخدماً الألوان الخضراء الذهبية ، وكنت أقصد من ذلك تكريم صاحب الدار الذي كان شيعياً وكان سيشعر بالرضا كلما وقع بصره على النقش.

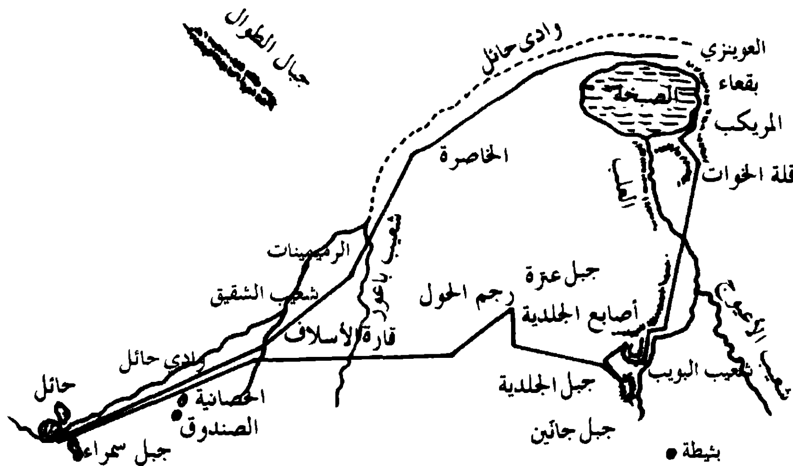
عندما جاء مفرّج لزيارتنا رجوته أن يجلس لكي أرسمه ، فأبدى موافقته على الفور. وقد كان

ذا طلعة مميزة ، فهو من القلائل هنا الذين يصبغون شعرهم باللون الأحمر ، كما أن لحيته كثيفة وطويلة بشكل غير معتاد عند البدو ، كذلك لابد أنه يستغرق وقتاً طويلاً كل يوم في جعل شاربه يبدو بتلك الاستقامة الشديدة ، ولا شك أنه شارك فيما مضى في كل حملات السلب ، مما ترك على جسده الكثير من الآثار الناجمة عن السيوف والبنادق والرماح ، فهو يحمل على النصف الأيسر من جبهته أثراً واضحاً لضربة سيف. ويعد مفرج إلى جانب الأمير وابن عمه حمود من أشهر شخصيات قبيلة شمر، وقد كنت خلال رحلاتي اللاحقة بين البدو أريهم صورته المرسومة في دفتري فيعرفونه مباشرة قائلين: نعم إنه مفرج بعصاه وشواربه الطويلة، وأثر ضربة السيف في جبينه .

لقد سببت الدعوةُ التي وجهناها إلى محمد بن عطية للعشاء معنا اليوم إحراجاً لنا، لأننا أغفلنا التأكد في وقت مناسب مما إذا كان لدينا شيء مناسب نقدمه له ، حيث لم نتمكن طوال فترة بعد الظهر من العثور على أي ذبيحة سواء داخل القصر أو في المدينة كلها ، فالغنم كانت ترعى على مسافة أربع ساعات من هنا ، لذلك لم يتبق أمامنا سوى ذبح غزالنا الذي تألمت له كثيراً، لكونه لم يستوطن إلا منذ مده وجيزة ، وقد كان في صباح اليوم يقفز في سعادة غامرة من مكان إلى آخر . في المساء وصل محمد بن عطية مع مرافقيه الأربعة لتناول الطعام، حيث تناقشنا معه حول الرحلة التي نزمع القيام بها إلى الحجاز ، ثم تعاهدنا على الأخوة فيما يتعلق بتلك الرحلة ، وقد تم ذلك على الطريقة البدوية ، حيث سلم كل واحد منا على الآخر، مع ضغط شديد على اليد وشبك إصبعي الإبهام مع بعضهما البعض ، بعد ذلك تغير موضوع الحديث ، فذهبنا نتساءل عن غزوة الأمير التي يقوم بها الآن ، وهل تحقق له النصر؟ إذ من المتوقع أن يصل مبعوثه إلى هنا خلال يومين ، بعد ذلك افترقنا على أمل اللقاء في تبوك بعد ثلاثة أشهر

رحلة إلى جلدية وبقعاء

الجمعة ١٨٨٣/١١/٩ لم تصل الجمال المتفق عليها صباح اليوم في موعدها المحدد بالطبع مما اضطرنا إلى إرسال من يحضرها من المرعى ، فجلسنا ننتظرها بين أكياس الأرز وقطع الفرش وأدوات المطبخ ومواد الغذاء بملل إلى قرب الظهر، وجاءت الجمال الثلاثة وهي في حالة يرثى لها ، حيث كانت هزيلة وتعرج ولم تحظ بتغذية جيدة ، ولكن من المستحيل إيجاد أفضل منها ، لأن جميع الإبل الصالحة ومعها ذلولي الرشيقة أيضاً التي اشتريتها فيما مضى من عرمان[٧١] ذهبت مع الأمير في غارته خارج المدينة. وحينما شرعنا نحمل أمتعتنا كان كل شيء على ما يرام ما عدا الشداد الذي لم يكن مناسباً مما اضطرنا للتأخر ربع ساعة محاولين إصلاحه . وعند الساعة الواحدة ظهراً انطلقنا بهدوء يرافقنا إضافة إلى الخادم محمود دليل من البدو يدعى شواردياً ، وفي طريقنا كانت الأعلاف قد اجتثت كلها -كما هي العادة - في الأماكن التي تكثر حولها التجمعات السكانية ولم يتبق منها سوى بعض شجيرات



الطريق من حائل إلى جبل الجلدية

(٧١) بلدة تقع إلى الشمال من جبل الدروز .

الحنظل ، ولكننا في حوالي الساعة الخامسة وجدنا قرب هضاب الصندوق والحصانية مناطق فيها القليل من العشب والأشجار ، لذلك اخترناها لنعسكر فيها ، في هذه الأثناء كانت السماء ملبّدة ببعض الغيوم المقلقة والتي ستبدأ بعد حين - ربما أثناء النوم - بإلقاء قطراتها الكثيفة على وجوهنا . وهناك قمنا بإعداد طعام العشاء المكون من التمر وقرص الجمر (خبز) والأرز ولحم الغزال .

السبت ١٠/١١/١٨٨٣ شربنا القهوة قرب الفجر ثم انطلقنا عند الساعة السابعة والنصف، وبينما كان جملي ينهض من مبركه كدت أسقط من على ظهره مع متاعي على النار الملتهبة، نظراً لكون الشداد لم يكن مثبتاً بشكل مناسب . وفي حوالي العاشرة انحرفنا نحو شعيب الشقيق وهو فرع جانبي لوادي حائل(٧٢) الذي يصب في بحيرة بقعاء الملحية في الشرق ، وفي بطن الوادي حيث الحفر الصخرية المملوءة بالماء العذب أقمنا لعمل وجبة الغداء ، وهناك استغل أحد رعاة الغنم من قبيلة الشرارات الفرصة، وحاول مساعدتنا في جلب الحطب أملاً منه نظير ذلك أن ندعوه إلى الوجبة المنتظرة ، و قد كان واضحاً أنه يشعر بجوع شديد، حيث ابتلع طعامه حتى آخر لقمة ، وبعد أن تركنا الشعيب كان الطريق يقودنا نحو سهل يتكون من الأحجار الرملية، وتملؤه الأحجار الصغيرة الملونة .

في الساعة الرابعة أقمنا المخيم ، وحين سقط المطر أثناء الليل عدة مرات سحبت معطف المطر المصنوع من المطاط فوقي ، ولكنني لم أتحمل البقاء تحته طويلاً بسبب بخار الماء .

الأحد ١١/١١/١٨٨٣ انحرفنا من الشرق نحو الشمال الشرقي متجهين صوب مجموعة غريبة من جبال الحجر الرملي ذات قمم مدببة تقع شمال جلدية وتسمى أصابع جلدية ، وكان هوبر قد شاهد خلال رحلته الأولى(٧٣) في تلك الجبال بعض النقوش والرسوم الحيوانية التي

---

(٧٢) المقصود هو ما يسمى وادي أديرع .

(٧٣) كانت رحلة هوبر الأولى للجزيرة العربية في الفترة ما بين ١٨٧٨ - ١٨٨٢م .

بحثنا عنها طويلاً حتى وجدناها ، وهي عبارة عن نقوش[٧٤] يتوسطها عدد كبير من رسوم الإبل والغزلان وبقر الوحش ومناظر لعمليات صيد النعام وغيرها، ومن الملاحظ أن تلك الرسومات الصخرية صورت بطريقة بدائية، ماعدا ذلك الحصان الذي برع الفنان في تصويره .



النقوش والرسوم الصخريةعلى جبال الجلدية

لقد أدى تهور خادمنا الذي صدّق مقولات البدو عن وفرة الماء في المنطقة إلى حدوث أزمة شديدة في المياه على مدار اليوم ، ولو لم نصادف بعد مسافة بعيدة بمحض الصدفة أحد

(٧٤) كتبت نصوص جبال أصابع جلدية بالخط الثمودي الذي لا يزال أصل اشتقاقه محط نظر بين الدارسين، فالبعض يعده مشتقاً من خط المسند (بدأ استخدامه في جنوب الجزيرة العربية منذ القرن التاسع ق. م.) ، والبعض الآخر يرى أنه مشتق من الأبجدية السينائية . يعود أقدم النصوص الثمودية المعروفة حتى الآن إلى القرن السادس ق. م. ، اما أحدثها فيؤرخ إلى القرن الرابع الميلادي . وقد انتشرت مجموعة النصوص الثمودية في أغلب مناطق الجزيرة العربية، بل تعدى انتشارها حدود العالم القديم ليصل الى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث كشف مؤخراً في ولاية كلورادو عن مجموعة من النقوش كتبت بالخط الثمودي ، انظر B., McGlane, and .others, Petroglyphs of Southeast-Colorado and the Oklahoma Panhandle, 1994

الأشخاص لكان علينا أن نبحث طويلاً عن الماء ، ولكن ذلك الشخص كان بمثابة المنقذ الفعلي لنا، فبعد أن أهديناه بعض التبغ انحرف عن طريقه، وبدأ يصف لمرافقنا البدوي قائلاً: إنه قريب جداً ، ولكن الأمر استغرق ساعتين قبل أن يعود الشواردي على جمله من موضع قلات حاملاً قِرب الماء المليئة. اخترنا اليوم مكاناً رائعاً لمخيمنا، حيث أقمناه في ذلك السهل المملوء برمال النفود الناعمة، وأمامنا جبل جلدية الذي أخذ لوناً ذهبياً بفعل انعكاس ضوء المساء عليـــه .



جبل الجلدية

كان الحطب متوافراً بكثرة إلى حد أننا قمنا بإشعال ثلاثة مواقع للنار ، و من العادة هنا أن تهدأ الريح مع مغيب الشمس، أما اليوم فإنها تحولت إلى عاصفة جنوبية بشكل لم أشهد له مثيلاً إلا في تَدْمُر حينما هبت علينا رياح السموم أثناء وجودي هناك في شهري يوليو وأغسطس من عام ١٨٨٣م ، ولما كانت الرياح تثير الرمال على مخيمنا وجدتني مضطراً لأحمي نفسي، فقمت بتغطية جسمي كله بالسجادة ولففت رأسي تماماً، و لكن على الرغم من ذلك فقد

نفذت الرمال من كل جانب وملأت فمي وأنفي وعيني وأذني، ولم تهدأ العاصفة إلا الساعة الثالثة صباحاً بعد أن غمرت معسكرنا بكميات من الرمال بلغ سمكها إصبعين .

الإثنين ١٨٨٣/١١/١٢ من المقرر أن نتسلق اليوم جبل جلدية، وحين وصلت إلى سفحه ونزلت عن جملي أدركت أن من المستحيل أن أتسلقه بقدمي المجروحة، وهكذا قررت البقاء والقيام بجولة بين الصخور للبحث عن النقوش، ولكن ذلك أيضاً سبب لي الآلام مما اضطرني إلى التخلي عن ذلك بعد وقت قصير ، فعدت بهدوء إلى المخيم الذي لم يكن العثور عليه أمراً سهلاً بسبب كثرة الأشجار حوله، وفي الساعة الحادية عشرة نزل هوبر من الجبل دون أن يتسلق قمته بسبب وعورتها .

بدأنا التحرك من جديد بعد الظهر حيث ملأنا قِرب الماء في الطريق ووصلنا إلى شعيب البويب مع غروب الشمس فوجدنا هناك شخصاً يسمى عنيزان بن زيد يرعى جماله القليلة ،



بقعاء

وقد عرفنا منه أنه عاش فترة طويلة بين قبائل الرولة مما أثار شكنا في أن سبب ابتعاده هو أنه قام بتصرف مشين ، كما أن قيامه بمثل هذا العمل المتمثل في رعاية جمال ليست ملكاً خاصاً به يعتبر في عيون البدو محط شك وريبة . على أي حال فإنه نصحنا بأن ننزل في تلك المنطقة الغنية بالمرعى ، ونبيت فيها، ولعل دافعه إلى تلك النصيحة رغبته في مشاركتنا الأكل، لم يكن في وسع ذلك الراعي أن يقدم لنا سوى حليب الإبل، وحينما سألناه أن يعطينا منه وافق فوراً . بعد قليل من الوقت رجع ومعه إناء خشبي مربع الشكل مملوء بالحليب ، فناولني إياه في البداية ، ولكن على الرغم من أنني الآن اعتدت على الجمال والحليب كان يبدو نظيفاً فلم أستطع الشرب منه ، مما جعل هوبر يلح علي قائلاً: يجب أن تجرب ، فسترى إن عاجلاً أو آجلاً أن شربه سيكون مصدر سعادة لك ، وهكذا وضعت الإناء على فمي، ثم نظرت إلى هوبر مرة ثانية فلم ألاحظ على تعابير وجهه أي شيء، فشربت أول جرعة، ووجدت حقاً أن طعم ذلك الحليب الدافئ لذيذ جداً ، نعم يجب أن أعترف أنني لم ألاحظ فرقاً بينه وبين أنواع الحليب الأخرى، عموماً لقد سعدت بعملي البطولي ذلك ، وذهبت أشرب المرة تلو الأخرى ، وبعد ذلك تناول هوبر الإناء وفعل الشيء نفسه. وحينما أحضر محمود بعد نصف ساعة وجبة الأكل لم أستمتع بها كثيراً، لأنني كنت في حالة يرثى لها، بل اعتقدت أن ساعة موتي قد قربت، فاستلقيت لأنام في ظل ضوء القمر ونفسي سقيمة .

الثلاثاء ١٨٨٣/١١/١٣ في الصباح الباكر وبينما كانت درجة الحرارة ١٤م اتجهنا مع شروق الشمس ناحية الشمال والشمال الغربي هابطين في الوادي . وهناك حيث يبدأ شعيب الأعيوج وجدنا برجاً متداعياً دليلاً على مستوطنة غير مأهولة بالسكان، أقمنا فيها حتى الساعة الحادية عشرة ، وقد كانت الأرض ملحية وبعضها مغطى بقطع كبيرة من الكريستال الجبسي . وعلى مسافة قليلة من هنا كانت الأرض ممهدة ونظيفة وأشبه ما تكون بساحة الرقص ، في بعض الأماكن كانت الأحجار صغيرة جداً، وبعضها متآكل ورقيق جداً وبعضها الآخر يتكون من طبقات فوق بعضها البعض، يتراوح سمك الواحدة منها ما بين ١-٥ مليمتر، كل ذلك يجعل المرء يعتقد أنه يسير فوق أنظف بقعة في العالم. لقد كانت الرياح في بطن الوادي

هادئة على العكس من قمة التل ، حيث أثارت الرياح الرمال وزخات المطر ، وإلى الجنوب فوق جبال (جلدية) كانت السماء ملبدة بالغيوم القاتمة . حينما صعدنا التل شاهدنا فجأة في الواحة المقابلة بحيرة بيضاء كبيرة تحيط بها أشجار النخيل السوداء وتتوسطها حقول الذرة وآبار شبه متهدمة ومجموعة من المنازل المتناثرة ، وبرج للمراقبة بني فوق تل صخري ، تلك كانت بلدة بقعاء[٧٥] ومنطقة السبخة المحيطة بها ، بعد ساعة ونصف من المسير على امتداد حافة الوادي بدأنا بالنزول تدريجياً نحو السبخة التي تتخللها خطوط متقاطعة وغير ممهدة، بعضها للمشاة وبعضها الآخر للحيوانات، وإلى اليمين والشمال من تلك الخطوط الرمادية اللون كانت الأرض لزجة ، وقد كانت السبخة في هذا الوقت من العام عبارة عن مستنقع ملحي يخرج منه الملح نقيا كالثلج .



بقعاء

(٧٥) تقع على مسافة ٩٥كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حائل .

بينما كنا نريد قطع الطرف الشمالي من السبخة كاد أن تحصل لنا كارثة، حيث سقط جمل هوبر بسبب ضربه على حين فجأة مما جعله يصاب بالذعر، ويتجه نحو اليمين فانزلق وسقط على الوحل، ولم يسعدني في ذلك المشهد سوى أن الشواردي الكسول والأكول في الوقت نفسه اضطر للمشي على رجليه بعد أن كان طوال الوقت يمتطي الجمل رديفاً خلف هوبر. بدأ الطريق أمامنا يمتد بشكل مفزع دون أن نصل إلى منزل الشيخ عبيد ، وفوق ذلك فقد زادت حدة العاصفة وكانت الرمال المتطايرة تتحرك أشبه ما تكون بالعواصف الثلجية الشمالية، وأخيراً وبعد أن بدأت الأمطار تهطل وسقط جمل هوبر مرة أخرى وصلنا إلى منزل الشيخ عبيد، وفي الوقت نفسه وصل معنا مسافر آخر ذو ملامح تنم عن تحضر، وهو أحد التجار القادمين من بغداد أو السماوة[٧٦] ، وكان معه ثلاثمائة جمل محملة بالأرز ، مائتان منها للأمير والمائة الأخرى لأناس آخرين في حائل. أخذنا الشيخ إلى منزل الخطيب حيث المسكن المعد لنا، وعلى الرغم من أن الغرفة التي خصصت لنا كانت ضيقة ومنخفضة (حوالي ٦م طولا و ٢.٥م عرضاً) إلا أننا أصبحنا على الأقل في مأمن من العواصف والأمطار .

بينما كان الخادم محمود يعد لنا وجبة العشاء ذهبنا لتناول القهوة فقط في المكان المعد لاستقبال الضيوف. و في الليل وجدنا صعوبة في النوم في تلك الغرفة المغلقة ، خاصة بعد أن تعودنا أياماً متتالية على الحياة في الخلاء .

الأربعاء ١٨٨٣/١١/١٤ بسبب استمرار هطول المطر قررنا ألا ننطلق إلا بعد تناول طعام الإفطار ، و في حوالي الساعة الحادية عشرة انطلقنا و السماء ملبدة بالغيوم الممطرة . وحين ارتقينا الحافة الشمالية الغربية التي تحيط بمنطقة بقعاء شاهدنا أضواء رائعة حيث ظهرت أمامنا صحراء النفود في لون كبريتي فاقع ، في حين كانت ألوان السحاب الزرقاء فوق رؤوسنا تمتزج مع ألوان مجرات المطر الحمراء ليعطي كل ذلك تباينا غريباً في الألوان، يزيد من تأثيره تلك الظلال المتحركة، مما جعل الطبيعة التي تتسم عادة بالمنظر الواحد تبدو متنوعة

(٧٦) بلدة تقع على شط الفرات في جنوب العراق .

وغنية وممتدة إلى ما لا نهاية . لم تستمر تلك الألوان الزاهية أمامنا طويلاً، بل إن هبوب رياح الشمال أدت إلى تمزيقها، فأضحت تلك المنطقة الجرداء ذات لون رمادي لا معنى له .

على حين فجأة ظهر خلفنا ستة من عساكر الشيوخ الذين خصصوا لمرافقة قافلة الأرز، وحيث إن القافلة وصلت الآن إلى منطقة آمنة فلم يصبح لوجودهم معها ضرورة ، لذلك فإنهم أسرعوا عائدين إلى العاصمة، وبينما هم يمرون بنا مسرعين ألقوا علينا التحية، وسألونا إذا كنا نعرف شيئاً عن مصير حملة الغزو ، ولكن سرعة الريح منعت حدوث أي تفاهم بيننا ، فانطلقوا مسرعين واختفوا عن أنظارنا ، أما نحن فقد اضطررنا إلى مواجهة العاصفة الممطرة ونحن فوق جمالنا شبه المشلولة ، حيث أخذت مياه الأمطار تتدفق خلال المعاطف المطاطية إلى أجسادنا، وإزاء ذلك القدر الكبير من الأمطار المنهمرة لم يتمكن الشواردي من منع نفسه من القول المفعم بالأمل في أن الربيع سيكون مباركاً وكثير العلف (العشب)، فلم أستطع القول له سوى إن شاء الله .

عند الساعة الرابعة هدأ كل شيء ، وبعد نصف ساعة خرجنا من الطريق متجهين يساراً لكي نقيم مخيمنا ، وبينما كانت الرمال مبللة والسماء صافية أسرعنا بإشعال النار وتجمعنا حولها لتدفئة أعضائنا المتجمدة ، لكن السؤال هنا هو أين نجلس الآن، وأين ننام فيما بعد ؟ ولكننا سرعان ما أدركنا الحقيقة المفاجئة ، وهي أن الأمطار في تلك المنطقة لم تتعمق إلا إلى مسافة ١٠ - ١٢ سنتيمتراً في الرمال ، ومن ثم بدأ كل واحد منا يحفر لنفسه المكان الذي سيقيم فيه مستخدمين في ذلك المحماسة لإزاحة الرمل .

الخميس ١٨٨٣/١١/١٥ كانت الليلة باردة حيث وصلت فيها درجة الحرارة إلى ١٠م ، بالإضافة إلى أن كل شيء كان مبللاً ومغطى بطبقة سميكة من الطلّ (الندى). في الصباح تكونت على الأبسطة قطرات كبيرة من الماء ، وخلال ضباب الصباح الخفيف فاجأنا مجموعة من طيور الحَجَل[٧٧]، ولكن الشواردي فشل في اصطيادها بعصاه ، وحينما قمت بإعداد

(٧٧) طائر في حجم الحمامة ، أحمر المنقار والرجلين ، ولحمه طيب .

سلاحي لإطلاقه عليها كانت قد اختفت ، ولا شك أن حصولنا على مثل ذلك الطائر بعد ذلك الحرمان الطويل كان سيفيدنا كثيراً ، ولكن ما أزعجني أكثر من ذلك هو اكتشافي أنه لم يعد لدي ما أدخنه ، فقبل مدة وجدت ثقباً في كيس الشاور (التبغ) وقمت على الفور بوضع شريط لاصق عليه، ولكن أمطار الأمس الغزيرة تخللت عبر ذلك الشريط اللاصق، مما جعله يسقط تاركاً ذلك الثقب مفتوحاً لتتساقط ذرات التبغ منه دون أن أنتبه إلى ذلك ، ولأنني كنت عبداً للتدخين فقد أصبحت ذا مزاج سيئ ، ولكنَّ شعاعاً من الأمل لاح لي من جديد ، فقد اقتربت من خلفنا مجموعة من قافلة الأرز، وبعد أن كنت أستنكر أن يطلب مني البدو بعض التبغ لم أجد غضاضة في أن أحاول ممارسة فن الاستجداء بقدر من الثقة ، وقد نجحت حقاً في ذلك، فقد أعطاني أحدهم حفنة من الشاور (التبغ) الفارسي ذي اللون الذهبي الأصفر جلبه معه من الحلة[٧٨]، ومن شدة سروري أهديته سكيناً وملأت كيس دخاني تماماً بعد أن سددت الفتحة التي كانت موجودة فيه . كنا بالأمس قد مررنا على آثار بعض الإبل، أما اليوم فقد تزايدت تلك الآثار، مما يدل على أن الطريق مستخدم بكثرة، وهنا شاهدت جثتين لجملين ألقاهما الإيرانيون على جانبي الطريق، وهم في طريقهم إلى مكة ، وقد أكلت لحومهما الطيور الجارحة، أما جلودهما فلم تتأثر، وهنا طرحت سؤالاً على نفسي، أليس بإمكان المرء أن يستفيد من تلك الجلود الكبيرة ؟ في الحقيقة لم أر ولم أسمع حتى الآن سواء في الشرق أو الغرب عن استثمار المصانع لجلود الجمال ، ولكنني لا أدري فربما كنت مخطئاً .

مررنا خلال مسيرتنا ببئر الخاصرة حتى وقفنا عند جبلي الرميمينات، وهنا بدأت باستنساخ النقوش التي كتبت عليهما ، في تلك الأثناء مر مجموعة من أرباب قافلة الأرز مسرعين عبر المنخفض وهم ينشدون الأهازيج . وعند المساء وصلنا إلى غدير ملأته أمطار اليوم السابق . بينما كنت في هذه الأثناء أتحدث مع هوبر الذي كان يسير على يميني معلقاً ساقه اليسرى إلى الجانب ترجل محمود والشواردي لكي يكتشفوا أفضل موقع نعبر منه ، وعلى الرغم من أن الأمر لا يحتاج سوى إلى محاولة بسيطة لدفع الجملين إلى عبور الغدير إلا

(٧٨) بلدة في العراق .

أنهم قاموا بضرب الجمل الثالث الذي لم يكن مركوباً فاندفع مسرعاً إلى حد أنه عصر قدمي المجروحة بين قطعتين من الأمتعة مما جعلني أصرخ من شدة الألم، حيث تمزق جلد الإصبع الصغير كما تمزق اللحم حتى العظم، وقد كان ذلك أشبه بتدخل جراحي، ولكن اتضح لي بعد عدة أيام أن ذلك كان له أفضل الأثر في استعادة قدرتي على السير. ومع حلول الليل أقمنا معسكرنا في قارة الأسلاف بالقرب من شعيب الشقيق .

الجمعة ١٦/١١/١٨٨٣ اضطرتنا برودة الليل ورطوبته إلى الانطلاق قبل شروق الشمس، وسرعان ما قمت بنسخ بعض النقوش على جبل الصعليكة، ثم واصلنا السير بسرعة نسبية طوال اليوم زادت في آخر الأمر إلى حدّ أننا وصلنا حائل والجمال منهكة بعد غروب الشمس بقليل. تم إبلاغ عبدالله بوصولنا فوجدناه أمامنا في الحال، وزودنا ليس فقط بوجبة أكل، ولكن أيضاً بمجموعة من الأنباء المتنوعة والمتناقضة حول سير الغزو . لقد تسبب الجوع وفقدان الأكل الطيب في تذوقي للحم التيس ، ولكن الشيء الجيد حقاً كان هو الخبز البغدادي والتمر اللذيذ. وبعد أن قمنا بالاستحمام أصبح في وسعنا أن نستمتع في وقت متأخر بالراحة التي كنا نستحقها .

الإثنين ٢١/١/ ١٨٨٤ [٧٩] أخذت الأمور الآن سمة الجدّ ، فقد تم إحضار ثلاثة جمال أمام المنزل رغم أننا في الحقيقة نريد أربعة جمال، لأنها العدد الذي نحتاج إليه فعلاً، اثنان منها لهوبر ولي وثالث للخادم محمود ورابع للدليل حيلان، ولكن الحمدلله على كل شيء . على الرغم من أننا لم نأخذ معنا خيام أو أي معدات غير ضرورية ، فإن كل جمل كان يحمل بالفعل ما فيه الكفاية ، فإضافة إلى الراكب هناك المتاع والأبسطة والأغطية والملابس والأسلحة والمواد الغذائية وأواني الطبخ وقِرب الماء والحبال والعدة اليدوية والأدوية والكتب والسّلم المكون من أجزاء بطول ثمانية أمتار ، بالإضافة طبعاً إلى عدد من الأشياء الصغيرة الأخرى. إلى أن يحين موعد الرحلة تركت الجمال في فناء منزل مهجور، وحتى المساء كان لديها الكثير

(٧٩) يلاحظ القارئ أن ثمة قفزة تقدر بثلاثة وثلاثين يوماً سقطت من تسلسل هذه اليوميات وذلك لاعتمادنا على النسخة الألمانية المحررة حديثا ، وقد قرر المحرران عدم إدراجها من باب الاختصار .

من العلف ، وبعد ذلك اختفى كل ما لديها ، ولعل جيراننا الإيرانيين قد سرقوه، وبالمناسبة فلم تكن هذه الجمال هي تلك التي اشتريناها من عرمان ، ولكنها ثلاثة من جمال الأمير.

في المساء أرسل الأمير عبده ليستدعيني إليه بمفردي ، فذهبت إليه في غرفة الاستقبال، وكان معه حمود العبيد وسليمان وصالح الرخيص. بعد أن تم إعداد القهوة وإبعاد الخدم إلى الخارج بادر الأمير في سؤالي قائلاً أتعلم أن هوبر كان يتطلع إلى الذهاب بدونك إلى الحجر والعلا ، وأنه لزاماً عليّ أن أكون حريصاً، فتذكرت فجأة أنه قد تم سؤالي ذات مرة قبل أسابيع عند غانم صانع السلاح ، ومرة أخرى بعدها عند مجيد عما إذا كنت أفضل الاستغناء عن زيارة تلك الأطلال الأثرية ، وذلك ما رفضته دون تفكير لكونه لا يحمل أي معنى ، لذلك فقد أجبت الأمير وأنا مضطرب إنني لا أفهم ما يريده، واعتقاداً منه أنني لم أفهم الكلمات العربية أعاد حمود فحوى السؤال بطريقة أخرى فكان ردي لقد فهمت كلماتكم تماماً ولكنني لا أستطيع تصديق ذلك، إذ كيف يمكن أن يفكر هوبر في مثل ذلك ؟ لقد قمت بكل هذه الرحلة معه لغرض واحد هو زيارة تلك الأماكن ، أليس هو رفيق رحلتي ، بل ضيفي منذ البداية ؟ إنه سيظل هكذا حتى النهاية! فاكتفى الأمير بهز كتفيه ، وتركت القصر غير راض عما حدث، وحين عدت إلى منزلنا سألني هوبر عما كان يريده الأمير فلم أخف عنه شيئاً عما دار في الحديث ، ثم أضفت أنهم في القصر لن يفلحوا في بث بذور عدم الثقة والسخط فيما بيننا.

الثلاثاء ١٨٨٤/١/٢٢ في الصباح الباكر ذهب هوبر إلى الأمير وحصل منه على خطابات التوصية (من بينها أيضاً خطاب إلى شريف مكة) ، وحصل أيضاً على وعد بجمل رابع . ولقد اتضح لي فيما بعد أن حموداً الذي كان يعارضني سراً أراد إبعادي في أسرع وقت إلى دمشق أو بغداد . وفي حوالي الظهر خرج الأمير في غزوة ربما تكون في الشمال، وفي المساء قمنا بآخر ترتيبات الرحلة وحزمنا الأمتعة استعداداً للرحلة الشاقة والمفعمة بالآمال ، فماذا سيكون وراءها يا ترى ؟



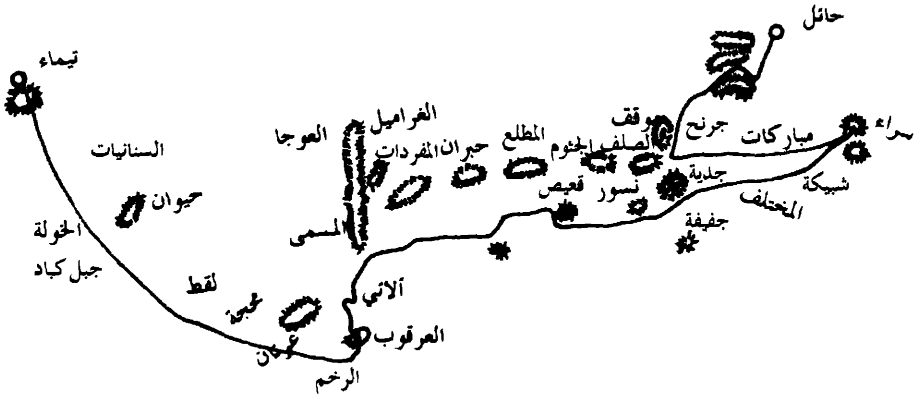
ساحة المسحب في حائل



من حائل إلى تيماء

الأربعاء ١٨٨٤/١/٢٣ لم أحظ ليلة البارحة بقسط وافر من النوم بسبب القلق والترقب، وبمجرد أن لاحت بشائر الفجر أخذت أمشي داخل الحجرات التي أودعت فيها تلك الصناديق العشرة والحقائب المملوءة بالمعدات والمدخرات اللازمة، والأشياء الثمينة ، والنقود الأوربية ، وجميع وسائل الراحة التي لن نحتاج إليها في رحلتنا القادمة ، لهذا السبب ستبقى في حائل إلى حين الحاجة إليها فيما بعد . كان من بينها بعض هدايا الأمير، وملابس المناسبات، والأسلحة، ورؤوس الوعول، وأشياء أخرى نادرة، ظلت معلقة على الحوائط التي قمت برسمها، وقد تم ترتيب المكان بشكل جيد، حيث يكون في مقدوري العودة بعد أربعة أو خمسة أو ستة أشهر - إن شاء الله - لأجد كل شيء في موضعه . في الفناء كانت أكياس الأمتعة التي سنأخذها معنا مكومة استعداداً لتحميلها ، فقد بقينا أياماً كثيرة نحسب كل ما يمكن أن نحتاج إليه من أمتعة ضرورية للرحلة ، وكنا أحياناً نستبدل شيئاً بشيء آخر، ونعيد فحص كل شيء مرات عديدة، حتى تأكد لنا أننا لم ننس شيئاً على الإطلاق ، فلماذا أعذب نفسي بالتفكير المستمر في أنني ربما أكون قد نسيت شيئاً ما يكون عدم وجوده فيما بعد ذا ضرر كبير؟ والآن هيا لنركب الجمال بغض النظر عن أي شيء ربما نكون قد نسيناه ، فقد أصبحت الآن مدفوعاً بالحاجة إلى القيام بأفعال حقيقية، كما أصبحت مستعداً لمواجهة جميع المشاق والمصاعب. كانت الجمال في الشارع باركة تجتر ، وحينما رأت الأمتعة التي ستحملها والتي من بينها سلم مطبق على بعضه البعض بطول ثمانية أمتار بدأت بالرغاء . كان السكان أثناء رحيلنا قد ذهبوا إلى الغزو ، لذلك لم يكن في وداعنا سوى عبدالله المسلماني وجيران المنزل الذي نسكن فيه. وحيث كان الجو بارداً كنت أدلك يديّ ببعضهما البعض من أجل أن أسخن نفسي، ولكن جارنا عمران لم يكن راضياً عما كنت أفعله ، فقد اعتقد أن ذلك جزء من صلاة النصارى، مما جعله يمسك بكلتا يدي ويفصلهما عن بعضهما البعض قائلاً :(يجب عليك ألا تفعل مثل ذلك، فما تفعله ليس عملاً جيداً) .

قام عبدالله بالسير معنا حتى بئر سماح الواقعة خارج المدينة ، وهناك ودع هوبر بعدد من القبلات الحارة ، أما أنا فلم يجد من الضروري أن يسلم علي حتى بيده . على أي حال بدأنا رحلتنا على الجمال الأربعة في اتجاه مائل نحو سلسلة جبال أجأ الطويلة ، وكان الدليل حيلان في المقدمة وبعده هوبر ثم أنا وأخيراً الخادم محمود ، وقد ظلت الرياح باردة خلال السهل واتسمت بالقوة وهي قادمة من الجنوب . وفي حوالي الظهر لاحت لنا من ناحية اليسار بلدة قفار[٨٠] الكبيرة التي قدر طولها بحوالي ثلاثة أكيال ، وحين خيمنا قرب سلسلة الجبال لشرب القهوة انتهزت الفرصة لكي أستكمل ملابسي بارتداء قميص أوروبي وسروال صوفي ، لكوني حتى تلك اللحظة لم أرتد سوى ثوب بدوي ومعطف وشماغ وعقال . كنا حتى ذلك الحين نسير في اتجاه الجنوب الغربي أما الآن فقد اتجهنا صوب الغرب والشمال الغربي نحو الصدع الجبلي الحاد المسمى السلف فوجدنا هناك غاراً يسمى الظلمة، ولكونه يوفر قدراً من الحماية أقمنا به ، حيث أوقدنا النار وفرشنا الأبسطة التي سننام عليها.



الطريق من حائل إلى تيماء

(٨٠) تقع على مسافة ١٠كم إلى الجنوب من مدينة حائل .

الخميس ١٨٨٤/١/٢٤ أدت برودة الليل إلى بناء طبقة من الثلج في ذلك الإناء المملوء بماء الشرب . بعد أن واصلنا المسير في الاتجاه نفسه لبعض الوقت يممنا صوب درب حجري حوله بعض النخيل متجهين نحو الجنوب الغربي صاعدين عبر ممر إلى ذلك المرتفع الذي أتيحت لنا منه رؤية منظرٍ بديع في الأسفل ، وعند مخرج الوادي اجتزنا شعيب الفتخة ، ثم ارتقينا تلاً رملياً يقع في مواجهة الجبل المسمى جرغ ، وقدكانت أرضه مغطاة بالورود المسماة تَرْبة ونبات العصنصل ذي الجذور الطويلة، وأخيراً وجدنا في سفح جبل جرغ خلف الكتل الصخرية مكاناً متذرياً عن الرياح أقمنا فيه معسكرنا .

الجمعة ١٨٨٤/١/٢٥ استيقظنا من النوم على مفاجأة جميلة ، فبدلاً من أربعة جمال لم نجد سوى اثنين منها ، فعلى الرغم من قيامنا بربط أرجلها اليسرى كالمعتاد ، إلا أنها تمكنت خلال الليل من المسير على ثلاث أرجل دون أن نلاحظها إلى مكان دافئ وسط الحشائش الوفيرة مما جعل دليلنا حيلان يستغرق ساعة كاملة في إحضارها . وخلال الليل بلغ سمك طبقة الثلج في آنية الشرب وداخل النارجيلة سنتيمتراً واحداً،كما تجمدت قِرَب الماء أيصاً. انطلقنا نحو الغرب في ظل رياح شديدة البرودة قادمة من الجنوب الغربي، وعلى مدى البصر خلف السهل بدأت تظهر لنا خطوط داكنة من الأشجار وبينها بعض البيوت البيضاء ، كانت تلك هي قرية موقق[٨١] محطتنا هذا اليوم، ولكن الطريق إليها طال أكثر من المتوقع، حيث لم نصل الى المنازل إلا بعد أربع ساعات ونصف من المسير ترجلنا بعدها أمام منزل الشيخ بركة ابن مريِّم .

نظراً لأن الجمال لم تتمكن من المرور بأحمالها من خلال البوابة فقد اضطررنا إلى النزول وإنزال الأحمال عنها. وفي أثناء وصولنا تقريباً وصل من الجهة الأخرى بعض العساكر من بينهم عُنيبر الذي كان يبدو عادة متعالياً في حين ظهر اليوم بمظهر المتواضع ، وهم راجعون من مهمة لم يكتب لها النجاح ، حيث أرادوا بالاشتراك مع محمد بن عطية جمع الضرائب من

(٨١) تقع على مسافة ٧٥ كيلاً باتجاه الغرب من مدينة حائل .

القبائل الغربية، ولكنهم بعد أن جمعوها تعرضوا لهجوم مفاجئ من قبل أفراد قبيلة الحويطات وبني صخر وسلبوا منهم كل ما جمعوه ، وفي هذه الأثناء فقد عنيبر معطفه الأحمر الذي كان يزهو به، واضطر الآن للاكتفاء بملابسه البدوية العادية. وبعد أن تمت تحيتنا، وقدمت لنا القهوة والتمر والزبد أردت ممارسة الرسم، ومن ثم تفقد القرية عن كثب . كان عدد سكان بلدة(موقق) يتراوح في السابق ما بين ٥٠٠٠ - ٧٠٠٠ نسمة ، ولكنهم اضطروا بسبب مرض الطاعون والكوليرا إلى هجر البلدة ، فلم يتبق منهم الآن سوى ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ نسمة على أقصى تقدير، وقد كانت المنازل والبساتين تمتد في قطاع ضيق من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي لمسافة مدتها ٤٥ دقيقة، إضافة الى مجموعة أخرى من البيوت وأشجار النخيل وآبار المياه التي تمتد أيضاً متدرجة نحو الغرب. وفي الجزء الشمالي الشرقي يوجد الكثير من أشجار الأثل القائمة في صفوف منتظمة وأمامها مساحات خضراء كانت في الماضي عبارة عن بساتين محاطة بأسوار زال معظمها الآن ، أما المنازل القديمة التي لا تحظى بعناية كافية فقد تأثرت بشكل ملحوظ بالأمطار التي هطلت مؤخراً .

حينما رجعت من جولتي وجدت منزل الشيخ قد اكتظ بالزوار، أما جمالنا التي وضعت في الفناء فقد مسحت ميامن رقابها وأفخاذها بالدماء ، وذلك للإعلان بأنهم قد ذبحوا ذبائح تكريماً للضيوف . كان الفضوليون يتدفقون داخلين إلى القهوة وخارجين منها ، بعضهم أراد مشاهدتنا، وبعضهم الآخر أراد التعرف على معلومات أكثر من جامعي الزكاة الذين تعرضوا للنهب . في المشب (الوجار) كانت تتلظى خمس قطع كبيرة من خشب الأثل. كان من بين جماعة عنيبر أيضاً شخص يدعى نومان ، وهو من وجه إليه الأمير التعليمات لكي يرافقنا في رحلتنا المزمعة من تيماء إلى تبوك وبالعكس ، ولو قدر لهذا الشخص أن يرتدي ملابس أوربية (قميص + بنطلون) لأصبح شبيهاً لصانع حذاء بيتستي(٨٢) . وهو في حقيقة الأمر لص وسارق إبل محترف ، وليس من ملامة على أفراد قبيلة بلي حين يخشون أمثاله ، فقد قام قبل عامين

---

(٨٢) نسبة إلى Pietismus ، وهي حركة دينية بروتستانتية نشأت في القرن السابع عشر الميلادي وتدعو الى التشدد في تعاليم الدين النصراني .

بسرقة ذلول منهم وأهداه إلى الأمير في حائل ولكنه رفض تلك الهدية ، فقام ببيعها في العاصمة مقابل ٤٤ مجيدياً (حوالي ١٥٠ماركاً) . ويبدو أن الملابس الرثة التي يرتديها اليوم تهدف إلى إثارة الشفقة عليه حين رجوعه إلى حائل ، ولكي يقنع الأمير بتزويده بملابس جديدة ، ولكنه رغم فشله المبدئي في تحقيق مراده - إذ إن عليه أن يغير وجهته في الصباح ويرافقنا نحو الغرب من حيث جاء - فإنه لم يكن في حاجة إلى الشكوى فقد وجد مـراده لدينا أيضاً.

في ساعة متأخرة من الليل تم إحضار العشاء من بيت الشيخ إلى القهوة ، وفي هذه الأثناء قام أحد الخدم بإنارة الطريق أمامه بعسبان النخيل المشتعلة ، كان العشاء يتكون من الرز وفوقه الذبيحة برأسها وقلبها وكبدها ورقبتها ، وأثناء الأكل كانت السعفة المشتعلة كلما كادت تنطفئ يتم إشعال أخرى غيرها ، وفي الختا م جاءت القهوة مرة أخرى ، وبعد أن اكتفيت من الطعام قمت بإعداد فراشي في الزاوية القريبة ، وغرقت فوراً في سبات عميق دون أن أتأثر بالحديث الذي كان لا يزال دائراً.

السبت ١٨٨٤/١/٢٦ قبل انبلاج الفجر تزايدت حدة أصوات الداخلين والخارجين مرة أخرى ، وفي حوالي التاسعة قمنا بتوديع أهالي موقق واتجهنا من جديد نحو جبال أجأ صوب الجنوب الشرقي ، وقد كان حيلان ونومان يتبادلان الركوب في المقدمة خلال السهول . وإلى اليسار كان يوجد أمامنا جبل مكيسر وهو بقايا بركان خامد وسط الدريجة ، ثم إلى اليمين شاهدنا الطوال البيض ، وهي عبارة عن سبعة أعمدة حادة من البازلت ، وقد ذكرتني بأعمدة كليمونت في فوقيسن[٨٣] . ثم سرنا صاعدين مدة ثلاث ساعات خلال شق جبلي مليء بالبازلت والجرانيت إلى مرتفع مسطح توجد فيه مقبرة لقبيلة الدغيرات ، وبعد نصف ساعة انخفض المرتفع نحو الشمال الشرقي، وبدأت الجبال تبتعد عن بعضها البعض، وقد أصابتنا دهشة شديدة حين أدركنا أننا قد تجاوزنا سلسلة جبل أجأ، ووصلنا بالفعل إلى السهل

(٨٣) منطقة جبلية في غرب ألمانيا .

العريض المرتفع جنوباً بين سلاسل جبلي أجأ وسلمى. نزلنا قبل ساعة من الغروب قرب هضاب المباركات. وهناك بدأت أبحث عن بعض الأحجار المميزة ، حيث تمكنت من إحضار بضع قطع جميلة من الكريستال الجبلي والصخور الخشنة الملونة . كانت الأرض خصبة معشبة بواسطة نبات دائم الاخضرار يسمى الكالخ ذا طعم مرّ لا تأكله الجمال ، وحين عدت إلى المخيم كان حيلان قد جلب مياهاً نقية، حيث قام محمود بإعداد الوجبة البسيطة، وقد جلسنا خلف الحطب الذي كومه نومان كما لو كنا نحتمي خلف أحد الأسوار، وتحدثنا حديثاً شيقاً حول النار المشتعلة ، كما كنا نسمع طوال الليل البوم وهي تترنم بأصواتها الحزينة .

الأحد ١٨٨٤/١/٢٧ ركبنا عبر السهل في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، حيث كان ينمو على تلك الأرض الرملية التي يتخللها عدد كثير من الهضاب الجبلية (الضلعان) ذات الأحجار الكوارتيزية نبات الكالخ الذي ذكرناه سالفاً ، ونبات آخر يأكله البدو ويسمى الرُّبحلاء ، إضافة إلى ذلك وجدنا أعداداً كثيرة من الفقع ذي الطعم اللذيذ الذي ينمو في الصحراء خلال فصل الربيع ، حيث تبدأ رؤوسها باختراق الرمال لتنبئ عن نفسها ، بحيث لا تختفي عن عين مدربة كعين نومان الذي يراها من بعيد والذي استطاع أن يجمع منها ما كان كافياً لإشباعنا ، وهي تأخذ من الخارج لوناً رمادياً يميل إلى الحمرة وكأنها رشت بمسحوق القرفة ، أما من الداخل حيث اللب فهو أبيض اللون ولذيذ الطعم، وقد كان نومان يمدها لنا ونحن راكبون على ظهور الجمال، فنأكلها نية دونما أي إعداد . ظللنا اليوم نسير طوال أربع ساعات، حتى ظهر أمامنا جبل سراء، وكلما اقتربنا منه ازدادت الحفر والآبار المليئة بالماء والمساحات الخضراء، مما اضطرنا لضرب الإبل، كي تحث المسير خلال الطريق ذي الأعشاب الوفيرة . كانت الساعة تقارب الثالثة حينما نزلنا وتركنا الجمال بعد إنزال أحمالها ترعى في تلك الجنة الجميلة وضربنا معسكرنا في الرمال على حافة الشعيب الواقع بين هضبتي جبل سراء الذي يسير ماؤه من الغرب إلى الشرق، وبطنه مكتظ بأحجار الحصباء الخشنة وذات الأحجام المختلفة، وحيث أدت أمطار الشتاء إلى ملء العديد من الحفر بالماء استحم الخادم محمود في واحدة منها ليست عميقة ، وهناك حيث يسير الشعيب

باتجاه الهضبة الجنوبية استطعت أن أنسخ مجموعة من النقوش العربية القديمة وبعضاً من رسوم الحيوانات المختلفة ، وقد شاهدنا في الرمال هناك آثار أقدام ذئب وحدأة ، كما تناهت إلى مسامعنا أثناء الليل أصوات نعيق البوم من خلال الشقوق الصخرية .

الإثنين ١٨٨٤/١/٢٨ صعدنا اليوم القمة الشمالية للجبل، وهناك تركنا حيلان يخبرنا بأسماء الجبال المحيطة ، كما قمت برسم المنظر على الجهتين الشرقية والجنوبية الشرقية، ولم ننطلق من جبال سراء إلا في الواحدة ظهرا متجهين الى الشمال الغربي ، وبعد ساعتين من المسير مررنا بأشجار النخيل الواقعة في بطن وادي الشبيكة ، وفي تلك اللحظة بدأت ذلول محمود تعرج . وبينما كنت أراقب الدابة من الخلف ذكرت لهم أنه ربما حدث التواء في عظم فخذها الأيمن الذي بدأ يظهر عليها التورم، وبعد برهة اقتنع الآخرون بتشخيصي، ولكي نريحها ونحافظ عليها أقمنا المخيم في أقرب بقعة مناسبة من شعيب الشبيكة، وفي المساء سقطت بضع قطرات من المطر .

الثلاثاء ١٨٨٤/١/٢٩ ظلت الناقة المصابة تسير طوال اليوم معنا بدون أحمال، حيث وزعت أحمالها على ناقة حيلان وناقة هوبر وناقتي. أخذنا نقترب تدريجياً في ظل رياح جنوبية ثلجية من سلسلة جبال أجأ ، و بينما نحن نتجاوز عدداً من الجبال المكونة من أحجار الكوارتز تنبه لنا عقاب وحدأة، فانطلقا إلى السماء، وهما في حالة ذعر. وحينما وصلنا وادي المختلف أقمنا المخيم، وهو يبعد مسيرة ساعتين تقريباً جنوب المخيم الذي أقمنا فيه يوم ٢٦ يناير. وهذا الوادي يمثل الحدود بين عشيرتي الدغيرات في الشمال والعمود في الجنوب. لم تكن الأعلاف هنا جيدة، بل كانت الأشجار تغلب عليها ، لذلك لم تأكل الناقة المريضة شيئاً، وبركت دون حراك ، وبينما كان حيلان ونومان يقومان بإعداد مرهم خاص مكون من الشعير والملح وبول الناقة لدهن فخذها، صعدت أنا وهوبر الى قمّة صخرية ناحية الشرق، ولكننا لم نحظ من هناك بالمنظر الذي كنا نتوقعه . لم يكن مع حيلان العجوز ما يتغطى به أثناء الليل سوى ثوبه ومعطفه وشماغه مما جعله يرتعش من البرد ، لذلك أعطيته قطعة من الصوف ليتدثر بها ، رغم أنني كنت أعرف أن جزاء ذلك سيكون عدداً كثيراً من القمل الذي سيتركه فيها .

الأربعاء ١٨٨٤/١/٣٠ كان البرد خلال الليل قارساً جداً إلى حد أنني لم أحس بالدفء حتى الصباح، وبينما كان الصباح ينشر أضواءه رأيت مشهداً تمثيلياً عجيباً، حيث قام حيلان العجوز من منامه فضرب الذلول لتنهض من مكانها وتمدد هو في مكانها الدافئ. وفي الأمس أطلعنا حيلان على تلك التورمات في مفاصل قدميه، وفي الحقيقة أنني لم أر مثلها في حياتي قط ، فقد كانت ترتفع إلى حوالي السنتمتر الواحد ، وملمسها خشن كقرون الحيوانات ، وقد كان دوماً يشتكي من التشققات الكثيرة والعميقة في بطن قدميه التي لا يريد معالجتها رغم شكواه الكثيرة من الآلام التي تسببها له، مما جعل محموداً ينصحه جاداً بأن عليه أن يملأها بالقمل وحين ذاك سيعافى منها. بعد أن تجاوزنا وادي المختلف ظهر أمامنا منظر شاعري للجبال الممتدة بعيداً ، فإلى اليمين كان يقع جبل الحوشان بقمته المخروطية الشكل والمكونة من حجر البازلت، وخلفنا جبل الدريجة ، وأمامنا ثلاثة جبال مخروطية الشكل، وعلى مسافة إلى الأمام كنا نشاهد جبل الجديّة .

بعد أن اتجهنا أكثر نحو الغرب وعبرنا خلال الجانب المنخفض لأحد الجبال وصلنا إلى السهل الممتد الذي لم يكن فيه ما نحتمي به من العاصفة التي أثارت سحب الغبار مما جعل الظلام يسود الأفق، بحيث لم نتمكن من رؤية شيء سوى قمتي جبل النسور، لذلك شعرنا بالسرور حين بلغنا البيوت القليلة التي تتكون منها قرية (جُفيفة) ، حيث وجدنا هناك الحماية خلف أسوارها من تلك الرياح القوية . وكان معظم أهالي القرية تقريباً يقفون فوق سطح منزل الشيخ عثمان بن دواس، ومن بينهم بعض النساء غير المحجبات، لكي يشاهدوا وصولنا، أما داخل المنزل فوجدنا هناك ثلاثة رجال يجلسون حول النار أزحناهم بعيداً عن الأماكن الجيدة وجلسنا حول النار ، كانت القهوة أرحب منها في قرية موقق، إلا أن الشيخ كان أكثر بخلاً ، كما أنه لم يعرف تماماً كيف يتصرف معنا ، حيث قام في البداية بتقديم القهوة للضيوف الثلاثة الذين كانوا موجودين قبلنا، مما اضطر هوبر إلى أن يقول له: يبدو أن الشيخ لا يعرف أي ضيوف نحن ! وعلى الفور جاءت دلة قهوة أخرى فصب لنا منها قبل ضيوفه الآخرين ، علاوة على ذلك فقد عمل لنا القهوة الطازجة خمس مرات متتالية خلال الفترة ما

بين الرابعة والسابعة مساء ، بعد ذلك أحضر العشاء المكون من لحم الخروف المعالج بفلفل حار تعافه النفس ، وتحته طبقة غليظة من الخبز ، ولم يكن معه أرز أو تمر . ولكي أشبع جوعي ذهبت إلى الغرفة الأمامية المظلمة في الخارج عند الخادم محمود لآكل حفنة من التمر الذي أحضرناه معنا ، ثم تمددت على الفراش للنوم دون أن أحاول مجرد التفكير كم من القمل يا ترى يحتضن جسمي .

الخميس ١٨٨٤/١/٣١ كانت البرودة قاتلة في الخارج، كما كان الضباب كثيفاً والطقس سيئاً على العموم . ويجب أن أعترف أنني أفضل البقاء اليوم في مكان يحميني من تلك الأجواء السيئة ، علاوة على ذلك فإن من الضروري لنا قبل بدء مسيرتنا اليوم استئجار جمل آخر، لذلك ركب حيلان ونومان خلف بعضهما البعض في محاولة لإحضار جمل من البدو الذين يرعون في مكان قريب منا . وبعد بضع ساعات عادوا برفقة شخصين من قبيلة العمود ليعرضوا أمامنا جملين ، الأول هزيل وغير صالح ، أما الثاني فقد استأجرناه مع مالكه المدعو شفق، ولكننا بسبب تزايد شدة هبوب الرياح الغربية قررنا البقاء اليوم في القرية، ومن ثم أصبح لديّ وقت كافٍ لإعداد يومياتي، وتنظيمها ولرسم المناظر الخارجية للمكان.

كانت نخيل البلدة لا تزال قصيرة، حيث غرست في آخر سنة من حكم طلال أي في عام ١٨٦٣[٨٤]. وقد رأيت في الفناء محراثاً بدائياً، أما جدران المنزل فكانت مبنية من الطوب الطيني (اللبن) المصفوف فوق بعضه البعض بشكل مائل، وعلى أحد الأوتاد المضروبة في الجدار علق دلو مصنوع من الجلد يحيطه إطار من الخشب ، وهو يستخدم كإناء تشرب منه الإبل ، أما على الأرض فقد نصب هاون (مهراس) ذو لون أصفر يميل إلى الحمرة، يستخدم لطحن الحبوب، جلب في الأصل من منطقة القصيم . في المساء قام محمود بإعداد طعام العشاء لي ولهوبر ، في حين تولى الشيخ عثمان تقديم العشاء للآخرين. أما شفق الذي انضم إلينا تّواً فقد كان يدخن غليونه المحشو ليس بالتبغ الذي لا يستطيع الحصول عليه ، وإنما بجلة

(٨٤) الصواب أن حكم طلال بن رشيد استمر إلى أن توفي عام ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٨م .

الإبل (فضلات الإبل) ! أين أنت يا شلاجدن هوفن ، فلو رأيت ذلك لما تركت القيصر رودلف فون هابسبرج[٨٥] يدخن أوراق شجر اللوز .

لم يكن شفق شارب دخان فقط بل شاعراً أيضاً، ومن شعره المرتجل الذي يشكو فيه وضعه المزري ما معناه (أوه ما أقسى هؤلاء الرجال من رفاقنا ، هم يدخنون التبغ، وأنا أدخن روث الجمال)! بهذه الكلمات التي أثارت عواطفنا قمنا بمناولته على إثر ذلك بعض التبغ، مما أشعل حماس شاعريته من جديد، فذهب يرتجل شعراً لم أفهم منه سوى أنه كان من خلال قصيدته تلك يهجو عساكر الأمير الذين تعرضوا قبل مدة لسطو من قبل أفراد قبيلة الرولة، واستمرت بعد ذلك أحاديث الشباب حول النار إلى منتصف الليل، أما أنا فاستلقيت لأنام نوماً غير مريح بسبب نفاذ رذاذ المطر إلى وجهي من خلال فتحة في الحائط .

الجمعة ١٨٨٤/٢/١ لقد أصبح من المستحيل أن نسحب معنا طوال الوقت تلك الناقة المعشر[٨٦] والمصابة بفخذها ، هنا بادر شيخ جفيفة عثمان بالقول: إن المرء لا يمكنه عمل شيء مع هذه الذلول سوى ذبحها، فعرض مقابلها مجيديين (حوالي سبع ماركات)، كما أنه اتفق من وراء ظهورنا مع حيلان العجوز على أن يعطيه ٣ مجيديات إذا تمكن من إقناعنا بقبول الصفقة، ولكننا لم نكن بهذا الغباء، فقد كنا متأكدين من أن الشيخ لن يذبحها، بل سيستخدمها في إخراج الماء من البئر حتى تلد ما في بطنها، حيال ذلك لم يكن في وسعنا سوى إلقاء المسؤولية على شفق، إذ عليه أن يأخذها إلى أقرب بدوي في الطريق ويضعها عنده، وحين عودته إلى جفيفة يأخذ الناقة معه . وعندما انطلقنا في حوالي الساعة التاسعة متجهين نحو الغرب لحق بنا الشيخ عثمان ، حيث أراد مفاوضتنا من جديد حول الناقة ، ولكننا رددناه وبقينا على قرارنا الذي اتخذناه من قبل. وبينما نحن نسير مررنا بمنطقة غنية بالعلف ، ثم ارتقينا عند الساعة الثانية قمة إحدى الهضاب التي كان من المفترض أن يوجد خلفها مخيم للبدو، ولكنهم كانوا قد نزحوا في اتجاه الشمال الغربي ، مما جعل حيلان يستغرق ساعتين للبحث عنهم دون أن يوفق في العثور عليهم .

(٨٥) أحد القياصرة الألمان ولد عام ١٢١٨ م ، وأصبح ملكاً في عام ١٢٧٣ م ، وتوفي سنة ١٢٩١م .

(٨٦) المعشر من النوق هي التي مضى على حملها عشرة أشهر وقيل ثمانية .

بدأت الشمس تميل نحو الغروب قبل أن نصل إلى مكان البدو، فأقمنا المخيم في السهل المفتوح قرب جبل القعيص، وهو مكان لم يتح لنا حماية جيدة ضد الرياح التي تسللت إليَّ ليلاً من خلال الغطاء .

السبت ١٨٨٤/٢/٢ كنا نسمع نباح الكلب أثناء الليل البارد الذي أدى إلى تكون الثلج بكثافة، وفي الصباح الباكر سمعنا أصواتاً بشرية ، ولكننا لم نشاهد أحداً. وبعد أن تناولنا طعام الإفطار المكون من أرز بارد متبق من يوم أمس، وشربنا كأساً دافئة من الشاي، انطلقنا للبحث عن البدو ، ومن فوق إحدى الهضاب شاهدنا في البداية بعض الماشية، ثم بعض الجمال (٢٥ جملاً)، وأخيراً شاهدنا تسع خيام، وحينما اقتربنا من الخيام لم يخرج إلينا سوى النساء والأطفال، أما الرجال فقد ظلوا مختفين في الخيام خوفاً من إكرامنا. في حوالي التاسعة والنصف نزلنا عند أكبر تلك الخيام فاضطر صاحبها إلى الخروج ، ومن ثم قدم لنا الحليب، بينما قام الخادم محمود بإعداد القهوة، وحيث إن هؤلاء قاموا عند العاشرة بذبح ذبيحة لنا أصبح لدينا مهلة لنستريح طوال اليوم، لذلك ذهبت إلى إحدى الهضاب لأكوِّن تصوراً عن المنطقة، ولقد وددت لو أنني رسمت منظراً لصحراء النفود الرملية ولجبلي المسمى والعوجا، إلا أن الرياح الشديدة أفسدت تلك الرغبة ودفعتني إلى العودة مسرعاً، وقد شاهدت هناك آثار ضبعة على أرضية أحد الغيران المكونة جدرانه من أحجار الكوارتز.

الأحد ١٨٨٤/٢/٣ انقضت أبرد ليلة قضيتها في جزيرة العرب، حيث أشار مقياس الحرارة إلى درجة ٥م تحت الصفر ، لذلك فإنني أنصح كل مسافر إلى الصحراء أن يحمل معه معطفاً طويلاً من الفراء وكيساً للنوم ، أما البدو فلهم قدرة مدهشة على تحمل تلك البرودة، خاصة وأن أطفالهم كلما صغر سنهم قل ما يرتدونه من ملابس . ورغبة منا في تدفئة أجسادنا جعلنا محموداً يعمل لنا شراب الشوكولاتة السائل . أما شفق الذي سيعود بعد مدة مع جمله الذي استأجرناه منه فقد لفتنا انتباهه إلى أن يحرص على الناقة التي تركناها في جفيفة. لقد

ظل الجمل الذي زودنا به شيخ جفيفة عثمان، كي نحمل عليه بعضاً من أمتعتنا الكثيرة حتى نصل إلى أقرب مخيم بادية على الطريق هائجاً يصول ويجول كالمجنون، رغم أننا ربطنا قدميه الأماميتين بحبل قصير ، وأصبح والزبد يخرج من شدقيه والهدارة تمتد أمام فمه يرغي بصوت مخيف ومفزع .

انطلقت مسيرتنا لنصل بعد وقت قصير إلى النفود حيث الرمال المتطايرة أمامنا ، وقد شاهدنا هنا آلافاً من حشرات اليسروع[٨٧] الحمراء ميتة تغطي الأرض وكأنها جثث سوداء، علاوة على ذلك أخذت بعض الأشجار ذلك اللون الحزين نفسه. وبعد أن تناولنا القهوة في حوالي الثالثة ظهراً انطلقنا إلى أن وصلنا بالقرب من جبل الوريك، حيث وجدنا هناك مخيماً لقبيلة عنزة في حالة يرثى له، ذلك أنه باستثناء نعاجهم لم يكن لديهم سوى الحمير وقليل من الإبل ، وكان العلف الأخضر والأقط موضوعين فوق الخيام لتجفيفهما ، وقد أدت غفلتنا إلى عدم اكتشاف مكان خيمة الشيخ، مما جعلنا ننزل باستضافة شخص مسكين. عادت الماشية قبيل الغروب حيث تم حلبها ، وبدأت النسوة بعملية فصل اللبن عن الزبد (خض اللبن)، حيث بدأ ذلك بصب اللبن في قربة ، ثم نفخها عن طريق الفم بالهواء ثم تحريكها ذات اليمين وذات الشمال، وكان بعضهن يعلقن القربة في حبل متدلي من حامل ذي ثلاث أرجل[٨٨] ويحركن القربة بسرعة متناهية إلى الأمام وإلى الخلف . قاربت الساعة الثامنة، وكدت أصاب بالإغماء من شدة الجوع ، إذ إنه لم يدخل بطني أي شيء منذ أن شربنا ماء الكاكاو وبعض القهوة في الصباح، وأخيراً وجدت خلف الأمتعة كيس التمر، فأخذت منه قطعة كبيرة، والتهمتها مضيفاً إليها عدداً من أوعية الخشب المملوءة باللبن .

في الساعة العاشرة والنصف جاءت الوجبة المنشودة، و المكونة من الأرز ولحم الضأن ، وقد أكلت كثيراً إلى الحد الذي جعلني أخجل من نفسي، وخلال الحديث الذي دار بعد العشاء سألتهم عن كيفية وصول هذا الفرع من قبيلة عنزة التي تعتبر من أشد أعداء قبيلة شمر إلى

(٨٧) دويبة صغيرة رأسها أسود وسائرها أحمر .

(٨٨) تسمى القَتَّارة .

هذا المكان وسط أراضي شمر ، وعلمت أنهم كانوا يستوطنون فيما مضى بالقرب من خيبر أثناء احتلال الأتراك لها ، ولكنهم بعد فترة قصيرة خَشَوْا أن يستعيد ابن رشيد خيبر من جديد، لذلك أعلنوا طاعتهم للأمير الذي أعطاهم تلك المنطقة قرب جبل المسمى ليرعوا فيها مواشيهم، ولكنهم لا يزالون يملكون بعض أشجار النخيل في خيبر. لقد اشتريت منهم هراوة (عجراء)، وهي عبارة عن عصا من الخشب الصلب مثبت في نهايتها حجر دائري من الكوارتز ومثقوبة في وسطها، ويقارب الحجر في حجمه التفاحة.

الإثنين ١٨٨٤/٢/٤ وجدنا بعد نصف ساعة من المسير مخيماً آخر للبدو فنزلنا ضيوفاً عليهم لكي نفاوضهم على تأجير إحدى نوقهم لنا حتى تيماء، وحيث تبين من مضيفنا أنه لن يقدم لنا سوى وجبة العشاء، قام محمود بإعداد وجبة حقيقية لنا مكونة من القهوة والأرز مع عصيدة رقيقة وخبز، وتركنا ما بقي منها للنساء .

قررت أن أتسلق إحدى قمتي جبل الوريك ، فظللت طوال ساعة أخوض في رمال بيضاء حتى وصلت إلى سفح الجبل، حيث المنطقة الحجرية التي سرني الوصول إليها، ولكنني وجدت صعوبة بالغة في تسلق الجبل، لكون أحجار الجرانيت والكوارتز التي يتكون منها ذات أسطح ملساء وكأنها مضروبة بالورنيش ، وحينما اقتربت من القمة وجدت أرنباً كدت أمسكها في يدي، وبينما كنت أتسلق الجزء الأخير نحو القمة جاء ثلاثة من الرجال يمتطون الجمال ممسكين برماحهم ، فوجهوا إلي نداء قائلين (يا رجل ، يا رجل)، ولكنني لم أرد عليهم ، فانصرفوا مواصلين سيرهم ، ومن فوق القمة قمت برسم منظر شامل لجبلي المسمى والعوجا، كما شعرت بسرور ممزوج بالدهشة حين لمحت في الأفق الشكل المميز لجبل أم سلمان قرب جبة بلونه الأزرق الفاتح ، وحينما رجعت إلى المخيم كنت أشعر بعطش شديد ازداد من حرارة الشمس التي وصلت إلى ٢٠م في ظل الخيمة .

الثلاثاء ١٨٨٤/٢/٥ بلغت درجة الحرارة في الصباح الباكر درجة واحدة تحت الصفر، وبعد أن شربنا الشاي جاء حيلان ونومان اللذان خرجا للبحث عن ناقة للتأجير، وعادوا

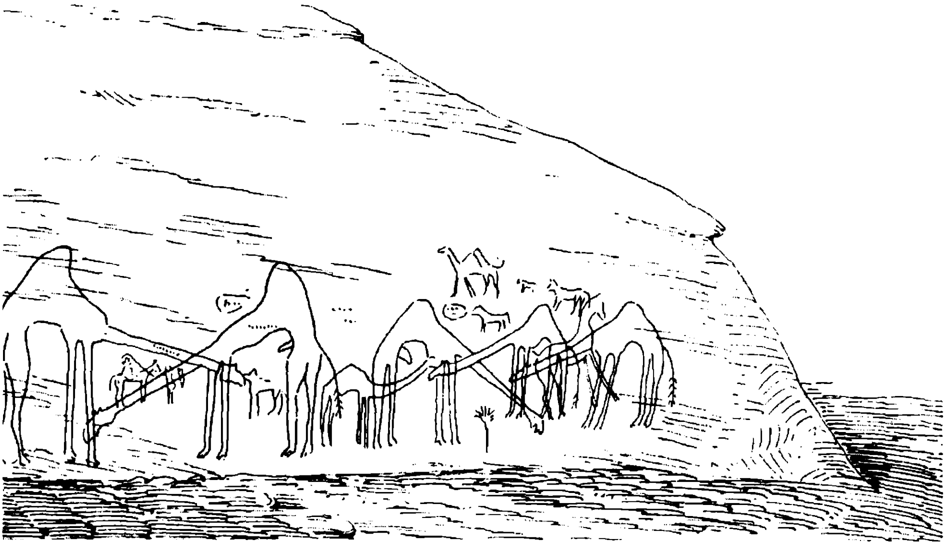
ومعهم أحد البدو الذي أخذ يشكو من إجبارهم إياه على تأجير ناقته حتى تيماء، ولم يهدأ حتى أعطيناه نقوده . وهكذا ركبنا الإبل واتجهنا خلال منطقة حجرية نحو جبل المسمى وعلى الفور اضطررنا أن ننحرف جانباً نحو النفود، لكون مرافقينا من البدو سمعوا أن معركة جديدة ستقع في المنطقة الواقعة أمامنا، وبعد أربع ساعات تقريباً وصلنا إلى مجموعة من خيام عشيرة فضيل من العواجي وهم أحد فروع ولد سليمان من عنزة ، وقد كان الجميع على استعداد لتقديم العون وجلبوا لنا الحطب والماء، ولكنهم ظلوا يطلبون منا التبغ دون توقف، أما أطفالهم حتى سن العاشرة فكانوا شبه عراة ، ولم يرتدوا سوى حزام يتدلى منه خصلات من الجلد بعضها مزين بقطع العظام ، وكان واحد منهم يعلق على حزامه منقاشاً قال لي: إنه يخرج به الأشواك التي تعلق في قدميه ، وقرب الخيام كان هناك طائران جارحان يحومان، قيل لي: إنهما من فصيلة الحدأة.

قدم لنا قبل غروب الشمس وجبة دسمة ، ولم يخجل حيلان ونومان من وضع قطعتين من اللحم جانبا كمؤونة لنا ، حيث حملهما نومان تحت معطفه وانصرف وكأنه راهب شحاذ . أما درجة الحرارة ليلاً فلم تكن بمثل البرودة في الليالي السابقة .

الأربعاء ١٨٨٤/٢/٦ ودعنا مضيفينا في حوالي الساعة التاسعة ، وكان طريقنا يمر عبر منطقة جرداء من الحجر الرملي ، ليس فيها سوى القليل من العلف، وسهولها تكثر فيها النقر المملؤة بالماء التي يصل قطرها إلى أكثر من مائة متر ، ورغم وفرة الماء هنا فلم تبد الجمال التي لم تشرب طوال أربعة عشر يوماً متتالية رغبة في الشرب ، فعلى الرغم من أنها تتبول في اليوم عشر مرات، في كل مرة مدة دقيقتين، إلا أن رطوبة العلف الأخضر الذي تتغذى عليه كان كافياً لارتوائها، ويظهر أن جلودها لا تسمح بتبخر الماء من خلالها . كانت جبال المسما الممتدة أمامنا بتفرعاتها الخلابة تزداد وضوحاً كلما اقتربنا منها . وفي أثناء الطريق شاهدت هناك في الشعاب الواقعة عند سفح جبل البهيم مجموعة من الأشجار المتناثرة ذات أوراق تشابه في شكلها أشجار التوت، وإلى الغرب منها في مكان يسمى ألائي وجدنا مجموعة من النقوش النبطية وأخرى عربية قديمة، ترافقها بعض الرسومات الصخرية البدائية لبعض أشكال

الحيوانات ، وفي هذا المكان المحمي نسبياً أقام حيلان ونومان المخيم، أما نحن فقد استفدنا من ضوء النهار المتبقي في نسخ النقوش .

الخميس ١٨٨٤/٢/٧ بقينا طوال اليوم مشغولين بنسخ النقوش ورسوم أشكال الحيوانات المتناثرة في كل مكان فوق الصخور ، وقد كنا نستريح هناك في تجويف صخري بين العرقوب ومسقط صحراء النفود ، وفي المساء كانت الرياح تهب من فوقنا ونحن في الغار نتمتع بالدفء، ونتبادل أطراف الحديث حول النار .



رسوم صخرية قديمة

الجمعة ١٨٨٤/٢/٨ بمجرد أن تم تحميل الجمال، وبدأنا الاستعداد للتحرك قال نومان: إنه حسبما يتذكر توجد مجموعة نقوش أخرى غير بعيدة من هنا فوق مخيمنا في مكان يسمى نضيم العرقوب ، وبعد أن ارتقينا - بأسرع ما يمكن - التل المنحدر في الرمال الناعمة، أشار نومان إلى النقوش ثم عاد مع هوبر ، وبقيت هناك رغم هبوب الرياح حوالي نصف الساعة، لكي أقوم بنسخها، وحيث إنني تركت رفاقي ينتظرون مدة طويلة رجعت وأنا أجري قافزاً من

فوق تلال الرمال بكل سرعة، وبينما كنت أقفز التل فاجأت رفاقي مما جعل الخوف ينتابهم معتقدين أنهم تعرضوا لهجوم وحش كاسر، حتى الإبل المحملة انطلقت مسرعة من الذعر، وبعد إمساكها وتهدئتها انطلقنا نحو جبل العرقوب باتجاه الشمال، ثم الشرق نحو الجنوب، وعبرنا في صعوبة صحراء النفود المرتفعة .

وبينما كنا نسير في تلك المرتفعات كانت الرياح تعصف والغيوم تتجمع ، وحينما بدأ المطر والبرد يتساقط - ونحن لا نزال نسير فوق تلك الهضبة التي ليس فيها ما نحتمي به عن العاصفة الممطرة - اضطررنا إلى الرجوع باتجاه أحد الجبال الذي وجدنا في حافته ميولاً كان بمثابة غطاء لنا ضد العاصفة التي كانت قوية لدرجة أنها أطارت التبغ من غليوني .

بسبب تخوفنا من عدم تحسن الطقس قررنا البقاء هذه الليلة هنا ، ولكن حيلان حينما عاد قال لنا: إنه اكتشف مكاناً قريباً من هنا يتيح لنا الحماية من الأمطار والبرد، ولكننا لم نصدقه ورفضنا استبدال مكاننا ، غير أنه استخدم ذكاءه، وانتظر قليلاً حتى اشتدت العاصفة الممطرة، ثم قال لنا بهدوء: إن علينا أن نتحرك . وحينما تحركنا ظهر أمامنا فعلاً وسط الطبيعة جبل من الحجر الرملي يشابه شكل الفطر ، وما هي إلا بعض دقائق حتى وصلنا ذلك التكوين الصخري العجيب الذي كانت صفحة غطائه ترتفع عن الأرض متراً ونصف، ويتراوح امتداد سطحها إلى الخارج ما بين ٤-٥ أمتار في كل اتجاه، وهناك كان من السهل علينا بمساعدة أعواد الخشب بناء جدار قوي، ثبتنا خلفه البنادق وحقائب السيوف وأمامه حيث سيكون مكان جلوسنا وضعنا عليه المعاطف ، وهكذا فليس بمقدور المرء أن يتمنى أحسن من ذلك المكان للنوم فيه ، وقد كانت الاستراحة تحت تلك الطاولة الحجرية مبعثاً للسعادة في نفسي .

السبت ١٨٨٤/٢/٩ هل كان الجدار الذي بنيناه لحمايتنا سبباً في إثارة العاصفة ليلة البارحة ؟ حقاً إن قوى الطبيعة تكره أي عمل يقوم به الإنسان ، ففي بضع هبات قوية سقط



تكوين صخري على هيئة فطر

جدارنا المبني من الأغصان وقطع القماش والبنادق وأشياء آخرى على أجسادنا[٨٩]. فتخلصنا منها فوراً دون أن تحدث لنا أضراراً ، وبدلاً من أن نرى ماذا حدث وهل تضرر شيء ما، أسرعنا إلى لف أنفسنا بالأغطية، تاركين الريح والرمل وهي تمر مسرعة من فوقنا .

الأحد ١٠/٢/١٨٨٤ مع نسمات الصباح المنعشة وصفاء الجو استمتعنا بمنظر رائع ناحية الغرب، حيث انطلقنا جاعلين جبل عنز العرقوب على يسارنا، ومنحدرين إلى الأمام عبر المنطقة الرملية ، وفي هذه الأثناء تفاجأت منا ضبعة ، مما جعلها تقفز وتنطلق وهي مذعورة أمامنا، وبعد أن تجاوزنا جبل الخنذوة استرحنا مدة نصف ساعة في نقرة الرخم، ثم سرعان ما وصلنا، مرتفعات الخرم التي تأخذ صخورها أشكالاً غريبة ، بعضها يشابه شكل جمل بارك، وإلى اليسار منها المنطقة التي تسمى الغراميل، وهي عبارة عن أضلع صخرية خارجة من الرمال، وأشبه ما تكون بقلعة ذات أبراج كثيرة. بعد أن عبرنا منطقة القمرة المشهورة بمراعيها ووصلنا قمة ممر حلوان وجدنا أمامنا منطقة طبيعية ممتدة ومليئة بأشكال من

(٨٩) تفسير المؤلف هذا غير منطقي وما يحدث من رياح مثل هذه هو شيء طبيعي في الصحراء .

التكوينات الصخرية منها ما هو على شكل أعمدة، وأسوار ، وعش الغراب، وإبر، وكتل صخرية. ثم اتجهنا إلى جبال محجة التي قيل لنا: إنه كتب عليها بعض النقوش القديمة ، وكلما امتد بنا المسير زادت غرابة تلك التفرعات الصخرية .

تتكون مجموعة جبال محجة الرملية من خمسة أجزاء

١ - كتلة صماء ارتفاعها حوالي ٣٠م ذات جوانب رأسية .

٢ - ردهة ارتفاعها بين ٢٠ - ٢٥م .

٣ - كتلة نصف مستديرة ارتفاعها ١٠م تقريباً .

٤ - صخرة منفردة صغيرة .

٥ - بهو أعمدة أمامي ارتفاعه حوالي ٣٣م .

حين ترجلنا عند الزاوية الجنوبية الشرقية كنت متأثراً غاية التأثر بالمنظر الذي أراه أمامي، وكانت هناك مئات النقوش المحفورة على الجدران الحجرية، من بينها رسوم لمناظر الصيد وحيوانات من جميع الأنواع، ومجموعة من الجياد والإبل التي لم أستطع رسم سوى عدد محدود منها .

على الرغم من الرياح المعوقة أردت الاستفادة من ضوء النهار المتبقي لكي أنسخ بعض المناظر والنقوش التي أهتم بها كثيراً ، ولأنه ليس من المعتاد أن يجد المرء ماء قرب محجة، فقد كانت مصادفة سعيدة حينما استطاع حيلان بعد بحث قليل اكتشاف حفرة فيها كميات كافية من مياه المطر يمكن ملء القرب منها.

الإثنين ١١/٢/١٨٨٤ بدأت في الصباح من جديد في عملية الرسم والنسخ، ولاحظت أن تلك النقوش التي ضاعت معالم الكثير منها بفعل التعرية تأخذ أشكالاً مختلفة تماماً إذا تعرضت

لإضاءة مختلفة ، وهي ملاحظة تأكدت لي أيضاً مرات عديدة فيما بعد، وقد تمكنت في هذا اليوم من نسخ ١٦٠ نقشاً معظمها عبارة عن أسماء أعلام ، مما يعني أن الجبل كان بمثابة سجل حجري لقبائل البدو التي كانت ترعى هنا منذ آلاف السنين، إضافة إلى مجموعة النقوش المقروءة يوجد هناك مجموعة أخرى من النقوش المتآكلة والمحطمة .

بينما كانت الجمال ترعى طوال النهار قام مرافقونا بنقل الأمتعة إلى القاعة الكبيرة، حيث استرحنا في المساء داخل تلك القاعة الجرداء التي أضفى عليها ضوء القمر جواً سحرياً.

الثلاثاء ١٨٨٤/٢/١٢ انطلقنا مع شروق الشمس وبعد ثلاث ساعات خيمنا في مراعي لقط الخضراء التي لم أشهد لخضرتها مثيلاً من قبل في جزيرة العرب، و قد كان يتوسطها حوض مائي صغير ماؤه غير صالح للشرب، قمت تعبيراً عن بهجتي برؤية الماء بالسباحة فيه، وعلى أحد الجوانب كانت هناك شواهد قبور قيل: إنها لأربعة من أفراد قبيلة العواجي الذين قتلوا هنا أثناء هجوم عليهم قام به أفرادٌ من قبيلة بلي قبل ثلاثة أشهر.

حينما وجدت على الصفحات الصخرية التي يصل ارتفاعها مائتي متر تقريباً عدداً يقدر بالمئات من النقوش ابتهلت إلى الله بأن يعينني، وحيث إنه ليس بمقدوري نسخها كاملة حصرت نفسي بنسخ الواضح منها والذي يصل عدده مائة وخمسين نصاً ، أما الأحجار الأخرى فقد رسم عليها مجموعة من المناظر البدائية لأشكال حيوانات متعددة.

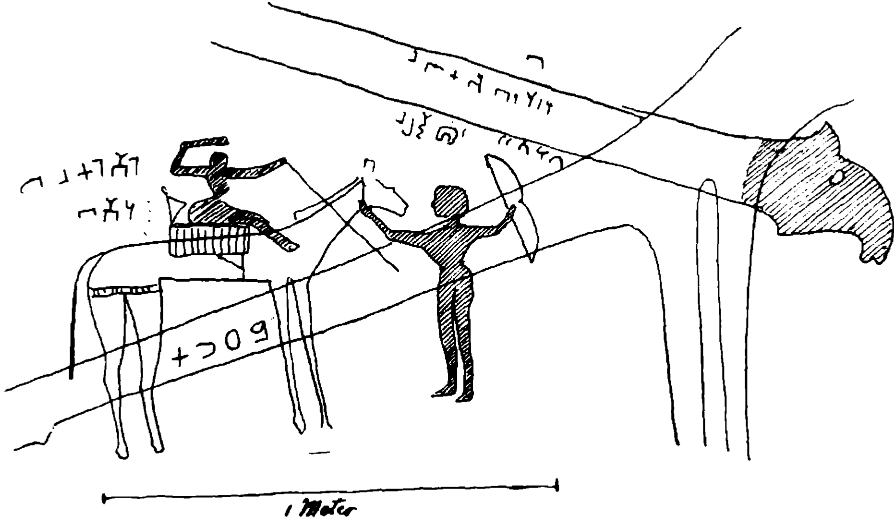
كانت المساقط العمودية لصفحات الجبل ذات لون أبيض يميل إلى الصفرة - خاصة في الجهة الجنوبية وإلى حد ما في الجهة الشمالية - ومغطاة بطبقة رمادية وكأنها ضربت بالورنيش ، وهي ما اصطلح الجيولوجيون على تسميته بقشرة الحماية .

يمكن للمرء تقسيم مجموعة النقوش المكتوبة هناك بالخطين العربي الشمالي القديم[٩٠]

---

(٩٠) ما يقصده المؤلف هو ما نسميه اليوم بالخط الثمودي .

والنبطي إلى مرحلتين الأولى تمثلها تلك النقوش التي يظهر عليها لون القشرة الصخرية الفاتحة، وهي الأحدث عهداً، ويعود تاريخها على أقل تقدير إلى ما قبل ألف وخمسمائة سنة، أما المجموعة الأخرى والتي أخذت خطوطها مع مرور الوقت لوناً رمادياً فهي الأقدم عهداً وتمثلها النقوش المكتوبة تحت النقوش الأحدث عهداً. هنا يتبادر سؤال مؤداه كم من مئات السنين تفصل بين المرحلتين، وإلى أي فترة تعود أقدم النصوص هنا ؟ لقد شعرت بالأسى لأنني حينما كنت أنسخ النقوش لم أهتم كثيراً بلون النقش، هل هو ذو لون فاتح يميل إلى الصفرة ، أو أنه رمادي غامق ؟



نقوش ورسوم عربية قديمة

ليس من المستحب أن يقيم المرء طويلا إلى جانب الماء في المناطق التي يشح وجوده فيها، لأنه يصبح مقصداً لكل طامع، ولكل حيوان مفترس، لذلك تحركنا بمجرد انتهاء العمل لنكون في أمان ، حيث ركبنا مدة ساعة ثم أقمنا المخيم داخل مغارة في جبل مكون من الحجر الرملي، وبمجرد أن جلست على الفراش أحسست بدوران في رأسي.

الأربعاء ١٨٨٤/٢/١٣ بعد أن أكلنا ركبنا من جديد وسرنا طوال اليوم كأننا نمشي وسط انهيارات حجرية ، وقد كانت الأرض مغطاة برمال كريستالية ذات بريق لامع، كما كانت الكتلة الجبلية العريضة لجبل البرد، ثم إلى الجنوب منه جبل رواف يسيطران بأشكالهما على طبيعة المنطقة كلها، وحينما وصلنا منطقة كباد قمت بنسخ عدد من النقوش . ولأننا لم نتوقع أن نجد فيما بعد مكاناً يقينا من الرياح الغربية القوية، فقد نزلنا حوالي الساعة الرابعة في منطقة تسمى بطين كباد على حدود سهل خولة .

الخميس ١٨٨٤/٢/١٤ على حين كانت الأعشاب متوافرة إلى حد ما في منطقة خولة، إلا أن الجمال لم تجد سوى القليل لتأكله حينما توقفنا عند الظهر في منطقة السنانيات . وفي ظلمة الليل كان علينا أن نجمع الأخشاب الرديئة لطهو الرز والقهوة ، ثم رقدنا على مشارف غدير مملوء بمياه الأمطار ، بيد أن النوم لم يكن مريحاً .

الجمعة ١٨٨٤/٢/١٥ بسبب انتهاء ما معنا من قهوة لم نتمكن في الصباح من تناول شيء سوى الخبز المعمول بالجمر (قرص جمر)، ثم تحركنا مع شروق الشمس مسرعين على أمل اجتياز تلك المنطقة الجرداء متخذين من جبل غُنيم[٩١] الذي بدأ يظهر أمامنا منذ مساء الأمس بمثابة نقطة لتحديد مسارنا ، كان الوقت بعد الظهر حينما اجتزنا النهاية الشمالية لجبل غُنيم ، وهناك عند الجبل شاهدنا مجموعة من النسوة يبحثن عن الحطب، وبمجرد رؤيتهن لنا أحسسن بالذعر فانطلقْن مسرعات ، ولم يتوقفن حتى سمعن أصواتنا ونحن نقول أنه لا خوف عليهن منا .

أمامنا في ذلك الحوض الواسع الغني بأشجار النخيل كانت تقع واحة تيماء . وقبل ساعتين من وصولنا عمدنا إلى تنظيف أنفسنا بما بقى معنا من مياه ، ولعلنا في ذلك نمتثل للمثل القائل (الفلاح لا يستحم إلا صباح السبت) ، أما نحن فلم نستبدل طول ٢٣ يوماً ثوباً واحداً، ولم نستحم أكثر من مرتين ، وإذا استثنينا بلدة موقق وجفيفة فنحن لم نر إنساناً قط سوى

(٩١) يقع على مسافة ١٠ كم تقريباً إلى الجنوب الشرقي من مدينة تيماء .

ثلاث مرات، أما ونحن اليوم نستعد لدخول مدينة فيجب علينا الظهور بمظهر حسن، لذلك ارتدينا كل ما نملكه من ملابس، تظهر علينا الوقار والعظمة .

وهكذا انطلقنا نحو المدينة في سرعة تتسم بالسرور ، حيث مررنا في البداية بمجموعة من البيوت المحاطة بالأسوار ، ثم مررنا بشعيب (عبارة عن مجرى جاف)، ونحن نبحث عن مسكن عامل ابن رشيد في المدينة المدعو عبدالعزيز العنقري ، وعندما علمنا أنه استبدل قصره الذي دمرته السيول بآخر اضطررنا إلى الالتفاف حول المدينة بأكملها، حتى وصلنا من خلال الأزقة ذات الأسوار الطينية الدقيقة إلى منزله الجديد ، فوجدنا أبواب الأفنية الأمامية منخفضة مما جعلنا نترجل من رواحلنا ، في حين لم نستطع دفع الجمال إلى التقدم من خلال البوابات الضيقة إلا بعد توجيه بعض الضربات لها ، وحينما نزلنا في البيت كانت الساعة تشارف الخامسة .

تيمـــاء

الجمعة ١٥/٢/١٨٨٤ تقع واحة تيماء على حوض مائي منخفض يتجه من الجنوب إلى الشمال ، وتتبع روافده المائية الجوفية من بئر هداج ، كما يخترق المدينة شعيب يسيل في فصل الأمطار نحو الشمال باتجاه السبخة ، ويحيط بالمنطقة السكنية من ثلاث جهات سور بني من الحجارة واللبن .

بالنسبة إلى بقايا الأطلال الأثرية القديمة يمكن للمرء التعرف هناك على الأساسات المتبقية لمعبدين، والقصر الدائر[٩٢]، وربما أيضا طليحان[٩٣]، وقصر زلوم[٩٤] المتهدم، كذلك أيضاً تلك القنان المائية المتداعية في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، كما تشير أكوام الخبث الموجدة هناك إلى وجود مصنع لصهر الحديد أو ربما فرن لصناعة الفخار، أما بالنسبة إلى قصر الأبلق[٩٥] الذي بني داخل المدينة نفسها، أو في مكان آخر قريب منها، فلم أتمكن من تحديد مكانه. من جانب آخر فأزقة المدينة ضيقة جداً، بحيث لا تسمح بدخول جمل بحمله، وتوجد بين المنازل مساحات خالية، وبساتين اعتني بسقايتها، وزرعت بأشجار النخيل والعنب والخوخ والرمان. شهدت تيماء حتى وقت قريب صراعاً بين سكانها المقدر عددهم نحو ألف نسمة، مما جعلها في تلك الفترة تبعاً لأحيائها (أسواقها) الثلاثة تنقسم إلى:

١- سوق العلي بزعامة ثويني بن رمان .

٢- سوق الماضي بزعامة فهد الطلق .

٣- سوق الحمدة بزعامة طالب العائد[٩٦].

---

(٩٢) هو ما يسمى اليوم بقصر الرضم الواقع في الجهة الغربية من البلدة ، وهو يبعد ٣٠٠ متر تقريباً إلى الشمال من قصر طليحان ، للاستزادة حول عمارة القصر انظر حامد ابو درك ، مقدمة عن آثارتيماء، الرياض ١٤٠٦، ص ٢٢-٣٦.

(٩٣) كان قبل اندثار معالمه يقع في الجهة الغربية من البلدة .

(٩٤) يقع قصر زلوم الذي اندثرت معالمه اليوم في الجهة الغربية من البلدة ، وهو ملاصق لقصر الرضم من الجهة الشرقية.

(٩٥) لا يزال مكان قصر الأبلق الذي أسهبت في وصفه كتب الموروث العربي غير معروف حتى اليوم .

(٩٦) الصواب طالب القايد .

أما اليوم وحيث أصبح سكان تيماء ملتزمين بدفع الضرائب لابن رشيد فقد أمكن القضاء على تلك الصراعات بين الأحياء الثلاثة المتحاربة عن طريق عامل الأمير المدعو عبدالعزيز العنقري الذي حملنا إليه رسالة من الأمير يأمره فيها بأن يمدنا بالمواد الغذائية وغير ذلك مما قد نكون في حاجة إليه . لم نكد نضع الأمتعة في المنزل حتى أخذ الناس يتدفقون علينا ، وأخذوا ينظرون إلينا بدهشة. ونظراً لكوني لم أتناول منذ ذلك الخبز اليابس في الصباح سوى الكثير من فناجيل القهوة السوداء، فقد أحسست برعشة في معدتي ودوران في رأسي، وأخيراً عند الساعة السابعة مساء، أضيء المكان بشعلة من سعف النخيل ، وجاء ثلاثة من الخدم وهم يحملون صينية الأكل، وقد شارك معنا في تناول الطعام عبدالعزيز بن رمان ، والخطيب (إمام المسجد) عبدالله وتاجران من فارس يرتديان معاطف نفيسة، بالإضافة إلى شخص مغرور بنفسه يدعى (سلطان) ، وستة من الضيوف الآخرين استطعت أن أفرق بين ملامحهم خلال الأيام التالية. وفي حوالي الساعة التاسعة أبدينا رغبتنا بأخذ قسط من الراحة، ولكن أحداً منهم سواء مضيفنا أو ضيوفه لم يتحركوا من أماكنهم، بل على العكس من ذلك ظلوا ينظرون إلينا ونحن نعد أماكن نومنا، ويرقبون ما الملابس أو حتى الأسلحة التي ننزعها، وما الوضع الذي سنتخذه خلال النوم، وما الأغطية التي سنستخدمها، وما شابه ذلك؟

السبت ١٦/٢/١٨٨٤ قبل ساعة ونصف تقريباً من شروق الشمس أتحفنا الخطيب الطيب عبدالله أبومحمد وهو من أهالي شقراء بأن ظل حوالي نصف ساعة يقرأ بصوت مرتفع سورة كاملة من القرآن، وهو قابع في الفناء إلى جانب باب غرفتنا ، كذلك كان من عاداته أن ينادي خلال كل استراحة من الحديث على مدار اليوم بقوله (لا إلــه إلا الله)، وعند أذان الفجر جاء الناس جميعاً للصلاة في المسجد، وبعد الصلاة بعشر دقائق وصل الجميع إلى القهوة التي نقيم فيها، فلم نستطع إكمال نومنا .

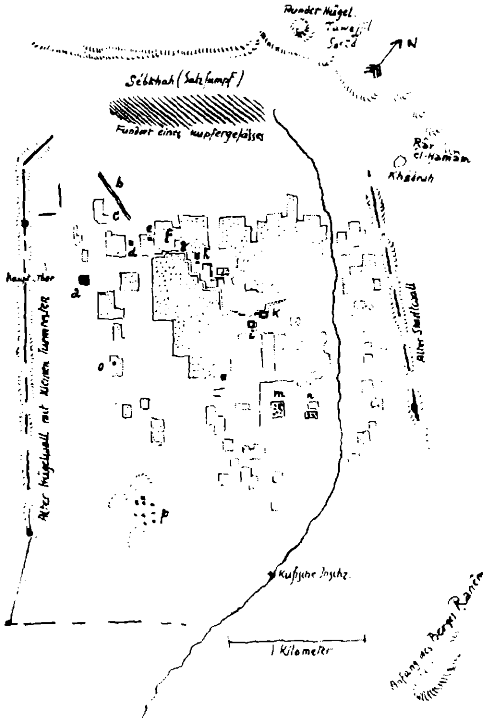
ذهبت في هذه الأثناء إلى جمالنا الوفية ، وحينما دخلت عليها في الفناء الذي خصص لها رفعت رؤوسها ونظرت إليّ بدهشة ، كان هناك في أحد جهات الفناء ممر محمول على ثلاثة

أعمدة بنيت من اللبن ، ومسقوف بأغصان رديئة وفوقه أوراق سعف النخيل الذابلة ، وخلال الأرضية الطينية عملت قناة يسير خلالها قليل من الماء . ومنذ أن بدأت مسيرتنا من حائل حتى يوم أمس التي استغرقت ٢٤ يوما لم ألاحظ أن الجمال شربت ولو مرة واحدة، رغم مررونا بأماكن تتوافر فيها المياه، مما جعلني أعتقد أن هذه الحيوانات طالما أنها تأكل الأعلاف الخضراء المتوافرة هنا في فصلي الشتاء والربيع فهي لا تحتاج إلى الماء. وحينما خرجت من الفناء رأيت أناساً مشغولين بجمل سد فمه، وطرح على الأرض، وفي النار الموقدة حولهم تتلظى قطعة من الحديد ، وبعد برهة وضعوا وسم القبيلة على فخذ البعير، وأخرجوا قطعة الحديد من النار وبدؤوا بتمريرها على جنبات الوسم، حتى احترق الجلد وانبعثت رائحته .

الآن بدأت الصعوبات الخاصة بالحصول على جمال نمتطيها لمواصلة الرحلة إلى تبوك، فنحن بحاجة إلى خمسة جمال، فبعد أن اضطررنا إلى ترك جمل في جفيفة ، وإعادة ذلك الذي استأجرناه إلى صاحبه، لم يبق لدينا سوى ثلاثة جمال نريد الحفاظ عليها لاستخدامها في الجزء الثاني من الرحلة، إضافة إلى ذلك فمن الضروري الحصول على جمل يعود عليه حيلان إلى حائل، وحيث سمعنا الآن أن قبائل الشرارات يرعون على مسيرة يومين من هنا في اتجاه الشمال الغربي، وأن عشيرة الفقراء على المسافة نفسها في اتجاه الجنوب ، فقد أرسلنا نومان على ذلولي إلى الفقراء لكي يستأجر منهم جملين آخرين، وكنا نأمل ألا يقع في أيدي قاطعي الطريق، خاصة وأن بني صخر قد قاموا قبل أيام بغزو في هذه المنطقة امتد حتى الجنوب ، كذلك قيل إنه تمت رؤية سطام بن فايز (من قبائل الرولة) على مسيرة يومين من هنا ، فهل كان ذلك صحيحاً ؟

قمنا في حوالي الساعة العاشرة بجولة خلال المدينة ، وكان هدفنا الأول هو رؤية بئر هداج المدهشة والمعروفة في أرجاء جزيرة العرب وفي سورية، والذي جاء ذكرها أيضا في الكثير من الأشعار، ففي وسط مساحة يتخللها حوالي ثمانين جدولاً يوجد بئر دائرية الشكل قطرها يصل حوالي عشرين متراً، وجزؤها العلوي مطوي بالحجارة ، وعمق سطح مائها الذي تنبع

منه العيون المتدفقة حوالي خمسة عشر متراً، وحافتها العليا محاطة بخليط متباين من الأخشاب والإطارات الخشبية ، والمحّال (الدراج)، والحبال، والغروب الجلدية، وأدوات أخرى لسحب المياه ، وفي كل اتجاه من اتجاهات البئر الأربعة يسير ما بين ١٢ - ١٥ جملاً - أي حوالي ٦٠ جملاً - في ممر طويل ساحبة غروب الماء من الأعماق . بالإضافة إلى ما يوفره البئر من مياه للشرب فماؤها يسير عبر سواقي لسقي آلاف من أشجار النخيل في واحة تيماء المشهورة منذ القدم بوفرة مياهها . أما بالنسبة إلى قانون توزيع الماء بين ملاك البساتين فهو معقد، وكثيراً ما تسبب في حدوث النزاعات كالعادة في أي مكان مشابه. وحين إخراج الماء من البئر يسير عبر قناة تتفرع منها جداول صغيرة لكل منها صمام يمكن من خلاله حبس الماء ، ومن المعتاد أن كل من له نصيب من مياه تلك الجداول يقوم بجلب جمل للعمل في إخراج غروب الماء من أعماق البئر، كما يحرص بنفسه على صحة عملية توزيع الماء خلال تلك الجداول



A: القصر الدائر، B: قناة مائية،
C: مكان العثور على العملات الذهبية،
e: قصر متهدم، F: مقبرة، g: منطقة نفايات،
h: منزل العنقري، i: البئر الكبير، k: قصر،
m: معبد، n:معبد،
O: قصر طليحان الذي عثر فيه على مسلة تيماء،
p: فرن لصهر المعادن أو الفخار.

مخطط مدينة تيماء

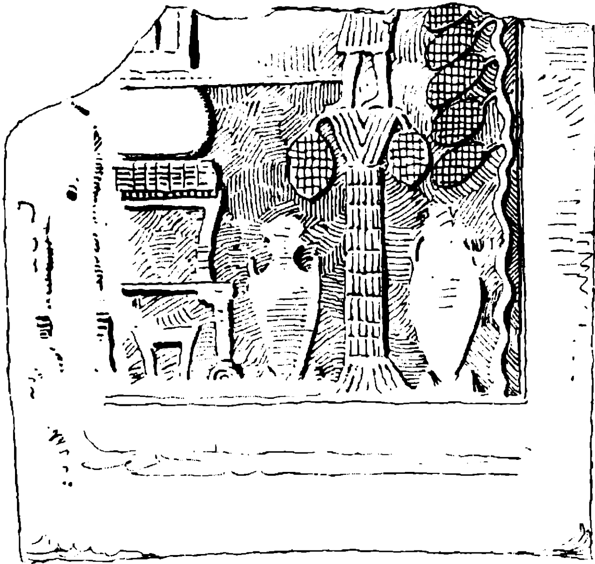
(السواقي). أما ملاك الجمال ومؤجروها فيقفون في الممر الذي تسير خلاله الإبل وهي تسحب الماء لإعطائها حفنة من العلف وحثها على المسير بسرعة، بينما يقوم الصغار من أفراد العائلة بمراقبة سير الماء خلال الجداول (السواقي) التي تمتد عبر الشوارع كي لا يتسرب منه شيء.

حينما اقتربت من إحدى تلك الجماعات لأقوم بالرسم نهضوا بكل إجلال وأفسحوا لي مكاناً مناسباً ، وسألوني عما إذا كان في بلادي بئر شبيهةٌ بتلك أو حتى جدول مائي ، وما إذا كان لدينا بساتين وما شابه ذلك ؟ وقد سمحت لنفسي بالقول: إن ألمانيا بها ما يزيد على ٤٠٠٠ نهر وجدول تتدفق مياهها طوال العام إلى البحر دون الاستفادة منها في الشرب ، وإن البلاد كلها عبارة عن بستان كبير مزروع ليس بالنخل وإنما بأشجار الغابات والفاكهة وبينها الأعشاب وحقول القمح ، كما أنه ليس من حق أحد التعدي على أراضي الآخر، لأن كل شيء محدد ، بل إن بعضها محاط بالأسوار، فكان تعليق أحدهم هو أنه إذا كان كل ذلك حقيقياً فما الذي جعلك تترك بلادك وتأتي إلى هنا ؟ ثم إن بلداً ليس فيه أشجار نخيل ولا بدو أو إبل وليس في مقدور المرء أن يقيم في أي مكان على هواه ، فإنها بلاد لا يرغب المرء في رؤيتها، أما الآخرون من رفاقه فقد ظلوا ينظرون تارة إليه وأخرى إليّ ، ولكنني لم أستطع الإجابة، ولزمت الصمت مستمرا أدخن غليوني ، وكم كنت سعيداً حينما أنهيت رسوماتي وجاء هوبر حسب الموعد لنذهب سوياً .

كنت أتحرق شوقاً ونحن نتجه إلى القصر لرؤية ذلك النقش النبطي وبالذات النقش الآرامي القديم[٩٧]، والذي قرأت عنه في مذكرات هوبر خلال رحلته الأولى للجزيرة العربية، وأرخته في التقرير الموجه من هوبر إلى وزير التعليم الفرنسي إلى فترة تعود على أقل تقدير إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وخلال مسيرنا عبر الأزقة الضيقة للبلدة كنا نقابل بعض النسوة اللاتي وقفن في مواجهة الحائط لكي نمر من خلف ظهورهن .

(٩٧) نسبة الى الشعوب الآرامية الذين أسسوا في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ممالك وإمارات متعددة في بلاد الشام، وبدؤوا منذ القرن العاشر قبل الميلاد يكتبون نصوصهم ذات الطابع السياسي البحت بخط مشتق من الأبجدية الفينيقية ويتكون من اثنين وعشرين حرفاً.

لم يكن القصر الذي سمعت من قبل أنه يوجد على أسواره الطينية ثلاثة أحجار منقوشة مسكوناً بسبب تهدمه من جراء السيول، و هناك على الواجهة الشرقية منه شاهدت على ارتفاع ستة أمتار تقريباً من الأرض حجراً غريباً ، ولأنه لم يكن مثبتاً بصورة مستقيمة على الجدار بل على جانبيه فقد اضطررت لكي أتمكن من فهم التفاصيل المنحوتة عليه ورسمها إلى الالتفاف برأسي جانبا، فأصبت بدوار سقطت على إثره مرتين على الجدار، وربما يكون السبب في ذلك سوء الأكل خلال الأسبوعين الماضيين ، على أي حال لقد وُعدنا حينما تبدأ أعمال الترميم في الجدار بأن ينزل الحجر ويحضر إلينا ، وهذا الحجر هو عبارة عن مائدة قرابين منحوتة ، جسد عليها شكل رجل واقف على رأس نخلة تتدلى منها رجوم التمر ، وخلفه يتسلق عنقود من العنب ، وإلى جانبي النخلة وضع وعاءان مدببان من الأسفل فيهما مقابض من الأعلى إشارة على احتوائهما العنب والتمر ، أما الرجل الواقف على رأس النخلة فقد وجه وجهه صوب اليسار باتجاه بناء هو عبارة عن عرش (كرسي) ومخاد (وسائد) ، وفوقه ربما



نحت بارز من تيماء

يجلس صنم ، بالإضافة إلى ذلك وجدنا هناك حجرين تمكنا من نزعهما من الجدار وأخذناهما معنا إلى المنزل .

قمنا بعد العصر بجولة في الشعيب خارج المدينة ، حيث وجدنا بعض النقوش المكتوبة بخط كوفي غير واضح، وفي الطريق إلى هناك شاهدنا أعداداً كثيرة من كسر الفخار، والأوعية الحجرية ، ومجموعة من قطع حجر العقيق الجميلة ، وبعد ذلك جلسنا وقتاً طويلاً عند بئر هداج ، ثم قمنا بزيارة جارالله اليوسف الذي كان منزله نظيفاً جداً، حيث كانت الأرض والجدران مزينة بالزلالي (جمع زلية)، ذات الحياكة الخاصة والصور التقليدية المحلية، وقد ذكر لنا أن ثمن واحدة منها كان يبلغ طولها ستة أمتار هو ٣٠ مجيدياً فقط (حوالي مائة ماركٍ) ، من هناك ذهبنا إلى العشاء لدى رجل نبيل آخر هو عبدالعزيز بن رمان ، وهناك سمعنا ما قيل عن شخصنا قبل وصولنا إلى تيماء بوقت طويل ، فقد كان الخطيب يعرف أن عبدالوهاب ليس اسمي الحقيقي ، وأنني قمت برسم جوهر ومفرج وأننا أعطينا الأمير بعض البنادق التي يمكن بواسطتها قتل إنسان دون إحداث صوت، وأن هوبر في وسعه أن يغير ملامح شخصيته، وغير ذلك من الأخبار . كما تحدثوا لنا عن شخص من أهل القصيم سيصل اليوم إلى هنا قادماً من مصر في رحلة تستغرق أربعين يوما، يسير خلف جمله المحمل بست عشرة بندقية مع كل واحدة مائة طلقة (ربما يكون رصاص بنادق المارتيني)، سوف يسلمها إلى أمير حائل هدية له من بقايا ثورة عُرابي(٩٨) .

الأحد ١٨٨٤/٢/١٧ لم نكد ننتهي من إفطارنا حتى دعينا إلى الأكل عند ثويني بن رمان، قدم لنا في البداية التمر والخبز، بالإضافة إلى إناءين صغيرين من السمن النظيف الساخن واللبن . وخلال الوداع شاهدت في الفناء عدداً من الأنابيب المصنوعة من خشب القري الذي يكثر استخدامها هنا لإطلاق السهام من خلالها عن طريق النفخ ، وبمجرد خروجنا وجهت

(٩٨) نسبة الى المصري أحمد عرابي الذي تزعم حركة تحرير بلاده ضد الاستعمار الإنجليزي ، ولكنه بعد هزيمته في معركة التل الكبير دخل الإنجليز القاهرة في شهر سبتمبر ١٨٨٢م ،وقاموا بحل الجيش المصري ، ومن ثم نفيه الى جزيرة سيلان التي ظل فيها تسعة عشر عاماً ، عاد بعدها الى مصر إبان فترة حكم الخديوي عباس ، ومات في القاهرة سنة ١٩١١م .

لنا دعوة للذهاب إلى منزل فهد الطلق الذي ضيفنا بالتمر والخبز واللبن ، وقد كان من بين المدعوين صانع أسلحة ماهر يدعى زيدان ، وقد ضممته إليّ لمعرفته التامة بالأماكن وموافقته على تلبية طلباتي ليرافقني خلال زياراتي في المدينة ، وحينما فرغنا من الأكل ذهبنا سوياً إلى غرب المدينة ، حيث التل الذي يبلغ ارتفاعه حوالي المترين عن مستوى سطح الأرض، وتقع تحته حسب معلوماته تيماء القديمة ، وفي الحقيقة بعد قيامي بعملية بحث سطحية في الأرض الرملية وجدت بعض قطع من الزجاج، وشظايا من البرونز مغطاة بطبقة خضراء سميكة، بالإضافة إلى قطع من أرض أسمنتية ، وعدد من أحجار العقيق ، كما رأيت قناة تتجه نحو الشمال مغطاة بالجير ، ويبدو أنها كانت مخصصة لنقل الماء إلى المستنقع الملحي (السبخة) ، وإلى الجنوب وصلنا إلى قصر الدائر، وهو بناء كبير مربع الشكل فيه أبراج على الزوايا وبقايا بئر مردومة . ومن هناك ذهبنا إلى منزل يقع على مسيرة خمس دقائق إلى الجنوب يسمى طليحان، وجدت فيه أغلى غنيمة حصلت عليها من رحلتي في الجزيرة العربية ، فإلى اليمين على القائم الأيمن من الباب الداخلي الثاني كان هناك حجر مقلوب نحت عليه أشكال آدمية ، تمثل معبوداً أو ملكاً ، وكاهناً ، وهذا الحجر هو ما يعرف اليوم في أوساط الدارسين باسم (حجر تيما)[٩٩]، وحينما رأيت نقشاً مكتوباً عليه لم أستطع إخفاء مشاعر الدهشة لدي إلا بصعوبة بالغة ، وفي هدوء مفعم بالسعادة قمت بنسخه على الورق، ثم أعطيت صاحب المنزل بكل سرور بعض النقود ، وبعد أن قلت لزيدان بأن يحضره إليّ في صباح الغد الباكر، ذهبت مسرعاً وأنا متعب ومضطرب إلى البيت لكي أحدث هوبر عن الاكتشاف الجديد، وأهمية النقش المكتوب عليه ، الذي يعود بالتأكيد إلى القرن السادس قبل الميلاد، أما الحجر نفسه فسيقتلع من مكانه ويحضر إلى منزلنا في يوم الغد . وفي المساء تمت دعوتنا لدى ثويني،

(٩٩) قبل أن نورد تعريفاً موجزاً لحجر تيماء المعروف أيضاً بين أوساط الدارسين باسم (مسلة تيماء) أود أن أنبه إلى خطأ شائع طالما تردد في ثنايا الكتب التي تتحدث حول هذا الموضوع ، ذلك هو أن حجر تيماء (مسلة تيماء) لم يعثر عليه في بئر هداج وإنما في قصر طليحان كما أثبته المؤلف هنا . كتبت مسلة تيماء المحفوظه الآن في متحف اللوفر بباريس تحت رقم (AO 1505) والتي يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد بالقلم الآرامي ، ويتكون النص المكتوب عليها من ثلاثة وعشرين سطراً تتحدث عن أمرين رئيسين: الأول هو تنصيب أحد الكهنة في معبد الإله الوثني صلم في تيماء ، والثاني ينص على التزام المعابد الأخرى بتقديم محصول إحدى وعشرين نخلة ضريبة لمعبد الإله صلم في تيماء .

وبعد ذلك شربنا القهوة عند عبدالعزيز بن رمان ، وقد كنت أفضل مائة مرة لو أنني بقيت في المنزل لدراسة الورقة التي نسخت عليها النقش .

الإثنين ١٨/٢/١٨٨٤ أدى تفكيري في ذلك الحجر إلى إصابتي بالقلق وعدم القدرة على النوم إلى القدر الذي جعلني أنهض عند الفجر، لأنظر من جديد على ضوء الشموع إلى الورقة التي نسخت عليها النقش ، وعند طلوع النهار بدأت بإخراج القمل من ملابسي ، ثم ذهبت مع صانع السلاح زيدان في جولة خلال المدينة زرنا فيها أولاً منـزل الخطيب محمد العتيق الذي كان على أحد جدران مسكنه الداخلية حجر عليه نقش كتب بالخط الآرامي ، ثم سرنا عبر مقبرة تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة الحالية، وترتفع فيها بعض الأعمـدة الدائرية المتداعية (فهل هي بقايا أعمدة أحد المعابد ؟) وعلى مقربة من هذه المقبرة شاهدت بعض الخبث الناتج عن فرن لصهر المعادن ، وبعض الأواني الفخارية المزججة ، وفضلات ضبعة ،وجثة حيوان ميت . حينما وصلنا منزل زيدان منحني هدية كانت عبارة عن بلطة حجرية سوداء يستخدمها في قياس نسب الذهب والفضة ، وقد رأيت عنده جرة قديمة من الفخار، لم يكن عليها أي ملامح فنية .

وجدت حين عودتي من الجولة سبعة رجال يقفون في فناء منزلنا، وقد أحضروا تواً الحجر (مسلة تيماء) من قصر طليحان ، فقمت بإعطاء كل حمال منهم ربع مجيدي، وأعطيت المالك ١.٥ مجيدي (حوالي ٥ ماركات) ، وبعد وضع الحجر وذهاب الرجال أصبح في وسعي فحص الحجر عن قرب ، وحينما رآه هوبر تذكر الآن أنه شاهده بالفعل خلال زيارته الأولى (عام ١٨٨٠) ولكنه لم يظن أنه ذو أهمية .

نظراً لكوني قد اتفقت مع هوبر حينما كنا في شتراسبرج[١٠٠] قبل بدأ رحلتنا المشتركة إلى الجزيرة العربية أن يكون من نصيبي كل ما نعثر عليه من آثار قديمة يمكن حملها، بحيث تختار دولتي - التي كانت في تلك الفترة تفتقد إلى تملك مثل هذه الآثار وخاصة من النقوش

(١٠٠) مدينة تقع في شرق فرنسا على الحدود مع المانيا .

المكتوبة على الحجر - ما تشاء ، بينما يكون له كل ما نحصل عليه من غنائم أخرى، لذلك فقد كان من المنطقي حسب الاتفاق أن تعود ملكية حجر طليحان (مسلة تيماء) إليّ . لا شك أن عملية نقل هذا الحجر الذي لن يقل وزنه عن ١٥٠كجم ستكون بالغة الصعوبة كما ستحتاج إلى احتياطات خاصة لتوزيع الثقل وتدعيمه فوق شداد الجمل ، وخلال هذا اليوم تم إحضار عدد آخر من الأحجار عليها نقوش كتبت بالخط الآرامي إلى مسكننا . ولعل من الأفضل بالنسبة لنا نقل مجموعة هذه الأحجار المنقوشة عبر منطقة آمنة إلى حائل، بدلاً من نقلها معنا خلال رحلتنا في منطقة الحجاز .

دعيت خلال فترة بعد الظهر لزيارة مجموعة من المنازل التي قيل لي: إن فيها مجموعة أخرى من النقوش المكتوبة على الأحجار، وحيث إنني لم أجد هناك أي أثر لذلك فقد تحملت النتيجة السلبية بإرادة قوية ، بل إنني حاولت إخفاء ملامح الإحباط والاستياء على محياي أو الدخول في منازعات مع أولئك الناس ، فليس لهم علم بمعاني حروف تلك النقوش، وفي مثل هذه الأحوال يجب على المرء تحمل التعب والأخطار حتى يتمكن من رؤية ما لديهم .

الثلاثاء ١٨٨٤/٢/١٩ في الصباح دعانا محمود العلاوي إلى الطعام ، وهو أحد رفاق هوبر في رحلته الأولى إلى جزيرة العرب ، أما بيته فقد كان نظيفاً ومفروشاً بالزلالي (جمع زلية) ، وأطفاله الواقفون للخدمة حولنا اعتادوا على النظافة والدقة ، فعلى سبيل المثال قام أحد الأطفال بتغطية النجر (الهاون) بعد طحن حبوب القهوة فيه بقطعة من القماش، كما تم غسل أقداح القهوة أمام أعيننا رغم أنها كانت نظيفة ، ثم جففت ووضعت فوق صحن نحاسي دائري الشكل ، وفي الوسط وضعت مجمرة (مبخرة) ألقي فيها البخور، حيث يتم تبخير فنجان القهوة[١٠١]، ثم يقدم لنا بعد ملئه ، ولا غرو في ذلك فجزيرة العرب تعد منذ القدم الموطن الأصلي للنباتات ذات الروائح الزكية .

---

(١٠١) لم تجر العادة على تبخير فناجين القهوة وإنما يبخر الحاضرون .

نظرا لكوننا لم نتلق دعوات أخرى هذا اليوم كان لديّ وقت للعناية بجسمي ، حيث استحممت وحلقت شعر رأسي تماماً ، كما طلب مني هوبر اليوم أن أرسم له في مذكراته مختلف النقوش التي وجدناها هنا .

لقد حاولت كثيراً سواء عن طريق الوعود أو التهديد الحصول على عمود حجري أخرج قبل بضع سنوات من بئر هداج، أو على الأقل نسخ النقش المكتوب عليه، ولكنّ مالكه المدعو سلامة ابن عائد خرج فجأة إلى الصحراء لجلب العلف ، فحال ذلك دون حصولي على ذلك النقش.

دعانا في المساء مضيفنا عبدالعزيز العنقري للعشاء عنده ، و قبل أن نذهب لتلبية دعوته نبهنا الخادم محمود إلى أن الطعام سيكون حاراً جداً، حتى لا نأكل منه كثيراً، وبالفعل كان به الكثير من الفلفل ، ولكن لحسن الحظ كان هناك لحم بجانب الأرز ، وذلك ما لم أكن أتوقعه. وبعد العشاء مباشرة أخرجت من جيبي عن طريق الصدفة حلقة مطاطية، وعلى الفور سألوني عما إذا كانت تلك مصنوعة من جلد الخنزير.

الأربعاء ١٨٨٤/٢/٢٠ أراد الخطيب عبدالله صاحب شقراء الذي كان ينام في الفناء أمام غرفتنا أن يلفت انتباهنا ، فقام قبل ساعة ونصف من شروق الشمس بتلاوة بعض سور القرآن بصوت مرتفع لمدة ٢٠ دقيقة .

توجهنا في الثامنة لتناول الإفطار مرة ثانية في منزل شخص يدعى طالب العائد[١٠٢]، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى جار الله العتيق لتناول القهوة ، ومن هناك عرج هوبر على منزل محمد العتيق، لكي يحصل منه على حجر منقوش أعيد استخدامه في بناء إحدى عتبات الأبواب، ودفع مقابله مجيديين.

---

(١٠٢) الصواب طالب القايد .

بعد غيبة خمسة أيام عاد نومان قرب الظهر مع أربعة من البدو من قبيلة الفقراء وجدهم على طريق الحج بالقرب من الحجر[١٠٣] ومعهم أربعة جمال، وحينما استقر بهم الحال، واطمأنوا لأنهم كانوا خائفين أن يكون نومان قاطع طريق، وطلبوا الحصول مقابل كل جمل يقطع الرحلة بين تيماء وتبوك ذهاباً وعودة ١٠ مجيديات (٣٧ ماركاً) ، بالإضافة إلى ثوب لكل منهم ، وحيث إننا لم نكن نحتاج سوى اثنين للرحلة إلى تبوك فقد خصصنا اثنين آخرين للدليل حيلان الذي سيبدأ مساء اليوم رحلة العودة إلى حائل ومعه رسائل إلى الأمير وإلى حمود العبيد وسلامة وعبدالله المسلماني .

(١٠٣) مدائن صالح

من تيماء إلى تبوك وبالعكس

الخميس ١٨٨٤/٢/٢١ من المقرر أن ننطلق اليوم إلى تبوك مما يعني ضرورة اتخاذ ترتيبات الرحلة التي ستستغرق ١٤ يوماً ، وقد كان مضيفنا عبدالعزيز العنقري عنيداً، ولم يعطنا أرزاً ولا قهوة ولا سمنا ، وبعد أن أطلنا الحديث معه وهددناه بإخبار الأمير قدم لنا الطحين والتمر الذي اتضح لنا في المساء أنه سيئ وعلى وشك التخمر ، وطعمه لايستساغ، أما التاجر الفارسي سلطان فكان بائساً هو الآخر، فقد أعطيناه مقدماً ثمن التبغ (الشاور) الفارسي الذي سيجلبه لنا، ولكنه رغم كثرة المطالبة لم يحضره حتى اليوم، فليذهب هذا التاجر الفارسي إلى الجحيم، إذ كيف ومن أين سأتمكن الآن من الحصول على التبغ ؟

انطلقنا في الساعة العاشرة ولم يكن معنا متاع كثير، وكنا خمسة أشخاص هوبر وأنا، والخادم محمود ونومان وعواد بن غنيمة شيخ الحجور وهي إحدى فروع قبيلة الفقراء، وقد كان يزمع الرحيل معنا أيضاً ثلاثة أشخاص آخرين من قبيلة الفقراء، ولكنهم حينما علموا أننا لن نعطيهم من متاعنا قرروا عدم مرافقتنا . كان مخططنا أن نسير عبر الطريق المتجه شرقاً نحو جبل الطويل (الواقع على مسافة يوم واحد من الجوف) إلى أن نصل الى تبوك، لكن ذلك لم يتحقق، لأن الشيخ عواد قال لنا: إن هذا الطريق يخترق أراضي قبيلة الشرارات المتعادية مع قبيلة الفقراء ، مما يعني نهايتي فلن أسلك هذا الطريق حتى لو أعطيتموني حمل ذلولي ذهباً . لذلك قررنا السير عبر الطريق المتجهة نحو الشمال والشمال الغربي، فانطلقنا جاعلين بقايا سور المدينة القديم الذي يمتد فوق هضاب رملية على يميننا باتجاه الشمال، حيث السبخة (مستنقع ملحي) ، وبعد ساعة مررنا بمركز حراسة متهدم، كما لاحت أمامنا من بعيد ملامح جبلين ، إلى اليسار جبل الفروة وإلى اليمين جبل الضبع. وفي حوالي الساعة الواحدة والنصف مررنا بمستنقع مائي يسمى خبرة الرولة ليس فيه أي نباتات . في هذه الأثناء كانت الريح تئز بقوة آتية من الغرب ، وفي الساعة الثالثة والنصف خيمنا في شفا محجة.

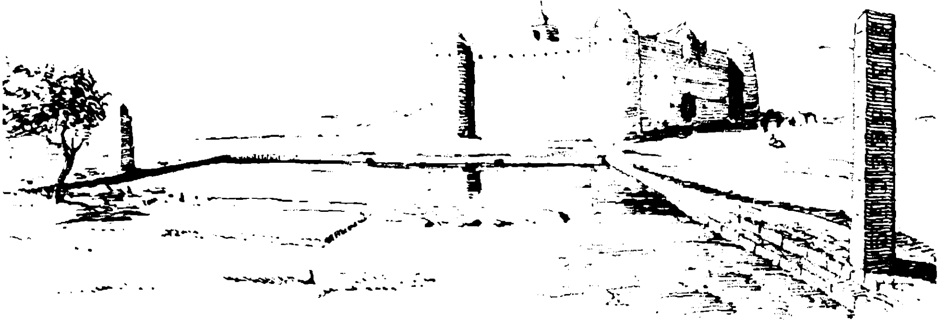


طريق الرحلة إلى تبوك

الجمعة ١٨٨٤/٢/٢٢ بعد أن شربنا الشاي انطلقنا مع شروق الشمس واجتزنا سهل الجريدة، حيث رأينا هناك من بعيد غزالاً أبيض كلون الثلج منطلقاً بأقصى سرعة، وفي الساعة الحادية عشرة وجدنا بعض الأعشاب عند مجموعة من أشجار الطلح التي تعتبر علامة مميزة لطبيعة منطقة الحجاز، وهناك أسرعنا بإعداد قرص جمر (خبز) ثم تأهبنا لمواصلة المسير ، ولكن هوبر بعد أن ركب ناقته شاهدت ثعباناً أخافها ، ولأنها تلقت ضربة منه فوق عينيها بطريق الخطأ، فقد ألقت به من فوق ظهرها فاصطدم رأسه بالأرض ، فأسرعت إليه، وقد أدت الصدمة إلى غيابه عن الوعي بعض الوقت ، كان يشكو بعد أن أفاق من آلام داخلية، وبعد نصف ساعة قال إنه يمكننا مواصلة الرحلة بحرص ، وبعد ساعة أخرى من المسير أقنعته بأن يستريح ، قليلاً وكنا قد اقتربنا في ظل رياح شديدة من جبال الفروة متجهين عبر الشعيب وسط الصخور، حيث أقمنا المخيم عند طرفه الخلفي في فجوة جانبية، واستخدمنا جذع شجرة يابسة في إشعال النار .

السبت ١٨٨٤/٢/٢٣ لا أدري لماذا لم أستطع النوم ليلة البارحة، هل كان ذلك بسبب إحساسي بالغربة ، أم بسبب إكثاري من شرب القهوة ؟ على أي حال لقد اضطررت للنهوض في منتصف الليل والجلوس عند جذع الشجرة لأدخن النارجلية مرة ثانية . وبينما كنا في الصباح نعد الخبز لطعام الإفطار قام الشيخ عواد بحلب ناقته لنا ، ثم انطلقنا سائرين لمدة ساعة ونصف عبر سهل قليل النبات وأرضه مملوءة بأحجار غريبة، منها ما هو شبيه بالجوز وأخرى سوداء أسطوانية الشكل، إضافة إلى عدد كثير من الصفائح الحجرية المتآكلة بفعل التعرية ، ذكر لنا الشيخ عواد أنها تسمى (دود أيوب) وقد كان سبب التسمية أن أيوب (عليه السلام) حينما ابتلي خرجت الديدان من جسمه فتحجرت مع مرور الوقت. حينما وصلنا أعلى قمة هناك تمكنا من رؤية منظر شامل، فأمامنا تمتد إلى الغرب سلسلة جبال عويرض، وإلى اليمين باتجاه الشمال ترتفع قمة جبل عنز، ورأس جبل إثلب، وإلى الشمال منها تظهر قمم جبال وتر وشيبان ، وكذلك تعرجات حرة بني عطية . وبينما نحن نسير لفت انتباهنا الشيخ عواد إلى آثار إحدى الحملات الهجومية التي تعرضت لها قبيلة الفقراء قبل خمسة أيام من جانب قبيلتي بني صخر والشرارات . عندما وصلنا شعيب عناد وجدنا علفاً جيداً للدواب، وبعد ذلك لم نجد أي شيء ، وفجأة رأينا على الأرض آثار الخيل والجمال مما أثار فزعنا وأضحك الشيخ عواد الذي قال: هذه هي أماكن عنيبر التي نزح منها. راح عوَّاد يقص علينا القصة تلو الأخرى، مما جعلنا نسرع بالمسير إلى الأمام ، حيث كنا نسير بمعدل ٧٥٠٠ خطوة في الساعة، وهذا ما جعل شداد جملي يميل إلى الخلف، فاضطررت إلى النزول عن الراحلة لتعديله، في هذه الأثناء تحولت الريح إلى عاصفة، وبينما كنا نسير وسط التلال الخالية من النباتات وصلنا أعلى قمة في الطريق أتاحت لنا رؤية منظر جميل، فخلال ذلك الشعيب المملوء بحبات الرمل يمكن للمرء مشاهدة السهل الذي تتوسطه قلعة المعظم[١٠٤] ببركتها وإلى جانبها شجرة الطلح الوحيدة ، وبعد نصف ساعة وصلنا القلعة، واحتمينا خلف سورها المعاكس لاتجاه العاصفة القوية ، أما الجمال فقد سقناها بصعوبة عبر الدرج المرتفع إلى الفناء وأعطيناها العلف الذي جلبناه معنا . هنا رحب بنا قائد القلعة - التي لم يكن فيها

(١٠٤) تقع على مسافة ١٣٥ كم إلى الجنوب الشرقي من تبوك .



قلعة المعظم

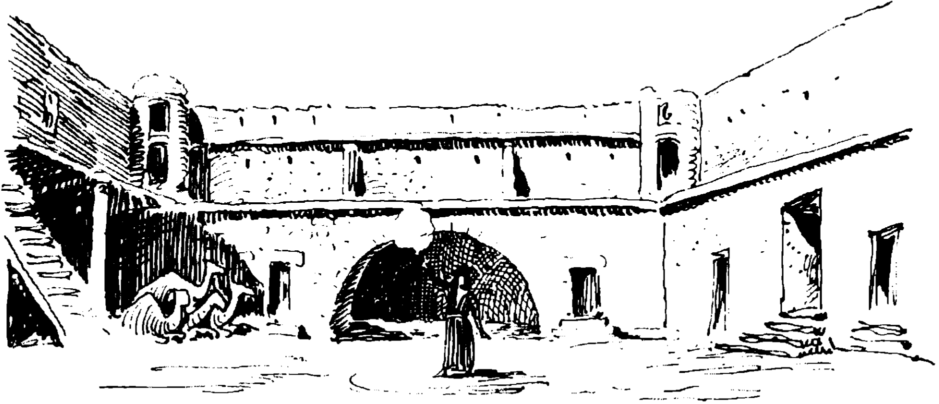
حامية - المدعو سي محمد أبو عمرو الشرقاوي، وهو رجل كهل لطيف من فاس، أحضره عبد القادر[١٠٥] إلى هنا مثله مثل سائر قادة القلاع المغاربة على طريق الحج[١٠٦]، وكانت له زوجان وابنان، وبرفقته صهره ورجل آخر يدعى أحمد، قدم لنا القهوة والتمر، وفي المساء قدم لنا الأرز . أما القلعة فقد بنيت سنة ١٠٣١هـ (١٦٢٢م) على شكل مربع منتظم الأضلاع وأبراج عند الزوايا تهدمت بعض قبابها ، ويتم إغلاق بابها بواسطة باب حديدي كبير ، وفي الفناء توجد قاعتان ذات أسقف مقببة ، وعدد من الغرف المغلقة ، وإسطبل مفتوح ، ثم درج حجري يؤدي إلى الدور الثاني الذي يحتوي على المطبخ ومجالس الحريم، وبين البرجين يمتد ممر ضيق كان يستخدم لأغراض دفاعية ، وفي الجهة الجنوبية يرتفع برج آخر للمراقبة والدفاع ، وفي خارج القلعة من ناحية الجنوب تمتد البركة بطول ٦٠ متراً وعلى جانبيها عمودان عليهما

---

(١٠٥) هو الأمير عبدالقادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني ، مجاهد جزائري ولد عام ١٨٠٨ م ، وتزعم قيادة الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده ، ولكنه اضطر تحت وطأة حرب الإبادة الفرنسية إلى الاستسلام في عام ١٨٧٤، حيث نفي إلى تطوان ، واستقر به المقام في دمشق التي مات فيها سنة ١٨٨٢ م .

(١٠٦) يطلق على هذا الطريق تسمية (طريق الحج الشامي)، للاستزادة حول مسار الطريق انظر علي غبان، الآثار الإسلامية في شمال غرب الجزيرة العربية ، ٢ ، الرياض ١٤١٤، ص ١٢٧.

آثار كتابة تآكلت بفعل التعرية ، وفي الجهة الجنوبية الغربية توجد شجرة طلح واحدة . في هذا العام أدت الأمطار التي سقطت قبل شهر إلى ملء البركة، على العكس من العام المنصرم، فلم يجد فيها الحجاج العائدون من مكة أي قطرة ماء .



فناء قلعة المعظم

تم وضع علف كثير للجمال في الفناء ، وكنا قد تناولنا طعام العشاء بعد غروب الشمس، ثم أعلن أن ثمة ضابطاً تركياً قادماً عبر طريق الحج للتفتيش، وهو آتٍ من العلا في طريقه هو الآخر إلى تبوك ، ومن أجل تحيته قام أحمد الذي يبدو أن خبرته العسكرية قليلة بحشو بعض المسدسات القديمة، وأطلقها في الهواء، وهو يدير وجهه من الخوف إلى الوراء، وسرعان ما ظهر الضابط في الفناء، وكان اسمه حسن أغا وهو قائد قلعتي تبوك وزمرد[١٠٧]، ومثله مثل جميع القادة على طريق الحج بين دمشق ومكة لديه منزل وعائلة في دمشق التي سيسافر إليها مدة ستة أشهر، حتى يحين موسم الحج القادم، وحينما دخل علينا لم نجد أن من الضروري النهوض من أماكننا لتحيته، مما جعله يأخذ مكانه بكل غرور دون أن يحيينا، ولكنه لم يلبث

(١٠٧) تقع على مسافة ٥٥ كم جنوب مدينة العلا .

إلا قليلاً من الوقت، حتى صعد مع رفاقه الخمسة إلى الدور الثاني، حيث أعدوا بأنفسهم القهوة والأكل ، وبينما أدخل حصانه إلى الفناء، ظلت جمال رفاقه في الخارج ، وكان من بين رفاقه رجل يدعى عبدالسلام من طنجة عمل من قبل في قناة السويس، وقد أخذ يقص علينا بلغة مشوبة بكثير من الألفاظ الفرنسية والأسبانية عن الأوقات الذهبية التي قضاها في بورسعيد، وكيف كان في وسع المرء أن يكسب بسهولة ٥ - ٧ فرنكات يومياً .

الأحد ١٨٨٤/٢/٢٤ بعد أن تناولنا القهوة مباشرة انطلقت القافلة قبل شروق الشمس يتقدمها راكب الحصان ، ثم نحن على جمالنا الخمسة ، وخلفنا ستة من الرجال ومعهم سبع مطايا ، وبعد وقت قصير من المسير وصلنا درب الحج المكون من أكثر من خمسين خطاً مطروقاً تسير باتجاه شبه مواز لذلك السهل الذي تكثر فيه أشجار الطلح. وبعد ساعتين من المسير شاهدنا في أقصى وادي الرمامية بعض النقاط السوداء ، وحينما اقتربنا منها اتضح أنهم عرب المزايدة المنتمين إلى قبيلة بني عطية يسيرون برفقة بغالهم وأغنامهم ، وكان من بينهم غلام أعمى أصيب بمرض قبيح دمر وجهه[١٠٨]. ولكنه كان على الرغم من فمه الممزق يتمتع في تلك اللحظة بتدخين سيجارته . لقد نزلنا لدى الشيخ عايد أبو فحيمان، حيث كان الخادم محمود يرغب في أن يشتري منهم السمن الذي نحتاج إليه جداً، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك، لأن ما لديهم قليل بالفعل ، وحينما أغراهم محمود بطبق مليء بالتبغ، لم يقاوموا ذلك، ووافقوا على الفور. وحيث إنه تم ذبح الذبائح لنا فقد طالت إقامتنا لديهم ، بالتحديد من التاسعة حتى الثانية عشرة والنصف ، ثم بدأنا بالتحرك في اتجاه الشمال ، ولكننا نزولاً عند رغبة مرافقينا من البدو اضطررنا بعد ساعة من المسير إلى النزول عند بدو آخرين يقطنون في واد فسيح قدموا إليه منذ الأمس، وهم من السعيِّد المنتمين أيضاً لقبيلة بني عطية، وشيخهم يدعى سالم الأعرج ، الذي حدثنا أنهم نجوا بصعوبة قبل يومين من غزو وقع عليهم، وبعد فترة قصيرة من وصولنا رأينا الدم على ميامين رقاب جمالنا وعلى مؤخراتها فعرفنا على الفور أن هؤلاء المساكين حقاً قاموا بذبح ذبيحة لنا. كان هوبر يشكو من آلام في ظهره،

(١٠٨) ربما يكون المقصود هنا هو مرض الجدري .

لذلك قررنا اليوم عدم مواصلة السير ، وقد صعدت مع الشيخ عواد إلى هضبة اسمها الطويِّل، وفي الطريق قمت باصطياد بضعة خنافس ذات ألوان سوداء تميل إلى البياض، وأخرى زرقاء ، أودعتها على الفور في محلول ماء الكحول لحفظها، قبل مغيب الشمس أحضر العشاء، وقد شاهدت عند عشيرة السعيِّد نجرين خشبيين مختلفي الشكل يستخدمان كلاهما في طحن حبوب القهوة . كان يجلس معنا في أثناء ذلك بدوي يدخن من غليون مكسور لم يتبق منه سوى جزء يسير . وفي المساء قمنا بزيارة إلى خيمة الشيخ هليل الذي نزل عنده حسن أغا مع رجاله، وخلال الحديث أدركنا أن هليلاً أكثر دراية من نومان ومن الشيخ عواد في معرفة الأماكن وأسمائها، وفي هذه اللحظة نظرت إلى هوبر وبإشارة من أعيننا قررنا دون تردد سؤاله عما إذا كان بإمكانه مرافقتنا خلال رحلتنا إلى تبوك، ثم العودة معنا إلى تيماء، فوافق فوراً .

الإثنين ١٨٨٤/٢/٢٥ انطلقنا في السادسة والربع دون تناول طعام الإفطار، وقد بدأ حجم قافلتنا يتزايد بالتدريج ، فعلاوة على الشيخ هليل وذلوله ، كان معنا أربعة من الضأن واثنتان من الماغز أخذها الضابط حسن أغا من مضيفيه ، ولا ندري هل دفع ثمنها ، أم أخذها مجاناً أو قسراً ، وبعد ساعة من المسير تجاوزنا جبل الخنزير منحرفين إلى وادي الصاني المحاط من كلتا جهتيه بجبال حمراء تميل إلى الصفرة، وبطنه مغطى بالحمم البركانية القديمة ومكتظ بالأحجار الكبيرة التي كانت تشكل عائقاً أمام تقدم الجمال إلى الأمام . بعد أن قمنا من قبيل الحرص بملء القرب بالماء من إحدى الآبار، واجتزنا تلك الأحجار المتراكمة في بطن الوادي شاهدنا نحو اليمين بركة مملوءة بالرمال ، وسد يمتد بين جهتي الوادي، قال لنا هليل: إنه جسر، وحينما اقترب النهار من منتصفه وجدنا قليلاً من العشب والحطب، وسرعان ما قمنا بإعداد الخبز وأكلنا بعض التمر الذي كان سيئاً جداً مثل صاحبه، واضطرني خلال فترة بعد الظهر إلى النزول ثلاث مرات عن ظهر ناقتي لأتقيأ . على الرغم من تلك الصخور التي أعاقت مسيرتنا في وادي الصاني إلا أننا كنا نسير بسرعة وصلت إلى ٧٢٠٠ خطوة في الساعة،

---

(١٠٩) تقع على مسافة ٧٠ كم إلى الشمال الشرقي من تبوك .

ولم يحل علينا المساء إلا ونحن ندخل قلعة الأخضر[١٠٩] . وبسبب التقيؤ الذي لازمني طوال فترة ما بعد ظهر هذا اليوم لم أجد صعوبة في الاستغناء عن وجبة العشاء ، وبدلاً عنها اكتفيت ببضعة أقداح من الشاي، ثم تمددت على فراشي للنوم، وأنا استمع للهجة الدمشقية التي يتحدث بها بعض مرافقينا، وإلى محمود حينما طلب من حسن أغا بعض التبغ للنارجلية ، خلال الليل لم يسقط سوى القليل من المطر .

الثلاثاء ١٨٨٤/٢/٢٦ انطلقنا عند الساعة السابعة صباحاً ، وما أشد دهشتي حينما رأيت أفراد القافلة زادوا خلال الليل ! ذلك أن حسن أغا أخذ ابنه كمال ليسافر معه إلى دمشق، بعد مسيرة ساعة استرحنا ، لكي نتناول طعام الإفطار . وحيث إن القافلة الرئيسة انطلقت أمامنا بقينا نحن لنتسلق هضبة جرينات الغزال التي أتاحت لنا رؤية منظر عام ممتد لمسافة بعيدة ، ففي الشمال الغربي يرتفع من السهل جبل غريب المنظر يسمى جبل المنبر، وهو يقع في مقدمة سلسلة جبال شرورا ، في حين كان منظر الجبال في الجهة الغربية شديد الروعة،



شجرة الغضى

(١٠٩) تقع على مسافة ٧٠ كم إلى الشمال الشرقي من تبوك .

حيث جبلا شيبان ووتار اللذان تعلو قمتيهما الثلوج الكثيرة، وعلى الرغم من تساقط المطر القليل إلا أن ذلك لم يحل بيني وبين رسم ذلك المنظر ، وبعد ذلك سلكنا طريقاً أقصر ولكنه أكثر مشقة أملاً في اللحاق بالقافلة التي انطلقت أمامنا، وعلى حين فجأة التقينا بها وهي قادمة من الجانب، لدرجة أن الشيخ هليلاً اعتقد أننا سنتعرض لهجوم، فأسرع لينوخ جمله، ويجهز السلاح استعداداً لملاقاة العدو، بيد أن ذلك الخوف سرعان ما تحول إلى ضحك حينما اقتربوا منا . في الساعة الثالثة أقمنا المعسكر في وادي غُضي، الذي اشتق اسمه من كثرة أشجار الغضى فيه .

الأربعاء ١٨٨٤/٢/٢٧ مع شروق الشمس بدأنا في المسير الساعة السادسة، وقد شاهدنا هناك قطعاً حجرية ملونة تغطي الأرض ، وبعد ساعة ونصف خيمنا في وادي الأثل الذي تصب فيه أودية شيبان ، وتار ، ولياً ، ويبلغ عمقه ٣ - ٤ أمتار ، وهو مكتظ برمال رمادية اللون، وتنمو على حوافه أشجار الأثل وغيرها من النباتات. بعد أن أكلت الجمال حتى شبعت واصلنا المسير





منطقة مقابر شوهر

عبر السهل باتجاه الشمال الغربي قاطعين مخيم بادية مهجور توجد فيه أكوام من فضلات الإبل ، وهنا سأل هوبر هليلاً عما إذا كانت هذه البقايا من مخيم قديم لهم ؟ فأجاب بقوله نعم إنها كانت لنا . في حوالي الساعة التاسعة اقتربنا من مرتفع مسطح يسمى شوهراً تعلوه هضبة مخروطية الشكل، ولدهشتي رأيت هناك مجموعة كبيرة من المنازل الحجرية الصغيرة الحجم، وقد اعتقدت - رغم معارضة هوبر - أنها قبور وليست أطلال مدينة، وبالفعل فحين اقتربنا منها تأكد لنا أنها المقابر القديمة لمدينة تبوك الواقعة على مسيرة تتراوح ما بين ثلاث إلى أربع ساعات باتجاه الشمال.

بعد أن صعدنا المرتفع كان في وسعنا أن نرى بوضوح تلك الأبنية الحجرية التي اعتقد البعض أنها مساكن، ولكن صغرها يؤكد العكس فإنها لا تتعدى كونها أضرحة مقابر، يتراوح ارتفاعها ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار ، وتتناثر بشكل غير منتظم فوق السطح الذي تقدر مساحته بحوالي ثلاثة إلى أربعة أكيال مربعة، ويتوسطه أيضاً تل دائري الشكل ، أما تعدادها فيصل إلى مائتي قبر على الأقل، بنيت جميعها بحجارة رملية غير مهذبة، صفت فوق بعضها البعض، دون استخدام المونة لتثبيتها ، وهي تأخذ أشكالاً شبه مربعة، والقليل منها يأخذ شكلاً دائرياً، أما من الداخل فهي مسقوفه بصفائح من الأحجار، ويصل تعداد حجرات بعضها إلى خمس حجرات صغيرة ، وحينما قمنا بحفرية مبسطة لم نعثر على هياكل أو أي مقتنيات أخرى ، كما لم نجد أي نقوش أو علامات تدلنا على ماهية تلك البنايات المشابهة تماماً للنواميس[١١٠] المعروفة في شبه جزيرة سيناء . وفي الجهة الجنوبية ثمة جدار ممتد ربما يكون بقايا من سور، وبعض المباني الحجرية مندفنة تحت ركام الأتربة وفوقها العديد من الكسر الفخارية .

من هنا انطلقنا مسرعين نحو تبوك التي كنا نشاهد معالمها منذ الصباح ، وقد كان يقع أمامنا في السهل ناحية اليمين مجموعة جبال تسمى العريق ، وإلى الشمال توجد غابة من النخيل وبينهما قلعة الحجاج المحاطة بمجموعة من بيوت الطين ، وإلى الشمال جبل المنبر،

---

(١١٠) مجموعة من المقابر يطلق عليها تسمية النواميس .

وهناك حوالي خمسين منزلاً من الطين تقف خالية وفي حالة سيئة لا يمكن أن يستدل المرء منها مطلقاً على أن مدينة تبوك قد لعبت دوراً هاماً في التاريخ العربي المبكر، ولم يكن هناك من السكان سوى أفراد القلعة الخمسة وثلاثة من الكلاب الجائعة ، واحد منها ليس له سوى ثلاث أرجل فقد الرابعة في مصيدة الضباع التي قطعتها إرباً ، وبعض القطط التي تتجمع حين تقديم وجبة الطعام ، وعدد آخر من الديكة التي تنبعث أصواتها من أماكن متعددة .

يشير ذلك النقش المكتوب على قطعة من القيشاني فوق الباب إلى أن القلعة (قلعة الحجاج) بنيت أو جددت في عام ١٠٦٤هـ (١٦٥٤م)[١١١] ، وهي تقع وسط بستان نخيل مهمل وفي منطقة ينهل ماؤها من عين جارية ، لا يصلح ماؤها للشرب ، ولا يتحمله إلا النساء، كما يدعي الخادم محمود ، وعلى العكس من ذلك يوجد في فناء القلعة بئر يُسحب منها الماء العذب .

حين ترجلنا عند القلعة استقبلنا قائدها الحالي محمد أغا بترحاب ثم رافقنا إلى الداخل. وأثناء تناول القهوة أخذ الحديث مجرى ينم عن أننا الآن في وسط اجتماعي شبه متحضر، حيث دار الحديث حول الأحداث في دمشق وشرق الأردن ومعان، وحينما جاء الحديث عن وادي موسى (البتراء)[١١٢] الواقع على مقربة من هنا حاولت بصعوبة بالغة أن أكبح مشاعر شوقي لرؤية عاصمة الأنباط وهي أمنية لم تتحقق ، فالطريق إلى هناك يمر عبر مناطق سكنى قبيلة الحويطات المتعادية مع قبائل رفاق رحلتنا ، فنومان من شمر ، وعواد من الفقراء، وهليل من بني عطية ، في هذه الأثناء ذكر لنا قائد تبوك أن الشيخ محمد بن عطية استطاع قبل بضعة أيام أن يوجه غارة موفقة على بعض أفراد قبيلة الحويطات سلبهم كل ممتلكاتهم، ولم ينجُ منهم سوى ستة من الخيالة . مثل ذلك يمكن أن يكون مصيري في حالة أي مواجهة لنا مع قبيلة الحويطات ، خاصة وأنها تستعد الآن للأخذ بثأرها. وفي المساء عزف المغربي عبدالسلام على جيتارته المغربية، كما غنى بعض أغنيات شجية بصورة لم أسمعها

(١١١) بنيت قلعة تبوك في عهد السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٥٩ م ، والتاريخ الذي أثبته المؤلف هنا هو تاريخ تجديد بناء القلعة على يد السلطان محمد الرابع (انظر علي غبان ، الأثار الإسلاميه في شمال غرب المملكة، ٢، ص ١٥١).

(١١٢) مدينة أثرية تقع في جنوب الأردن .

منذ وقت بعيد ، فقد كانت تأخذ طابع الموسيقى الغربية ، على العكس من غناء البدو الذي يتسم بطابع الحزن والرتابة .

الخميس ١٨٨٤/٢/٢٨ كان مقرراً أن نتجه اليوم لتفقد أطلال مدينة تقع على مسيرة ساعتين أو ثلاث باتجاه الغرب من هنا، ولكن هبوب الرياح العنيفة والباردة جداً جعلنا نتراجع عن الفكرة، وبدلاً من ذلك قمنا بتنظيم يومياتنا ، وحيث إن حسن أغا سيغادر هو ورفاقه يوم الغد إلى دمشق قمنا بكتابة رسالة ليأخذها معه إلى محمد سعيد باشا (رئيس قافلة الحج من دمشق إلى مكة) نشكره فيها على حسن استقبالنا في القلاع الواقعة في طريق الحج ، ونظراً لكوني مضطراً إلى توفير ما تبقى معي من الورق قمت بكتابة رسالة على قطعة ممزقه من الورق إلى بشارة أصفر (مدير منزل نائب القنصل الألماني لوتكه في دمشق) أبلغه فيها أنني مازلت على قيد الحياة، وأنا الآن في تبوك في حالة جيدة ، وقد علمت بعد ثلاثة أشهر أن الرسالة وصلت إلى مكانها الصحيح .

الجمعة ١٨٨٤/٢/٢٩ بعد هدوء الريح والمطر توجهنا بعد ظهر اليوم إلى جبل العريق الذي مر ذكره سالفاً للبحث عن مدينة تبوك القديمة ، ولكننا لم نتمكن من اكتشاف أي أثر لذلك، وكل ما وجدناه عدد غير مهم من النقوش القديمة ، ورسمة صخرية لرجل يحمل أنواعاً متعددة من الأسلحة ، وأخرى لفتاة منقوضة الشعر، والى اليمين واليسار منها صورة لمقصين. وهناك باتجاه الغرب (١٤ باتجاه الجنوب) شاهدنا من منطقة تهامة جبلاً عالياً يقع بعيداً عنا، وهو يتلألأ من جراء سقوط الجليد عليه ، قال لنا هليل، إن اسمه الدُبغ ، وحينما رأينا عاصفة تتقدم من الجنوب اضطررنا إلى العودة إلى القلعة، وبمجرد أن انتهينا من طعام العشاء الذي أحضر قبل غروب الشمس ، أظلمت السماء فجأة وانهمرت الأمطار المصحوبة بالرعد والبرق ، فاحتمينا داخل قاعة ذات قبة مفتوحة نحو الفناء، مما مكننا من رؤية هطول المطر مدة ساعة ونصف في اندهاش شديد.

بعد أن انزاحت السحب المطرة من السماء تماماً أراد هوبر ألا تفوت عليه الفرصة لرؤية

نجمة الزهرة وهي تمر من فوق القمر التي ظل يحسب لها حساباً منذ فترة، لذلك قام على الفور بنصب أجهزته ، وأخذ ينظر من خلال جهاز مقياس الزوايا (Thodolit)، وكلفني بالمراقبة من خلال جهاز مقياس الزمن (Chronometor)، ولكنه حرصني قائلاً: بمجرد أن أرى نجمة الزهرة تمر من فوق القمر ، سأناديك بكلمة (قف) لكي توقف عداد الثواني، وقد كنت رغم سعادتي بهذا العمل الجديد أراقب عداد الثواني بحذر وخوف شديد ، وبعد نصف ساعة من المراقبة أصبت خلالها بانفعال شديد ، وحيث كان الجميع هنا يلتزمون صمتا رهيباً، ولم يجرؤ أحد منهم حتى على التنفس بصوت مرتفع ، قال لنا هوبر: إن نجمة الزهرة لم تمر من خلف القمر ، ولكنها مرت مباشرة من تحته ، وهكذا خدعتنا السيدة الزهرة في تبوك . ولكننا ومن أجل تعويض ذلك قررنا القيام بمسامرة ليلية ممتعة ، فالمغربي تناول جيتارته وأخذ يعزف عليها بعض المقاطع الموسيقية ، وينشد الأغاني المستمدة من تراثه، وآخر بدأ يبحث عن قطعة العملة التي قمنا بإخفائها وهو مغمض العينين، وكان صوت جيتارة المغربي يسرع ويرتفع كلما اقترب الباحث من قطعة العملة المخفاة . بعد ذلك جاء دور الألغاز التي طالما حاول البدو من مرافقينا كشف حلولها من خلال تصرفات من قام بطرح اللغز وحركاته. وحينما بدأنا بقراءة ما يدور في الخواطر (قراءة الأفكار)، ازدادت دهشتهم ، وتعالت انفعالاتهم وهم غير مصدقين لما يجري .

السبت ١٨٨٤/٣/١ أتيحت لي الفرصة للحصول على رأس غليون قيل لي: إنه منحوت من حجر الهلال الذي يوجد في تهامة ، وفي هذا اليوم بدأنا رحلة العودة إلى تيماء ، حيث انطلقنا مدة ساعة نحو الجنوب، ثم استرحنا عند نبع يسمى الرائس ، وكانت هناك مجموعة من أشجار الأثل الرائعة كونت شكلاً بديعاً فوق فتحتي المياه بصورة لم أشهد لها مثيلاً من قبل في رحلتي إلى جزيرة العرب ، وبالقرب منها بعض أشجار النخيل المهملة ، وبقايا من أحجار مهذبة (منحوتة) . ومن هنا اتجهنا مرة أخرى نحو مدينة الموتى شوهر، حيث قمنا هناك بإجراء حفرية في برجين، حتى اصطدمنا بالأرض الصخرية، دون أن نتمكن من الحصول على معلومات عن الفترة الزمنية ، أو حتى صاحب القبر ، وكل ما عثرنا عليه يتمثل فقط في

آثار أقدام ضبعة ، وبعض بقايا العظام . وبينما كنا نرى في الجنوب السحب المطرة تتجمع حول جبل الدباسيات الذي يقع شوهر على مسايله الشمالية ، انطلقنا نحو الشرق عبر وادي الأثيلي . في وادي الغضى وفي مكان قريب جداً من مخيمنا في السادس والعشرين من شهر فبراير حططنا الرحال للنوم ، ولكنني بمجرد أن استلقيت على الفراش الممدود على حافة أحد الأدغال انهمر المطر المدفوع برياح الغرب ، فبللتني المياه رغم المعطف والثوب اللذين أرتديهما ، ولكن همي الوحيد انصب على تغطية أمتعتنا بالفراش لتظل جافة ، وحينما توقف المطر فرشت فراشي على الأرض المبللة ونمت بعد أن تناولت بعض التمر ، وأثناء الليل هطلت الأمطار مرة ثانية ولكنها لم تكن قوية ولم تثر فزعنا كالسابقة .

الأحد ٢/٣/١٨٨٤ أيقظنا هليل قبل الفجر لكي يبلغنا أنه سمع من الجنوب أصوات رغاء الإبل ، وسرعان ما ركب ليأتي بالخبر اليقين قائلاً: إنهم قبيلته (بني عطية)، الذين جاءوا ليلة البارحة من الأخضر لكي يستقروا هنا ، فكان علينا بالطبع أن نقبل استضافتهم لنا ونتجه إلى مخيمهم . وفي طريقنا إلى هناك شاهدنا العديد من الإبل التي تم حلبها لنا بناء على أمر من هليل ، حيث قدم لنا الحليب الطازج، (قال لنا هليل إن لديهم ١٢٠٠ جمل)، ولم نكد نصل إلى المخيم إلا وقد انتهت النساء من نصب العديد من الخيام ، أما نحن فقد توقفنا عند أحسنها ، وفور وصولنا قمت باستبدال ثوب الصوف الذي كنت أرتديه ، ثم جلست على شجرة شوك لأستريح في الهواء وتحت الشمس، في هذه اللحظة بدأ الناس يتجمعون تدريجياً لكي يرحبوا بنا، أو على الأقل لكي يشاهدونا، وكان عليّ مراراً أن أظهر لهم صورة مفرج، لأن الكل قد سمع عنها ويرغب في رؤيتها ، وفي حوالي الظهر وصلت خيمة شيخ القبيلة، ثم جاء هو بعدها بقليل ، واسمه صقر أبو علي، وهو شقيق صديقنا القديم محمد بن عطية . وقد عرفت للتو أن محمد بن عطية ليس هو شيخ القبيلة كما قيل لي ، رغم ما يبدو عليه من مظاهر تخوله لزعامة قبيلته ، كما عرفت هنا أيضاً أنه غادر إلى تبوك لكي يحضرنا من هناك . وبعد أن حضر الشيخ صقر يجب علينا الآن الانتقال إلى خيمته. وعند ما ذهبت لأتفقد ركائبنا اكتشفت أن شخصاً ما منهم قام بقطع سير جلدي وحلقة معدنية من الشداد

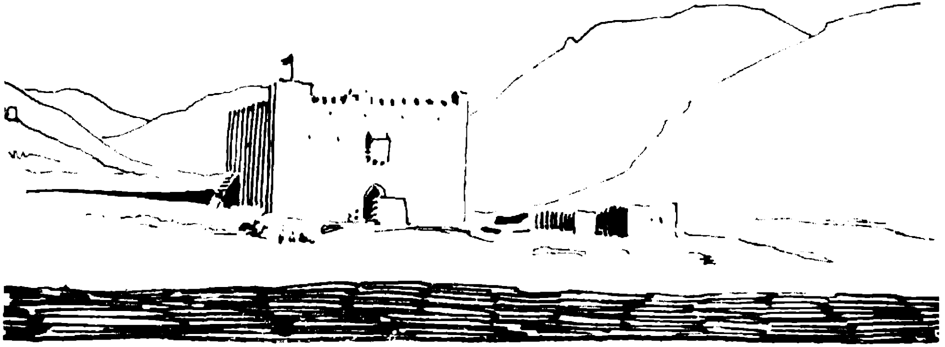
وسرقهما، وبعد أن أخبرت الشيخ صقر بذلك انزعج كثيراً وردد قائلاً: يا للخجل ! ولكن ما ذا يمكن للمرء أن يفعل في مثل هذه الحالة ، فكيف يمكن معرفة السارق ، ومن ذا الذي يريد فضح سره؟ عند المساء سمعت أصوات قطعان الماشية وهي تعود إلى المخيم ، وتعجبت كثيراً من غرابين كانا يقفزان بهمة ونشاط هنا وهناك على ظهر البعير ورقبته ، وهنا أخبرني أحدهم، أن الغربان ترافق قطعان الجمال بإخلاص ووفاء ، بل إنها تقوم علاوة على ذلك من خلال مناقيرها الحادة بنقر القردان العالقة بجلودها .

حينما حان موعد العشاء أحضر صحن مملوء بلحم الذبيحة التي ذبحها هليل تكريما لنا ، ولم يكن يرافقه أرز أو خبز أو حتى حساء . بينما كنت أتأهب للذهاب إلى الراحة بدؤوا بعمل قهوة للمرة الثانية والتي أعلم مسبقاً إن شربت منها فلن أستطيع النوم بسهولة. رغم حلول المساء إلا أن الحيوية ظلت تدب داخل المخيم، وتواصلت عملية الحلب دون توقف ، كما تناهت إلى مسامعي أصوات الإبل وهي تجتر ، ولكني شيئاً فشيئاً بدأت أعتاد على تلك الموسيقى الصحراوية ، وحينما كنت أوشك على النوم - ربما يكون الليل قد انتصف - بدأت الحياة من جديد تدب في المخيم ، حيث ترجل أمام خيمتنا هجان من على ظهر راحلته ، إنه محمد بن عطية وابنه الذي كان في الأمس يقيم على مسافة ساعة واحدة إلى الشرق من الرأس الذي كنا في الوقت نفسه نستريح فيه أيضاً ، حيث انطلق من هناك إلى تبوك واستفسر حينما وصلها عن أي من الطرق سلكنا، فعاد مسرعاً يتتبع خطانا لكي يتمكن من ملاقاتنا . أحضر هليل الحليب والتمر والقهوة التي أشربها هذه الليلة للمرة الثالثة ، فكان لزاماً علينا سواء أبينا أم رضينا إظهار اهتمامنا بقدوم محمد مما اضطرنا إلى المشاركة في الحديث طوال ساعتين من الوقت قبل أن نتمكن من الذهاب إلى الفراش ، أما محمد فقد ظل يتحدث إلى أخيه صقر في الخيمة المجاورة لخيمتنا عن آخر مغامراته مع أفراد قبيلة بني صخر والحويطات .

الإثنين ١٨٨٤/٣/٣ على الرغم من أن محمد بن عطية حاول قدر المستطاع أن يقنعنا بالبقاء يوماً آخراً ضيوفاً عندهم إلا أننا رأينا أن من الأفضل لنا متابعة رحلتنا إلى تيماء .

بعد أن أعطينا الشيخ هليلاً ٨ مجيديات (حوالي ٣٠ ماركاً) نظير ما قام به خلال مرافقته لنا ودعنا الجميع ، ولكن الشيخ هليلاً لم يقبل أن يتركنا ، بل أصر على الرجوع معنا ، وإيصالنا إلى تيماء ، فانطلقنا عبر الطريق نفسه الذي سلكناه قبل أيام قلائل ، وبينما نحن نسير عبر الطريق المسمى درب خبيني وصلنا مرة أخرى المكان الذي أقمنا فيه في الثالث والعشرين من فبراير والمسمى دود أيوب ، حيث تنتشر هناك صفائح حجرية متآكلة بفعل التعرية لفتت بأشكالها الغريبة كثيراً من الحجاج المسلمين الذين أفاضوا في التحدث عنها . تجدر الإشارة إلى أن أيوب (عليه السلام)لم يتقيأ الدود في هذه المنطقة فقط بل أيضاً في منطقة النقرة الواقعة في شرق الأردن ، وبالذات في تلك المنطقة التي يقع فيها دير أيوب ، ولكن الفرق بين هذه وتلك يكمن في أن الأحجار هنا تأخذ لوناً بنفسجياً . بينما كان مرافقونا يؤدون صلاة العصر أحضر لي سعيد حفنة من الأحجار الصغيرة ذات الشكل البيضاوي واللون البنفسجي التي هي حسب ما تذكر الرواية التاريخية عبارة عن دود تقيأه أيوب من أحشائه فتحجر مع مرور الزمن ، ثم قال لي: خذها واحتفظ بها لتذكرك بهذا المكان ، ولتكن لك درساً وعبرة في السراء والضراء . وبعد أن تزود رفاقنا بدود أيوب انطلقنا تاركين الصخرة خلفنا . وقد لاحظت أثناء الطريق أننا كلما اقتربنا من قلعة الأخضر قلت الأعشاب الخضراء ، وذلك على العكس مما كان عليه الحال قبل أيام قلائل فقد أدى مرور أفراد قبيلة بني عطية خلال هذه المنطقة أثناء نزوحهم إلى أكل حيواناتهم كل الأعشاب الخضراء هناك .

أثناء مسيرنا عبر الطريق قال لي الخادم محمود انتبه أمامنا مراغة ، ولكنني بسبب شدة الريح ، وعدم استيعابي لمصطلح (مراغة) التفتُ إليه وسألته عما يقول ، في هذه اللحظة بركت ناقتي فجأة، مما جعلني أطير من فوق ظهرها بشكل قوس، وأسقط على الأرض مسافة مترين أو ثلاثة ، فنهضت فوراً دون أن يصيبني مكروه ، وبدأت أضرب الناقة التي طرحت نفسها على الأرض، وراحت تحرك جسمها ذات اليمين وذات الشمال، مما أحدث أضراراً فادحة في الأمتعة من خلال ضغطها عليها ، وحينما أجبرتها على النهوض تعمدت اقتيادها إلى مكان مشابه (أي مراغة)، وضربتها بضع ضربات لن تنساها . عند الساعة الثالثة وصلنا قلعة الأخضر التي أشار النص المكتوب على مدخل بوابتها إلى أنها شيدت في عام ٩٣هـ



قلعة الأخضر

(١٥٣٢م) ، ويتوسطها بئر يستخرج ماؤها الذي ينقل إلى ثلاث برك مسورة في الخارج عن طريق ساقية يجرها حماران . كان طعام العشاء اليوم يتكون من الشعير المزوج بقليل من العدس .

الثلاثاء ١٨٨٤/٣/٤ اشترى مرافقنا عواد لعائلته من أولئك الموجودين في القلعة خمس قطع من القماش ذات لون أزرق غامق ، ومعها أيضاً خيوط من اللون نفسه، وقد بلغت تكلفة كل واحدة منها مجيدياً واحداً (٣.٧٠ ماركات) .

انطلقنا في حوالي الساعة السادسة والنصف بسرعة حوالي ٧٥٠٠ خطوة في الساعة لاجتياز تلك المنطقة الخالية من الأعشاب. وقد كنا في البداية نريد أن نسلك الطريق عبر وادي الصاني ،ولكن الشيخ هليلاً نصحنا بعدم المسير من خلاله دون أن يبرر لنا السبب في ذلك، واكتفى بالإشارة إلى ذلك اللسان الجبلي المرتفع أمامنا، والذي سبب لنا الكثير من المتاعب خلال مرورنا عبره في الخامس والعشرين من فبراير ، وقال لنا: هنالك يمكن أن يكمن لنا قطاع الطريق ، فقلت له: يمكن لنا أن نسير واضعين البنادق بأيدينا، ونرى بعد ذلك ما يمكن أن يحدث ، هنا انفعل الشيخ هليل ، وقال: كيف يمكن لنا أن نسير خلال تلك الأراضي

الوعرة؟ فاللصوص يمكن لهم أن يكمنوا في مكان غير ملحوظ خلف قطع الأحجار البركانية الكبيرة تاركيننا نسير بهدوء إلى الأمام ، ومن ثم يطلقون النار في ظهورنا ، كما أضاف أيضاً أنه سمع أثناء وجودنا في تبوك أن حسن أبو ذراع ومعه ثمانية من أفراد قبيلة بلي يجولون في الأرض للبحث عنا كي يسلبوا كل شيء معنا ، لذلك يجب أن نحترس من المسير عبر هذا الطريق . نعم لقد كان الشيخ هليل محقاً في مشورته تلك ، حيث عرفنا بعد بضعة أيام حينما وصلنا تيماء ، أن أولئك اللصوص كانوا يترصدون لنا هناك ، على أي حال لقد نجونا منهم بسبب اتباعنا لمشورة هليل ، حيث اتجهنا إلى اليسار ناحية الشرق إلى وادي المشع ، ثم سرنا عبر طريق وعر بين الأحجار البركانية والصخور الرملية إلى الأمام ، وأخيراً خلال ممر ضيق إلى وادي أبو ثور ، وهنا في ضوء النهار حططنا الرحال في منطقة معشبة لم تتعرض للرعي حتى الآن، حيث تقع أمامنا مباشرة مغارة صغيرة شاهدت أمامها وداخلها آثار وفضلات ظربان(١١٣) . وإلى الجنوب منا كانت السحب المطرة تتجه من الشرق إلى الغرب، وعلى مسافة ساعة تقريباً باتجاه الجنوب الغربي يقع جبل الطويل، وكذلك معسكرنا الذي أقمنا فيه ليلة الرابع والعشرين من شهر فبراير ، أما إلى الشمال منا فيقع جبل سالوب .

الأربعاء ١٨٨٤/٣/٥ شاهدنا فور انطلاقنا قبل شروق الشمس آثار خمسة من الجمال، واثنين من المشاة قطعوا بطن الوادي بسرعة قصوى ، وكانت أرجل اثنين من هذه الجمال تتعمق آثار أقدامهما في الرمل، مما يشير إلى أن كل واحد منهما يركبه اثنان من الرجال ، وإلى جانبها يتضح آثار أقدام شخصين تصل خطوة الواحد منهما إلى المترين ، مما يدل على أنهما كانا متعلقين بشداد الجمل ويجريان معه بسرعة ، إنهم بالتأكيد حسن أبو ذراع ورفاقه اللصوص الثمانية الذين لاحظوا من خلال آثار الأقدام على الرمل أننا لم نصل بعد هذا المكان ، لذلك فمن المرجح أنهم تقدموا مسرعين للهجوم علينا في مكان ما من شعاب جبل فروة الذي يجب أن نحصل منه على الماء اللازم، ولكن مرافقينا من البدو أشاروا علينا أن نلتف حول الجبل من الناحية الشرقية، ونستغني عن الذهاب إلى منهل الماء هناك . شاهدت

(١١٣) بفتح أوله حيوان ذو رائحة كريهة يشبه الهر .

عند ذلك الطريق المنبسط لهضبة البياضية التي تركناها على يسارنا فضلات ما يسمى بقر الوحش ، وهو غزال أبيض كبير ذو قرون حادة مستقيمة تمتد إلى حوالي المتر ، لم يمض سوى القليل من الوقت حتى فاجأنا تلك البقرة الوحشية في منخفض من الأرض مما جعلها تقفز فوراً من مكانها وتنصرف وهي تعدو. وهنا يمكن للمرء أيضاً أن يلاحظ بوضوح آثار أقدام خيل قبائل الحويطات وبني صخر المتحالفة حينما أغاروا على عنيبر بن عطية قبل تسعة أسابيع وسلبوه كل ما يملك . وأثناء الطريق توقفنا لعمل الخبز في منطقة يتوافر فيها العشب، وينمو فيها بكثرة نبات الكحلة الذي يسمى أيضاً الرحيلة، وهو ذو أوراق كثيرة الشوك وأزهار زرقاء جميلة، يتم أيضاً طبخها كنوع من الخضار . قبل أن نقترب من جبل الفروة نزلنا إلى واد صغير يسمى وادي باؤود، حيث شاهدنا هناك ثلاثة غزلان انطلقت أمامنا مذعورة. واجتزنا بسرعة قصوى الجهة الشمالية الشرقية لجبل فروة حتى وصلنا الجهة الجنوبية منه عند مدخل وادي حصاة القنيص ، كان ظلام الليل قد حل ونحن نخرج من الوادي، وهناك نزلنا تحت سقف حجري، بجانب مكان وفير العشب ، وحيث كان كل واحد منا يعاني بدرجة أو بأخرى من شدة العطش، إلا أن أياً منا لم يجرؤ على الذهاب لإحضار الماء من النبع الواقع على مسافة كيل واحد من مكاننا (تخوفاً من حسن أبو ذراع) ، فالقرب ليس فيها ما يزيد على لتر واحد فقط، وهو لا يكفي بأي حال لإرواء عطش ستة أشخاص ، لذلك لم يكن أمامنا سوى أن نختار أحد أمرين ، إما أن نقسمه بيننا أو نستخدمه في صنع القهوة ، فاتفق الجميع على الأمر الثاني ، بعد ذلك رقدنا ويد فيها السيف والأخرى فيها البندقية، ولكي نكون أكثر استعداداً تناوب رفاقنا البدو الحراسة ليلاً. أصبحنا بخير ولكن لا أدري هل هم لم يلاحظونا، أم أنهم افتقدوا الشجاعة لمهاجمتنا ؟

الخميس ١٨٨٤/٣/٦ يوافق اليوم عيد ميلاد حاكم بلادي الملك كارل فون فرتمبرج مما جعلني أتذكر وطني بقلب مفعم بالحنان والشوق ، ولكني رغم ذلك مضيت صامتاً أقطع الفيافي تحت وطأة العطش، وغترتي ملفوفة على فمي وخشمي، أترقب فقط ظهور خبرة الرولة أمامنا ، ولكن الساعات تمضي والطريق يطول ، وبعد أن أقبلنا عليها أسرعنا والسعادة

تغمرنا، أملاً في الوصول إلى الغدير الذي رأيناه قبل اثني عشر يوماً مملوءاً بالماء الممتد حوالي مائة خطوة وعمقه نصف متر تقريباً ، ولكن هيهات فلم نجد هناك قطرة ماء واحدة ، وكل ما وجدناه جفافاً أدى إلى تشقق قطع الطين على سطحه ، وهنا نظر بعضنا إلى بعض وسألنا نومان عما إذا كان يعرف منهل ماء قريباً من هنا ، لكنه أجاب بفظاظة، إذا لم يوجد الماء هنا في الخبرة الكبيرة فالأمل ضعيف بوجود الماء في مكان آخر. ركبت ناقتي محبطاً أسير إلى الأمام، وحلقي ولساني يتشققان من الجفاف ، وعلى العكس مني كان هوبر وبقية البدو فهم معتادون على العطش ،لم لا فسكان الصحراء يتعلمون منذ الصغر كيف يتحملون العطش .

على مسيرة حوالي ٨ ساعات إلى الأمام ظهرت أمامنا قمة جبل غُنيم الذي يرتفع شاهقاً فوق واحة تيماء ، ولكنني في تلك اللحظة لم أبال بالأمر ، وحين بلغ قيظ الظهيرة أوجه ، صاح هليل فجأة هناك ماء أمامنا وكانت صيحته تلك أشبه بشعاع من البرق ، فتناولت فوراً إناء الشرب النحاسي من المحفظة المعلقة على الشداد ، وقذفت حبل اقتياد ناقتي (الرسن) على نومان ، ثم قفزت من فوق ظهر الناقة، وألقيت بنفسي على نقرة الماء، فأبعدت الوحل من على سطح الماء جانباً وملأت الإناء وشربت قدر ما استطعت، ثم شرب رفاقنا، نعم لقد ابتهلنا إلى الله بالحمد والشكر بكل صدق وأمانة، وبعد ذلك عبأنا القرب بقليل من الماء الكافي ، ثم جاء دور الجمال التي انطلقت تتزاحم إلى حيث الماء فطأطأت رؤوسها وبدأت تشرب هي الأخرى، وما هي إلا فترة قصيرة من الوقت حتى أتت على الماء ومعه الوحل الذي فوق سطحه، وبعد أن شربت أطلقت عنان رؤوسها إلى السماء بكل سرور . وخلال إقامتنا القصيرة هناك وجدت الفرصة سانحة لكي أقضي على ضيف ثقيل (إنه القمل)، جلبته معي من قلعة الأخضر بعد أن استرحت منه مدة ستة أشهر متتالية .

أصبح علينا الآن أن نصل إلى تيماء قبل حلول الليل ، وهنا أخذ نومان ينشد الأغنية تلو الأخرى ابتهاجاً بقرب وصوله مسقط رأسه ، وعلى مسافة خمسة أكيال غرب تيماء وجدنا برجاً يسمى القصير، اكتشفت على سوره حجراً صغيراً مكتوباً عليه نقش عربي قديم، فانتزعته وحملته على ظهر ناقتي ، كما شاهدت إلى جانبه أيضاً حجراً آخر نحت عليه ما

يشبه شخصين ممسكين بحراثة يجرها ثور إلى الأمام ، وحيث إن الوقت بدأ يظلم والمطر بدأ يتساقط أسرعنا في المسير، لنصل بعد أن حل الظلام بسلام إلى مقر عامل الأمير في تيماء عبدالعزيز العنقري الذي لم يتحمس لوصولنا، ولم يسرع بالنهوض من مكانه لتحيتنا ، ولعله خلال فترة غيابنا حصل على خطاب تأنيب من أمير حائل رداً على الخطاب الذي بعثناه إليه نشكو فيه سوء معاملة عامله لنا . على أي حال إن صح ذلك فقد أدى الخطاب مفعوله، حيث إنه قام بإعداد وليمة تكريماً لقدومنا لم أكن أنتظرها منه. وفي أثناء ذلك وبينما كان العشاء يُطبخ لم يخرج مجرى حديثنا عن سرد وقائع الغارات المختلفة التي حدثت يمنة ويسرة خلال فترة غيابنا عن تيماء في الاسبوعين الماضيين، وكيف أننا نجونا من حسن أبو ذراع ورفاقه الثمانية المنتمين لقبيلة بلي الذين ساروا خلفنا مقتفين أثرنا، لكي يسلبوا منا كما يظن الجميع هنا حقائبنا المملوءة ذهباً ، ليس ذلك فحسب ، بل إن أخباراً تنامت إلى مسامعهم مفادها أن حسن أبو ذراع تمكن منا وقضى علينا ، وعلى هذه الشاكلة من الأحاديث اضطررنا إلى البقاء ثلاث ساعات متتالية حتى أحضر العشاء. قبل النوم طلب نومان الحصول على كوفيّتي، فأعطيتها له كتذكار .

تيمـــاء

الجمعة ١٨٨٤/٣/٧ قبل طلوع الشمس بساعة بدأ الخطيب عبدالله - وهو من أهل شقراء - بقراءة القرآن في الفناء بصوت عالٍ، ثم جاءنا الإفطار المكون من الزبد واللبن وأسوأ أنواع التمر ، وسرعان ما بدأ الزوار يتوافدون ومن بينهم التاجر الفارسي سلطان بوجهه الذي لا أطيق النظر إليه ، وما أسعدني حينما قال لي صانع الأسلحة زيدان: يجب علينا أن نذهب إلى القصر الدائر لنرى هناك بعض النقوش المكتوبة على الحجر ! وبينما رجع هوبر إلى البيت، ذهبت أنا مع زيدان لنتفقد السور الشرقي لتيماء القديمة والذي يمتد بعرض متر واحد ، وقد عثرت في مكان منه على بقايا أساسات برج مربع الشكل ، وحينما تمزقت نعالي هناك اضطررت إلى السير حافي القدمين ، فوصلت البيت بعد ثلاث ساعات من المسير وقد تمكن مني التعب والعطش، أما هوبر فقد كان في تلك الأثناء يحاول الحصول على جمال من أجل رحلتنا القادمة ، ولكن جهده ذهب هباء منبثاً ، فلم يكن في المدينة سوى ذلول واحدة تصلح لنا ، طلب صاحبها نظير بيعها لنا مبلغ ٦٠ مجيدياً (٢٠٠ مارك) ، وعندما رفضنا شراءها في الحال رفع سعرها حينما عدنا إليه مرة ثانية إلى ١٠٠ مجيدي . لذلك يجب على نومان وعواد الذهاب إلى مخيم عشيرة الفقراء ليحضروا منهم جملين قويين . في المساء جاء زيدان مرة أخرى وأعطاني غليونين نحتا من الحجر .

السبت ١٨٨٤/٣/٨ ذهبنا لتلبية دعوة الإفطار عند فهد الطلق ، وهناك حاول محمد العتيق أن يستغلنا بتحريض من التاجر الفارسي قائلاً: إن عاجلاً أم آجلاً ستضطرون لشراء الحجر (نقش مكتوب على حجر) بأي ثمن أطلبه . في حوالي الساعة العاشرة غادر نومان وعواد إلى قبيلة الفقراء . وعند الظهر ركبنا برفقة عبدالعزيز بن رمان وشخص آخر اسمه عطا الله، لكي نجرب ذلوله في الجهة الشرقية من واحة تيماء ، حيث اشتريناها منه بمبلغ ٥٠ مجيدياً (١٨٠ ماركاً) . بعد أن تركنا السبخة على يسارنا، واجتزنا بطن الشعيب وصلنا إلى سور المدينة القديم والممتد من شرق المدينة إلى شمالها ، وخلفه يقع المنخفض المحاط بجبل كشكل

القوس يسمى غار الحمام[114] الذي وجدنا في شعابه عدداً من النقوش الثمودية وأخرى مكتوبة بخط عربي كوفي ، ولكنني بسبب قوة الرياح لم أتمكن من عمل بصمات ورقية لها بل اكتفيت بنسخها فقط .

الأحد ١٨٨٤/٣/٩ ذهبنا في الصباح إلى ثويني لتناول طعام الإفطار ، وهناك جاء إليه شخص يريد أن يبيع ذلوله علينا ، فقلنا له: إن عليه إحضارها لكي نراها . وبعد ذلك دخل علينا شخص آخر يسحب معه صخرة منقوشة ، ولكن الحجر يبدو أنه أسيء استخدامه، مما جعل الحروف عليه غير ظاهرة البتة . وعند الظهر كانت حدة الريح قد تزايدت لدرجة أن المرء يصعب عليه الخروج .

والآن بعد أن انتهى التبغ الذي أحضرته معي من حائل أصبح لزاماً عليّ شئت أم أبيت أن أعتاد على التبغ المحلي الأخضر ، لذلك يجب عليّ في البداية أن أقوم بجمعه ثم تنظيفه من الشوائب مثل الأتربة، والأحجار الصغيرة، وألياف النخيل، والصوف، ونوى التمر، وفضلات الضأن وما شابه ذلك . بعد ظهر هذا اليوم جاء إلينا في منزلنا أربعة من الغزاة، كانوا قد حلوا ضيوفاً على عبدالعزيز العنقري، وهم ينتمون إلى فخذ سنجارة من شمر وشيخهم هو ضيف الله المعيقل ، حيث قدموا توّاً على ظهر ذلولين من جُبة لكي يقوموا ببعض المغازي في مناطق سُكْنى قبيلة بلي، كما كانوا يأملون في القبض على حسن أبو ذراع، وذلك ما تمنيناه لهم أيضاً. وعند المساء حل هنا أربعة من أفراد قبيلة الهتمان الذين أرادوا أيضاً تجربة حظهم هنا مستفيدين من حلول الربيع ، وقد أقاموا لدى ثويني، الذي دعانا جميعاً إليه لتناول طعام العشاء المكون من الشعير فقط . وحينما رجعنا إلى المنزل أعددنا فراشنا في الفناء، تاركين غرفة الضيوف لأولئك الأربعة المنتمين لعشيرة سنجارة ، وقد ظل واحد منهم يشخر بصوت مرتفع طوال الليل .

الإثنين ١٨٨٤/٣/١٠ كان طعام الإفطار الذي قدمه لنا عبدالعزيز العنقري يتكون فقط من

---

(١١٤) تقع غيران الحمام على مسافة كيلين إلى الشرق من مدينة تيماء .

التمر واللبن ، فقد منعه بخله و محاولته توفير الحطب الغالي من الطبخ لنا ، أضف إلى ذلك قوله (تفضل الله يحييك) ، والتي يتفوه بها دون استحياء أووجل رغم ما يبدو عليه من تصنع وسخرية متعمدة ، ولعله لا يعلم أن الأكل في سجون بلادي أفضل مما يقدمه لنا . أما الخطيب عبدالله فقد عبر عن شكره وامتنانه لتلك الدعوة بالجشاء ، ثم بعد ذلك نظف أسنانه بعظم جمل دقيق .

بعد أن غادر أولئك الغزاة الأربعة مصحوبين بدعواتنا لهم بالتوفيق ، ذهبنا نحن إلى رجل يدعى محمد العلاوي، حيث كان ينتظرنا على القهوة ، وخلال مسيرنا إلى منزله سلكنا الطريق عبر بساتين النخيل التي أتاحت لنا رؤية منظر جميل ورائع ، حيث أشجار النخيل المتصلة مع بعضها البعض، من خلال أشجار العنب، وبينها أشجار الخوخ الفارعة، وقد بدأت في هذا الوقت من العام تتفتح أزهارها الرائعة . وحين عدنا إلى البيت كان الخادم محمود قد أعد لنا بعض الخبز ، أما الخادم نّصار فقد كان متعاوناً جداً، حيث قام بلف النقش الآرامي الكبير(١١٥)، مستخدماً ألياف النخل ، وقطع القماش ، وبساطاً اشتريته مقابل ٤ مجيديات ، أما النقوش الأخرى فقد تم ربطها منذ الأمس في الفناء استعداداً لنقلها . وفي هذه الأثناء أبدى الخادم نّصار رغبته في مرافقتنا خلال الرحلة القادمة معللاً ذلك بسوء الحال في تيماء، ثم أشار إلى بطنه وأردف قائلاً: حين يسمح لي بالذهاب معكم فسيمتلئ بطني ويصبح مقبباً. في المساء تناولنا طعام العشاء عند عبدالعزيز بن رمان، وكان يتكون من الخبز والرز والسمن والبيض المطبوخ كالحجر ، وخلال الحديث تم إلقاء بعض القصائد القديمة عن تيماء لم أفهم منها سوى القليل ، كما تحدث الحاضرون عن جثة بشرية لازالت تحتفظ بشعرها أخرجت من أعماق حفرة مدفونة في أحد البساتين .

الثلاثاء ١٨٨٤/٣/١١ يا للمعجزة ! لقد ارتضى العنقري البائس أخيراً أن يقدم لنا على الإفطار أرزاً مع التمر ، وبينما نحن على الأكل امتلأت القهوة من الأشخاص ، ولعل العنقري

---

(١١٥) المقصود هنا مسلة تيماء .

أمرهم بالمجيء، لكي يشهدوا عظيم كرمه واحتفاءه بضيوفه . ذهبنا بعد الظهر بصحبة عبدالعزيز العنقري إلى الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة ، حيث بقايا الأعمدة التي وقفنا عليها من قبل ، في هذه الأثناء اعترض طريقنا سلطان الإيراني (من مشهد) ، وذكر أنه يعرف مكان أحد النقوش الكبيرة ويريد من هوبر أن يطلع عليه ، أما أنا فلن يسمح أن أكون معهم، مما جعل هوبر يقول مازحاً: لا بأس ، دع عبدالوهاب[١١٦] يذهب معنا وسنقوم بتغطية عينيه كي لا يرى شيئاً . على أي حال لقد أوصلنا عبدالعزيز العنقري إلى حيثُ مكان المعبد القديم، والذي حل محله الآن مقبرة حديثة العهد ، فشاهدنا هناك بقايا من أعمدة حجرية، وأماكن أخرى يذكر العنقري أن تحت تربتها السطحية يختفي العديد من الأحجار المنقوشة ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هل يكون معبد الإله صلم ذو هجم[١١٧] هنا ؟ ربما يكون ذلك مستبعداً ، ولكن الإجابة القاطعة عن ذلك تحتاج إلى قيام حفريات منظمة، وأبحاث علمية جادة تؤكد أو تنفي ذلك. وفي حقيقة الأمر كنت أتمنى لو أنني بدأت فوراً بالحفر، وقبلت العرض المقدم لي في السماح بالتنقيب هناك ، ولكنني رفضت ذلك أملاً في الحفاظ على الموقع، حتى يتوافر الاستعداد اللازم مستقبلاً. وقد حاولت أن أظهر لهم أن الأمر لا يستحق كي لا يعبثوا هم في الموقع بعد ذلك ، واحتججت لهم بالمقبرة الموجودة هناك، وأنني لا أرغب في التعرض لسكينة الموتى . وعلى مسافة مائة خطوة إلى الشرق من هنا ثمة موقع مشابه ربما يكون معبداً آخر .

في المساء أعد لنا جارالله طعاماً جيداً يختلف عن المعتاد، حيث تكوّن من الرز واللحم المحمر والفقع الذي لا تزال بقايا أحجار صغيرة عالقة به ؛ نتيجة لقلة تنظيفه، وبينما نحن نتناول العشاء قام الخطيب عبدالله بتقطيع أفضل قطع اللحم لي . وفيما بعد جاء أيضاً طلق لكي يدعونا للغداء غداً باسم والده فهد ، كما تحدث لنا عن إناء نحاسي قديم وجده مدفوناً في

(١١٦) هو الاسم الذي أطلقه أويتنج على نفسه خلال رحلته في جزيرة العرب .

(١١٧) معبود وثني جاء أول ذكر له بصفته أحد آلهة تيماء في نقش مسلة تيماء المؤرخة من القرن السادس قبل الميلاد، والاسم يتكون من عنصرين الأول صلم ويعني السواد والظلام ، والثاني هجم الذي يشير إما إلى منطقة في تيماء أو صفة من صفات المعبود .

السبخة (وهي مستنقع ملحي في الشمال)، وأحضره معه إلى المنزل .

الأربعاء ١٢/٣/١٨٨٤ كانت أولى أفكاري تتجه نحو المعبد ، فذهبت إليه فوراً، فوجدتهم قد كشفوا النقاب بالأمس عن أحد الأعمدة الذي لم يبق منه سوى قاعدته الحجرية البالغ قطرها ٢١٠ سم ، وهي مهذبة في نصفها الأعلى وخالية من المونة ، وقد توقفت عمليات البحث والتنقيب، بسبب وجود المقابر الحديثة هناك. من هناك توجهنا نحو القصر الدائر، لكي نشاهد الحجر الذي تحدث عنه المشهدي[١١٨] وطلب مقابله مائة مجيدي ، وهو حجر طوله ١.٥ متر، وعليه كتابات كوفية غير واضحة .

أكلنا في المساء أرزاً كثير الفلفل عند فهد، وعند عودتنا إلى المنزل وجدنا نومان ومعه بدوي من قبيلة الفقراء اشترى منه ذلولاً مقابل ٦٨ مجيديا، حيث قدِم الاثنان معاً من منطقة الأقرع، بعد أن سارا مدة طويلة ، لذلك كانت الجمال متعبة جداً . على أي حال إن لم نستطع اليوم الحصول على جمل قوي خامس فلن نتمكن من حمل النقوش الحجرية معنا ، بل يجب علينا أن نوكل المهمة لأحد بنقلها فيما بعد إلى حائل، كي توضع إلى أن يحين الوقت المناسب مع بقية أمتعتنا الكثيرة هناك . وبعد صلاة العشاء جاء إلينا من يسرق في وضح النهار ، وخلال الحديث ادعى الشخص الإيراني (من مشهد) أن المسيحيين الغربيين ليسوا هم من اكتشف البرقية، بل سبقهم في ذلك سكان العراق ومنذ أزمنة سحيقة ، وبينما كان الآخرون يشككون في ذلك ، فإن مضيفنا العنقري وجد نفسه مضطراً لتأكيد ما قاله صديقه الفارسي، حيث أضاف قائلاً: إن النبي سليمان بن داود (عليه السلام) كان يعرف البرقية قبلهم .

الخميس ١٣/٣/١٨٨٤ بعد أن عرف الناس في المدينة أن نومان دفع ٦٨ مجيدياً ثمناً لجمل، أُقتيد إلينا في البيت ثلاثة جمال خلف بعضها البعض ، وطلب من أجل بيعها علينا مبالغ خيالية، لكننا بقينا على القرار الذي سبق أن اتخذناه ، وهو إبقاء النقوش الحجرية هنا ، والاستغناء عن الحصول على إبل إضافية . على الرغم من ذلك لم يتوقف تجار الجمال عن

---

(١١٨) المقصود هنا هو سلطان الإيراني ، وما المشهدي هنا إلا نسبة إلى بلدته مشهد في إيران .

حضورهم إلينا لدرجة أن القهوة اكتظت بهم ، حيث كان الجميع هنا يطمعون ولو لمجرد رؤية النقود ، وفي الأخير لم يبق أمامنا سوى إخراجهم دون تكلف. وبعد أن خرجوا شعرت بدبيب القمل في جسمي مما اضطرني إلى الخروج فوراً، والبدء برحلة صيد للقمل في ثيابي . وحيث إننا قررنا اليوم ترك تيماء والتوجه إلى الحجر، فقد قمنا حتى لا نضطر إلى تأخير رحلتنا بتفقد أمتعتنا مرة ثانية، وتعبئتها في حقائب الجمال ، كما تم أيضاً اختبار الأسلحة ، وإحضار المؤونة وقرب الماء، أما النقوش الحجرية فقد وضعناها في قصر عبدالعزيز العنقري ليحفظها حتى يأتيه خبر منا .

بينما كنا نتأهب للرحيل دعينا إلى تناول أكلة محلية في بيت المدعو غيث بن دواس الذي كان يرافق هوبر في رحلته الأولى إلى هنا ، حيث لم يكن موجوداً في تيماء خلال الأسابيع الماضية، ولم يحضر سوى يوم أمس ، وقد تعمد تأخير وجبة الغداء - على خلاف العادة المتبعة - حتى الساعة الثالثة عصراً، كي نتمكن من المسير بعد ذلك مسافة أطول دون الحاجة إلى التوقف لعمل الأكل ، وعند الساعة الرابعة رجعنا إلى المنزل ، ثم ودعنا مضيفنا عبدالعزيز العنقري وشكرناه على ضيافته(١١٩)، ثم غادرنا تيماء بعد توديع الجميع في الساعة الخامسة إلا ربعاً .

(١١٩) يلاحظ أن المؤلف قسى كثيراً على عبدالعزيز العنقري فتارة يصفه بالبخل وأخرى بالعناد، بيد أن قراءة سريعة للفصل الخاص بتيماء توضح أن العنقري بذل ما في وسعه من أجل إكرام ضيوفه. وحيال ذلك يخالج المرء شعور بأن ثمة توتراً في العلاقة الشخصية بين العنقري والمؤلف مما جعل الثاني يحاول في كل فرصة النيل من شخص العنقري ويصفه بالبخل الذي لا ينطبق عليه كما هو الملاحظ من كثرة الدعوات والمآدب التي أعدها من أجل ضيوفه .

تيماء - الحجر - العُلا

الخميس ١٨٨٤/٣/١٣ كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب حينما انطلقت قافلتنا الصغيرة تاركة المدينة خلفها ، لقد كنا أربعة أشخاص، ونمتطي أربعة جمال هوبر وأنا، والخادم محمود ، والدليل نومان ، وبينما كنت أتمايل على ظهر راحلتي خالجني شعور ينم عن الفرح والسرور ، وحين تركنا آخر بيوت المدينة خلف ظهورنا ، وبدأنا نضرب في الصحراء وذلك العالم الفسيح شعرت بانتفاخ صدري من جراء التفكير بأنني مع كل خطوة إلى الأمام أتقدم نحو الهدف الحقيقي الذي قدمت من أجله ، نعم سأصل خلال الأيام القادمة الأماكن التي طالما تطلعت إلى رؤيتها ، تلك هي مقابر الحجر المنحوته في الصخر ، وأطلال بلدة العلا القديمة . لقد جعلني هذا الشعور المبهج لا أبالي حينما قال لنا نومان: إننا سنصل بعد يومين من السير الجاد إلى منطقة غير آمنة ، حقاً لقد كنت في تلك اللحظة مشحوناً بطاقة لا تقبل المزيد ومستعداً لتحمل الصعاب، واجتياز الأخطار مهما كان نوعها . امتد طريقنا من حوض تيماء التي يطل عليها جبل غنيم من الجهة الجنوبية الشرقية، آخذاً بالارتفاع التدريجي حتى ١٠٠ متر تقريباً، إلى ذلك السهل المنبسط بعرض كيل واحد تقريباً، وطول يتراوح مابين ثلاثة الى أربعة كيلو مترات، والمكتظ بأكوام الأحجار المصفوفة خلف بعضها البعض ، وهناك يمكن للمرء أيضاً رؤية بيوت صغيرة مبنية من الحجر بشكل مربع ومنخفض ، وهي تشابه تلك التي رأيناها في مدينة الموتى شوهر . وتمنيت كثيراً لو أن أهالي تيماء أخبروني عن هذه المقابر القديمة ! فربما تمكنت من زيارتها بدلاً من تضييع الوقت في تيماء ، فمن المؤكد أن في هذا المكان دلائل وإشارات عن سكان تيماء القدماء . على أي حال لم يكن في وسعي سوى إلقاء سؤال على نفسي مؤداه: هل من الممكن أن يكون في هذه المقبرة شاهد قبر أو حجر منقوش ؟ في الحقيقة كنت أتمنى لو نزلت من راحلتي، ووقفت عن كثب على هذه القبور ، ولكن هوبر رفض أي خروج عن مسار الرحلة ، فكان لزاماً عليّ أن أقبل تعاليمه على مضض، استمرت مسيرتنا خلال ظلام الليل ، وبعد ساعة من ظهور القمر أي حوالي الساعة التاسعة أقمنا مخيمنا في منطقة آمنة تسمى الخبو[١٢٠] .

(١٢٠) المقصود هو الخبو الغربي .

الجمعة ١٤/٣/١٨٨٤ انطلقنا مع شروق الشمس، واستمر سيرنا مدة أربع ساعات متتالية عبر سهل اللبيدة المكتظ بالصخور الرملية الصغيرة والمخيفة في الوقت نفسه، حيث أخذت تلك الصخور أشكالاً عجيبة بفعل هبوب الرياح الرملية التي أدت نتيجة لقوتها إلى تآكل طبقات الصخور الرقيقة ، بينما تحولت القاسية منها إلى صفائح وأشكال تبعث على الغرابة.

عند الظهر مررنا بمنطقة الدغش التي رسم على صفحات جبالها البنية العديد من أشكال الحيوانات والكتابات الثمودية ، ولكننا لم نتمكن من البقاء هناك طويلاً بسبب خطورة المنطقة ، كما أن شدة الرياح جعلت من الصعب استنساخ تلك الكتابات ، وعند غروب الشمس ومع تزايد شدة الرياح اقتربنا من منطقة يوجد فيها موقعان للماء: أحدهما يتكون من ١٢ بئراً ويسمى رحيان ، والثاني يقع خلف جبل رسوبي يسمى العشر ، وهو عبارة عن بئر لها ثلاث فتحات، وتعلوها زرانيق تسمى الثمايل ، وهنا استرحنا لإعداد بعض الطعام، ولكي تتمتع الجمال بالعشب الوفير ، وحيث كان من الخطورة بمكان المبيت بالقرب من موقع المياه ، لذلك قررنا أن نواصل السير خلال الليل عدة ساعات، حيث امتد أمامنا أحد المنخفضات المكون سطحه من الأحجار الرملية الملساء ، وخلال وقت قصير ازدادت قتامة الليل ، فالقمر لم يظهر إلا بعد التاسعة والنصف ، على أي حال يمكن للمرء أن يتوقع - كما قيل لي في حائل - أن تكون تلك الصفائح الجبلية الملساء والمتعامدة مكتظة بالنقوش والرسوم الصخرية ، وحيث لم يكن بمقدوري عمل أي شيء حاولت أن أقنع نفسي بافتعال بعض الأسباب الآتية :

١ - عدم توافر الضوء خلال ذلك الظلام الدامس .

٢- عدم استحسان نزول المرء في المناطق الخطرة .

٣- يمكن عد التعب الذي أصابنا من جراء سير اثنتي عشر ساعة واحداً من هذه الأعذار.

وعند الساعة الثانية عشرة ليلاً، نزلنا عن رواحلنا، وتجمعنا مدة نصف ساعة حول نار هادئة، كي لا يراها أحد، ويكتشف مكاننا ، ثم استلقينا ونحن متعبون للنوم.

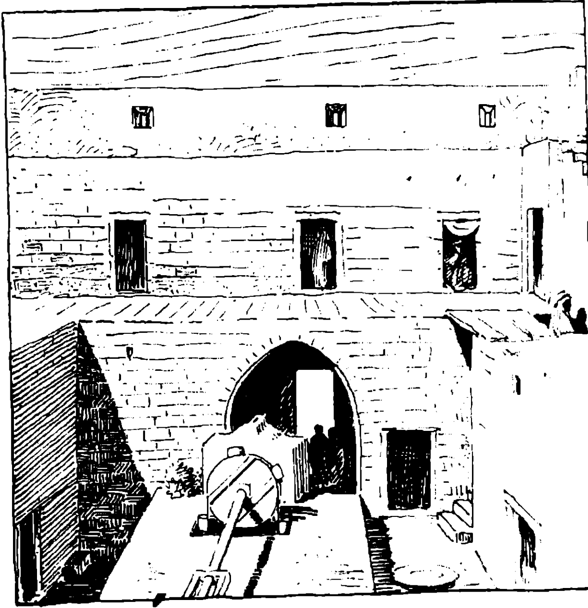
السبت ١٨٨٤/٣/١٥ قبل شروق الشمس بنصف ساعة كنا نجلس بالفعل على أشدة الجمال ، وبينما كان طريقنا ينحدر عبر ممر واسع إلى الأسفل شاهدنا فجأة إلى اليسار أمامنا بدوياً يحمل بندقية ، وحينما ناديناه لم يتوقف، بل صعد إلى قمة أحد الجبال وأشار بيده نحو الشرق، فقمنا بتجهيز السلاح، وأرسلنا في الوقت نفسه نومان على قدميه بدون سلاح، لكي يخبره بحسن نوايانا، وقد اتضح أنه من معارف نومان، وينتمي إلى قبيلة الفقراء، تلك القبيلة التي لم تخضع لسلطة أمير حائل إلا قبل وقت قصير، ولا يزال ولاؤهم له غير موثوق به، وفي محاولة منا لتشجيعه على النزول وعدم إرهابه انطلقنا في هدوء نحو الأمام، حيث نزل مع نومان ليلحقا بنا، ثم سار معنا مسافة قصيرة، وقد كان يرتدي ثوباً ومعطفاً جلدياً وغترة ويحمل بندقية من نوع (لونتن) ، وبدلاً من الرمح استعاض بخطاف خشبي. بعد ذلك بوقت قصير شاهدنا من خلال الصخور ومن مسافة ٣ - ٤ أكيال في اتجاه الشرق خيام قبيلة الفقراء وسط قطيع من الإبل يزيد عددها على الألف، وما هي إلا برهة من الوقت حتى ظهر علينا ثلاثة منهم لدعوتنا إلى النزول عندهم ، ولكننا رفضنا تلك الدعوة شاكرين. وبعد أن أشبعوا فضولهم وتمكنوا من رؤية أسلحتنا، انصرفوا بعد ربع ساعة تقريباً، وهم بلا شك نادمون على عدم قدرتهم على السطو علينا، وسلب هؤلاء الموسرين كما يعتقدون، ولم يكن يمنعهم من ذلك سوى مرافقة نومان لنا الذي ينتمي إلى قبيلة شمر المتآخية مع قبيلتهم. وحيث إننا نملك من الأسباب ما يخولنا بعدم الثقة بهم اضطررنا من أجل إيهامهم لسلوك طريق غير مباشر يتجه نحو اليسار، وينحدر بقوة نحو الأسفل آخذاً في الارتفاع مرة أخرى عبر تل رملي في سفح أحد الجبال، ثم سرنا مدة خمس ساعات متتالية خلال صحراء ترتفع جبالها إلى حوالي ١٥٠ متراً، وهي بمثابة منطقة جبلية رائعة تكثر فيها المراعي الوفيرة بالأعشاب، ولو قدر لهذا المكان أن يكون في أوربا لأصبح مكتظاً بالسياح. على أي حال لقد ضيعنا هنا الكثير من الوقت، بسبب مسيرنا عبر طريق خاطئ، مما اضطرنا إلى النزول من

خلال منخفض خطير إلى أحد الشعبان ، وبينما كانت الجمال تهبط عبر ذلك المنخفض نزل رفاقنا من على ظهور جمالهم حذراً من السقوط ، أما أنا بوزني الذي لا يتعدى ٩٩ رطلاً فقد تجرأت على البقاء فوق ظهر الناقة ، وحينما وصلت إلى الأسفل كان الشداد والأمتعة قد مالت نحو الأمام مما اضطرني إلى إنزالها وإعادتها من جديد بصورة معتدلة على ظهر الناقة.



الهضب

كنا نسير عبر تلك الشعاب الموحشة والمملوءة بالرمال المتلألئة بألوانها الذهبية الصفراء والأسلحة بأيدينا على أهبة الاستعداد ، ولم نكن نشاهد فيها سوى بعض الغربان الجائعة التي كانت تحوم فوقنا بين الفينة والأخرى، وهي تنعق بأصواتها المفجعة كما لو كانت تطمع بنقر أعين أحدنا . منذ غروب شمس أمس لم نأكل شيئاً قط ، لذلك سعدنا كثيراً حينما قال لنا نومان، ونحن نخرج من الشعيب، هنا ليس هناك ما يخشاه المرء، فكان بمقدورنا النزول، وعمل قرص جمر (خبز)؛ لنأكله مع ما بحوزتنا من تمر . وفي هذه الأثناء بشرتنا الطيور الكثيرة هناك بقربنا من الحجر والعلا اللتين اشتهرتا بكثرة طيورهما، وفي حوالي العصر انطلقنا عبر ذلك السهل الذي تظهر في وسطه قلعة الحجاج الحديثة في مدائن صالح[١٢١] بنخيلها الثلاث، ومن خلفها إلى اليسار تبدو الصخور المخروطية الشكل والمقابر وغيرها من بقايا مدينة الحجر القديمة .



فناء قلعة مدائن صالح

(١٢١) قام ببناء قلعة مدائن صالح (الحجر) كما يشير النص التأسيسي المكتوب عليها حاكم دمشق أسعد باشا العظم في الفترة ما بين ١١٥٦ - ١١٧٠ هـ .

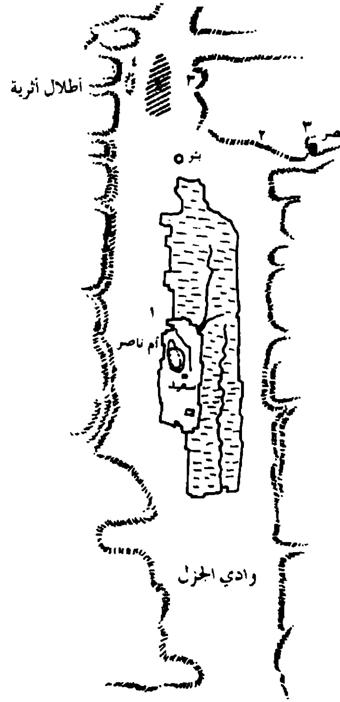
استقبلنا في القلعة بترحاب نائبُ قائدها المدعو حميد، والحاج مبروك والحاج حسن والحاج مصطفى، وهم من المغرب العربي وبالتحديد من الجزائر وتونس وطرابلس، أما قائد القلعة المدعو محمد علي الذي سطا على داوتي[١٢٢] أثناء إقامته هنا، وسلب منه بندقيته فقد كان في أثناء ذلك في دمشق. إضافة إلى أولئك كان هناك أيضاً بدوي يدعى محمداً الأزرق من قبيلة الفقراء. بعد ذلك قُدم للجمال العلف الوفير، وذبح لنا. أما أنا فقد كنت أتحرق شوقاً لرؤية تلك المقابر المنحوتة في الصخر، والتي لا يبعد بعضها عنا سوى بضع مئات الخطا. وقد كنت قد قرأت كل ما جمعه الرحالة عنها من معلومات ولم يفتني شيءٌ، سوى أنني لم أتنبه للخط و اللغة التي كتبت بها النقوش هناك. لقد ذهبت إلى الموضع برفقة شخصين لحمايتي، وقد شعرت بارتياح يفوق الوصف حينما عرفت أن تلك النقوش كتبها الأنباط الذين تبوأوا مكانة تجارية كبيرة في العالم القديم. لم يمض سوى أقل من نصف ساعة حتى كنا قد انتهينا من جولتنا، وعدنا والشمس تميل نحو الغروب إلى فناء القلعة التي كنا نسمع من داخل حجراتها أصوات بكاء الأطفال و ثغاء الضأن ومأمأة التيوس الجائعة. وبينما كنا ننتظر قدوم الأكل ظل أحد أقرباء الحاج مصطفى، وهو من أتباع الطريقة السنوسية يتسلى بملاعبة سبحته بين أصابع يديه محركاً إياها مئات المرات بالشكل والأسلوب نفسه، وخلال الليل عاود الكرة مرتين مع ذلك التسبيح الذي اعتبرته عادة سيئة ونوعاً من العبث، وهنا لم يكن أمامي بد من الثناء على مسابح أهل التبت[١٢٣] الأقل إزعاجاً.

بسبب الحرارة والثرثرة حول النار، وكذلك فقدان الأمل بأن يتزحزح الحاج مصطفى من مكانه لم أفرش فراشي في قاعة الأقواس التي اتخذت كديوان (مجلس)، ولكنني فرشته في ممر القلعة. وفي هذه المنطقة ينمو نبات الطرثوث بكثرة، وهو عبارة عن نبات غليظ ذي جذور عميقة تتخللها خيوط ذات ألوان أرجوانية غامقة، ولها سيقان يصل ارتفاعها قدمين.

---

(١٢٢) وصل الرحالة الإنجليزي داوتي إلى مدائن صالح في نهاية شهر نوفمبر من عام ١٨٧٦ م.

(١٢٣) منطقة في آسيا الوسطى تقع جنوب غرب الصين.



١ بوابة المدينة الرئيسية ٢ وجوه المومياء
٣ منطقة خبث المعادن ٤ اطلال اثرية

مخطط بلدة العلا

الأحد ١٦/٣/١٨٨٤ انطلقنا مع شروق الشمس دون أن نأخذ ذلك السلم الذي ظللنا نسحبه معنا طوال تسعة أشهر متتالية ، حيث رأى هوبر أن لا ضرورة له في العلا . كان يرافقنا خلال هذه المسيرة الحاج حسن والحاج مصطفى ومحمد الأزرق ، وبدوي آخر انتظر مدة ليرافقنا خلال الطريق الذي يتطلب ثلاث ساعات من المسير كيلا يتعرض بمفرده للسلب. ونظراً لخشيتنا من أن يكون أفراد قبيلة بلي قد لاحظوا وصولنا في عصر يوم أمس قلعة مدائن صالح اخترنا الذهاب عبر طريق غير مباشر ويزيد مسافة ساعة عن الطريق المعتاد، حيث سرنا عبر شعيب يمكن للأطلال الموجودة فيه أن توفر مخبأ مناسباً للصوص وقطاع الطريق، ثم اتجهنا بشكل قوس نحو الشرق ، وفي هذه الأثناء كان مرافقونا يتقدمون أمامنا حاملين بنادقهم قبل كل مرتفع لكي يراقبوا الطريق ويتأكدوا من أنه آمن . بعد أن تجاوزت الساعة

العاشرة وصلنا والسعادة تغمرنا نهاية الشعيب الذي اجتزناه كما ينبغي . وقد قيل لنا فيما بعد:إن مجموعة من الغلمان ترصدوا ليلة البارحة منتظرين قدومنا كي يهجموا علينا ، ولكنهم لم يوفقوا ولله الحمد . وبعد ربع ساعة لمحنا بساتين بلدة العلا تتوسطها أكوام حجرية تمثل أطلال المدينة القديمة ، أما على صفحات الجبال الواقعة على يسارنا فكان يوجد بعض المقابر المنحوتة في الصخر تعلوها النقوش القديمة. في حوالي الساعة العاشرة والنصف وصلنا بلدة العلا(١٢٤) الواقعة في واد منخفض تحيط به جبال الصخور الرملية العالية من كل جهة . والبلدة غنية بالنخيل وتكثر فيها المياه ، لذلك فهي مرتع للحمى، كما يكثر فيها الذباب بشكل يفوق التصور، وذلك نتيجة لضيق بيوتها والتصاق بعضها ببعض، ومن الطبيعي والحال كذلك أن تكثر فيها الأتربة والأوساخ ، أما منازلها فتتكون من طابقين يصل المرءالطابق الثاني من خلال سلم في القهوة (الديوان) ، ومنه يصعد المرء إلى سطح صغير . وفي وسط البلدة تقع هضبة(١٢٥) صخرية شيدت فوقها قلعة قديمة ، وحينما يصعد المرء إليها سيرى أن بيوت المدينة مبنية من ثلاثة طوابق ، الأسفل بمثابة الطابق الأرضي ، وفوقه الطابق الثاني، ثم السطوح التي تبدو كأنها متلاصقة مع بعضها البعض وخاصة أن أكثر أزقة البلدة مسقوفة، أما البيوت فيتم بناؤها عادة من الحجارة التي من بينها أحجار مهذبة تعلوها الزخارف والنقوش مما يؤكد أن هذه الأحجار تعود إلى العصور القديمة أعيد استخدامها في بناء المنازل الحديثة ، وقد تمكنت هناك من بصم ونسخ اثني عشر نقشاً كلها حميرية(١٢٦)، ماعدا نقشاً واحداً فهو نبطي .

---

(١٢٤) تقع على مسافة ١٨ كم إلى الجنوب من مدائن صالح .

(١٢٥) هي ما يسمى بهضبة أم ناصر .

(١٢٦) يطلق المؤلف على مجموعة النقوش المكتوبة بخط المسند التي اكتشفها هناك تسمية (النقوش الحميرية) وذلك نسبة إلى حمير في جنوب الجزيرة العربية التي ظهرت على معترك الأحداث كأحد أبرز الكيانات السياسية هناك منذ القرن الثالث الميلادي، بيد أن هذه التسمية ليست صحيحة لكون جميع النقوش المكتشفة في منطقة العلا تعود إلى الشعب المعيني ، لذلك يجب تسميتها بالنقوش المعينية، والمعينيون هم أقوام عرب أسسوا في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد مملكة قوية في جنوب الجزيرة العربية ، ونظراً لسيطرتهم إبان ازدهار دولتهم على مجريات نقل البضائع التجارية من جنوب الجزيرة العربية إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط فقد أسسوا مستوطنة تجارية في العلا ، كان من نتاجها تلك النقوش التي عثر عليها المؤلف .

يتراوح عدد سكان البلدة ما بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠ نسمة من بينهم العديد من السود ، وهو أيضاً لون نائب الأمير المدعو سعيد ، ومن كبار رجال البلدة هناك القاضي موسى، وشخص يدعى عبدالله وهو مولود في دمشق ويمارس التجارة ، ثم شخص كثير القراءة حدثني عن حملات هرقل وعن القياصرة والقسطنطينية. ويلاحظ المرء هناك أن عادة سكان البلدة السود المتمثلة بولعهم بالزينة والنظافة قد أثرت في لباس الرجال والنساء هناك ، فالرجال يرتدون ثياباً زرقاء لا تختلف عن ملابس النساء سوى أن لها فتحة طويلة من الأمام ذات أزارير نحاسية، ويرتدون فوقها عباءة ذات ألوان زرقاء وبيضاء ومخايطها حمراء، أما النساء فيزين أنوفهن وآذانهن بحلقات معدنية رائعة، بعضها تدلى منها قطع العملة ، وغطاء رؤوسهن مزين بقطع كثيرة من الصدف . أما بالنسبة إلى السكان فهم في العادة وحسب المستطاع مسلحون، نظراً لخوفهم من أفراد قبيلة بلي الذين يترصدون أمام أبواب البلدة مباشرة متحينين الفرصة لسلب كل مقتنياتها ، حقاً لقد سمعنا اليوم عن امرأة ذهبت عند الساعة الثالثة عصراً لتحضر بعض العلف من صدر أحد بساتين النخيل ، وهناك سلب منها كل شيء حتى ثيابها ، وآخر تسبب كيس التمر الذي يمتلكه بقتله ضرباً حتى الموت من قبل قطاع الطرق، ليس ذلك فحسب، فقد حدثني هوبر أنه رأى خلال زيارته الأولى للعلا أحد أبناء شيوخ البلدة، والبالغ من العمر اثني عشر عاماً يحمل سيفه ويلعب مع أقرانه أمام الباب لعبة تسمى (١٣ خطوة)،وحينما غابت الشمس انصرف الأطفال إلى بيوتهم، أما ابن الشيخ فقد تأخر عنهم بضع خطوات ، وعلى حين فجأة هاجمه غلامان أملاً في أخذ سيفه، وحيث كان ممسكاً به في يده، قام أحدهم بعض إصبعه حتى انفصل اللحم عن العظم، وسلبوا منه السيف، وجردوه حتى من ملابسه .

فيما يخص الضريبة فليس هناك من يدفعها سوى سكان البلدة نفسها ، أما أفراد قبيلة الفقراء القاطنون إلى الشرق منها ، فهم منقسمون إلى جزءين: جزء يدفع الضريبة. والقسم الآخر لا يزالون غير خاضعين لسلطة الأمير ، أما أفراد قبيلة بلي القاطنون غرب البلدة فسيتوجه الأمير لاحقاً لإخضاعهم، بعد أن أتم إخضاع جيرانهم الشماليين بني عطية،

وبالنسبة لأفراد عشيرة العليدة المنتمين لقبيلة بني وهب القاطنين جنوب المدينة فقد تم نهبهم، وإخضاعهم قبل عامين .

يمكن للمرء أن يعد سكان بلدة العلا من محبي الترحال ، فبعضهم يحاولون منذ وقت طويل الرحيل إلى سورية وبالذات إلى دمشق ، وبعضهم الآخر إلى إستنبول . لذلك وجه إلينا شخص طاعن في السن منهم، ونحن جالسون في القهوة سؤالاً عما إذا كنا سنواصل مسيرتنا إلى إستنبول ، وحينما قلنا له ربما بعد سنة من الآن، رد فوراً بصورة ساذجة قائلاً ستررون بالتأكيد ابني هناك ، وسأعطيكم رسالة تحملونها إليه . عندما اقتربنا من المنطقة السكنية أسرع إلينا كل الفضوليين من أبناء البلدة، حاملين بنادقهم، فأحاطوا بنا من الأمام ومن الخلف، مما جعلنا نسير خلال الأزقة المسقوفة والضيقة في زحام شديد . وبعد ذلك نزلنا في فناء صغير لا يكاد يتسع لجمالنا الأربعة ، ثم قدمنا التحية إلى عامل الأمير في العلا المدعو سعيد ذو البشرة السوداء ، وهو شخص مختلف تماماً عن العنقري البخيل في تيماء، والذي لم نحصل منه على شيء قط، بل إنه كاد يميتنا جوعاً . وبينما حملت أمتعتنا إلى منزل آيل للسقوط، ذهبنا نحن إلى الديوان الذي كان في تلك الأثناء مكتظاً بالضيوف ، وبعد أن شربنا القهوة صعدنا الدرج إلى أعلى، حيث قدم لنا هناك الزبد والتمر الجيد ، وفي أثناء ذلك وقف أحد الخدم ليقوم بطرد الذباب من أمام أفواهنا ، ولكن على الرغم من ذلك سقط العديد منها في اللبن الذي أحضر قبل خمس دقائق فقط .

كان سعيد ينتظرنا منذ وقت طويل ، لذلك فقد سُرّ بقدومنا، وكان على استعداد دائم لخدمتنا ، حيث جهز فوراً كل ما طلبناه من مؤونة للرحلة . وبعد ظهر هذا اليوم صرح لي هوبر بخبر ظل يؤجله مدة طويلة دون سبب مقنع، مما جعلني أفاجأ به ، ذلك هو أن الأمير لا يرغب في عودتي إلى حائل . لذلك فإنه يريد أن ينفصل عني، ويعود بمفرده إلى هناك من أجل إحضار الأشياء التي تركناها قبل مدة في تيماء . على أي حال يبدو أن غانم بن باني أخبر حموداً بتصريحاتي الغاضبة ، مما سبب غضب حمود مني ، وجعله يحاول بكل ما يستطيع أن يوعز للأمير بأن يطردني بطريقة مهذبة ، ولو أن هوبر أخبرني بذلك حينما كنت في حائل لما

فوجئت من ذلك ، ولتمكنت من أخذ ممتلكاتي التي تركتها هناك معي في حينه . والآن ينوي هوبر الاتجاه من هنا إلى خيبر مروراً بنواحي المدينة إلى جدة ، حيث نلتقي هناك مرة أخرى، بينما أذهب أنا من هنا إلى الحجر (مدائن صالح) برفقة شيخ من قبيلة بلي الذي سيحضر إليّ بعد حين ، وهناك أقوم باستنساخ النقوش ، بعد ذلك أعود إلى العلا ، ثم أتجه برفقة ذلك الشيخ نحو الغرب عبر مناطق سكنى قبيلة بلي إلى الوجه، ومن ميناء تلك البلدة الخاضعة للسلطة المصرية ستسنح لي بالسفر مع إحدى البواخر إلى جدة، ومن هناك ربما أنمكن من القيام برحلة إلى الطائف، أو أعود مباشرة عبر السويس إلى بيروت، أما هوبر فكان يريد أن يعود من جدة إلى حائل، ثم عبر العراق إلى دمشق ، ولكن ذلك كله كان من أحلام المستقبل التي لم تتحقق .

كان علينا الآن أن نفكر بترتيب مناسب لانفصالنا ، حيث قمنا في البداية بتقسيم النقود التي معنا، فحصل كل منا على ٢٧٠ مجيدياً ، ثم قسمنا السجائر فحصل كل واحد منا على ٢٥ قطعة ، حيث إننا لم نكن ندخن خلال الفترة الأخيرة سوى قطعة واحدة كل ستة أو سبعة أيام من ذلك التبغ الغالي ، أما من المواد الغذائية، فقد حصل كل منا على علبة ساردين ونصف كمية الشاي ، وقد قمت بشراء دلة القهوة والخرج (حقيبة مزدوجة توضع على شداد الجمل) ، أما الورق ، ومسحوق الحمى ، والحبر ، ونحو ذلك فقد قسمناه بيننا .

قدم لنا في المساء عشاء وفير ، وخلال الأكل أضيء المكان بواسطة شعلة من سعف النخيل، كما قام أحدهم بطرد الذباب مستخدماً مهفة صغيرة، وأخيراً صعدنا السطح، حيث أشعلت النار، وأصبح بمقدورنا من جديد استنشاق الهواء الطلق .

الإثنين ١٨٨٤/٣/١٧ باشرت مع بداية هذا اليوم العمل ، فالنقوش الغالية على نفسي لم تدع لي مجالاً للراحة، وكما ذكرت من قبل فإن هناك في العلا كمية كبيرة من الأحجار التي تحمل نقوشاً أعيد استخدامها في بناء المنازل و الأسوار، لذلك ظللت أتجول طوال اليوم في أنحاء المدينة، حتى تمكنت من العثور على الكثير منها، وما أشد دهشتي حينما رأيت أنها

كتبت بحروف الخط الحميري[١٢٧]! وقد قمت في الحال بطبع جميع النقوش التي وجدتها هناك، أما سير العمل فلم يكن شاقاً إلى حد ما، إذ لم أتمكن اليوم سوى من نسخ تلك النقوش القريبة من الأرض ، ولكن العمل في يوم الغد سيكون بالتأكيد أفضل مما هو عليه اليوم. خلال جولتي تلك كان يرافقني العديد من الناس، كما كانوا يتزاحمون حولي بشدة حينما أقوم بعملية بصم (طبع) النقوش ، لكن ذلك كان بالنسبة لي أمراً طبيعياً، فلم يحظ حتى الحكام برفقة مثل تلك الجموع من الناس .

في المساء وصل حيلان الذي بعثه الأمير برسالة إلى تيماء وأماكن أخرى، ليبشر بالنصر الذي حققه مؤخراً ، وقد كان يرتدي ملابس كثيرة، تمثلت في ثوبين وزبونين وعباءتين وأربع غتر على رأسه ، في هذه الأثناء اكتظت القهوة بالناس، مما اضطر بعضهم إلى الوقوف في الفناء، لكي يتأكدوا من سماع أخبار النصر بأنفسهم من فم خادمنا محمود الذي تولى قراءة الرسالة كان فحوى الرسالة التي قام هوبر بتكليف محمود بنسخها له يقول: (لقد خرج الأمير من حائل ومعه حوالي مائتين وسبعين جواداً وحوالي خمسة آلاف شمري بجمالهم في حملة، كان يبدو في أول الأمر أنها موجهة نحو الشمال ، ولكنه ظهر فجأة في المجمعة[١٢٨] الواقعة إلى الشرق من جبال طويق ، ثم غيّر وجهته نحو الجنوب. وبالقرب من الزلفي في وادي الرمة تقابل مع سبعة وعشرين من عيون الخصم، فقام بمحاصرتهم وقتلهم على الفور ، ولم يسلم منهم سوى اثنين تركهم على قيد الحياة، لكي يذهبوا إلى معسكرهم ويخبروه بما حدث . وفي مكان ليس ببعيد من سابقه هجموا مع طلوع الشمس على معسكر جماعة ابن سعود ، حيث قتلوا ثلاثة من أعمامه، وغنموا منهم حمولة سبعة جمال من البنادق ، وسبعة وثلاثين جواداً، وست عشرة خيمة ، وذودين من الجمال ، كل واحد منهما يصل تعداده إلى مائتي جمل . كما أغاروا أيضاً علىعتيبة الذين فروا من أمامهم في شهر نوفمبر الماضي، وغنموا منهم ثمانية أذواد من الجمال ، وخياماً وعدداً كثيراً من الضأن ، وعبيداً، وسبع رايات أمر الأمير بإرسال

(١٢٧) الصواب أنها كتبت بخط المسند .

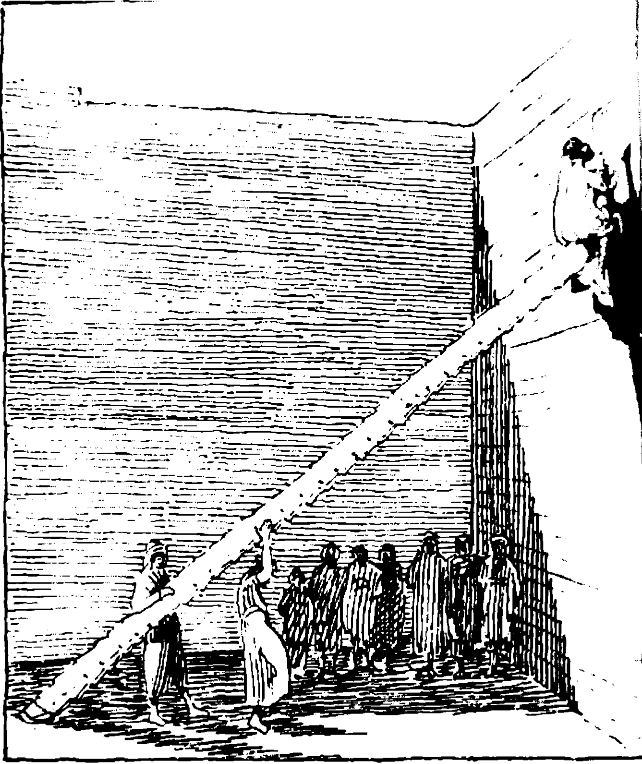
(١٢٨) هي قاعدة أقليم سدير ، وتبعد عن الرياض بنحو ١٨٠ كيلاً في اتجاه الشمال .

اثنتين منها إلى بريدة وعنيزة ليراها أهل القصيم، وواحدة إلى قبيلة الرولة ، أما الأربع الباقية فقد ركزت في ساحة المسحب في حائل ، وبعد هذا النصر ستضطر الآن قبيلة عتيبة بأكملها إلى الخضوع)[(١٢٩)].

الثلاثاء ١٨/٣/١٨٨٤ في الصباح شربنا القهوة عند القاضي موسى ، ثم كتبت بضعة أشياء، ولكنني لم أتمكن من مواصلة الكتابة فقد كنت أفكر كثيراً في النقوش والكتابات الحجرية ، لذلك عدت إلى عملية نسخها من جديد ، ولكنني من خلال ذلك العمل تأكدت من حجم الصعوبات والمشاق التي يواجهها من يتصدى لمثل هذا العمل في جزيرة العرب ، إلا أن الحماسة لهذا الفن والتطلع إلى البحث العلمي يهونان من شأن تلك المصاعب ، فالمرء حينما يحمل غنيمته من الورق عائداً إلى بلاده يكون أكثر سعادة وزهوا من الصياد الذي ينجح في اصطياد فريسته .

حقاً إن عمل بصمة (طبعة ، كليشة) في متاحف بلادي ليس فيه شيء من التعب، فهناك يقف الشخص أمام الحجر المنصوب باعتدال ، ويتناول الورق والماء والفرشاة بكل راحة وهدوء ، فليس هناك ريح قوية تؤدي إلى تطاير الورق من بين يديه ، ولا يوجد حوله مئات من

(١٢٩) يقول ابن عيسى في كتابه عقد الدرر ص ٨٤ عن هذه الوقعة ما نصه (ثم دخلت سنة واحد وثلاثمائة وألف ، وفي ربيع الأول من هذه السنة خرج الإمام عبدالله بن فيصل من الرياض غازياً ، وأمر على أهل بلدان نجد بالجهاد ونزل على شقراء واستلحق غزو البلدان فقدموا عليه فيها وأمر على بوادي عتيبة أن ينزلو الحمادة المعروفة ، وكان يريد حرب أهل المجمعة فنزل عربان عتيبة الروضة المعروفة في الحمادة المسماة (أم العصافير) ثم ارتحل الإمام عبدالله من شقراء بمن معه من الجنود ونزل على عربان عتيبة وكان أهل المجمعة لما بلغهم خروج الإمام من الرياض أرسلوا لابن رشيد يستحثونه وتتابعت الرسل منهم إليه وإلى حسن آل مهنا أمير بريدة فجمع حسن آل مهنا جنوده وخرج ابن رشيد بجنوده من حاضرة الجبل واستنفر من حوله من البوادي وتوجه إلى بريدة فنزل عليها ثم ارتحل منها ومعه حسن آل مهنا بمن معه من الجنود وتوجه لقتال عبدالله بن فيصل ومن معه من عتيبة ، فحصل بينه وبينهم وقعة شديدة وصارت الهزيمة على الإمام عبدالله ومن معه من العربان وقتل منهم خلق كثير ومن مشاهير القتلى من أهل الرياض تركي بن عبدالله بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن مقرن، وفهد بن سويلم ، وابن عياف، وفهد الغشيان رحمهم الله تعالى وقتل من أهل شقراء عبدالعزيز بن الشيخ عبدالله أبا بطين ومحمد بن عبدالعزيز ابن حسين وعبدالعزيز بن محمد بن عقيل وأحمد بن عبدالمحسن السديري أمير بلد الغاط وقتل من مشاهير عتيبة: عقاب بن شيبان بن حميد .



عملية نسخ النقوش

أولئك الذين يطأطئون رؤوسهم لمشاهدة سير العمل باهتمام بالغ . على أي حال بعد أن ارتكبت حماقة لسماعي نصيحة هوبر بترك السلم في مدائن صالح اضطررت من أجل عمل بصمة للنقوش المكتوبة على الأحجار المثبتة في أعالي الجدران، إما أن أركب على ظهر خادمنا محمود، أو على جذع نخلة مسند على الجدار . وفي أحد البيوت الواقع فوق ممر يرتفع ثمانية أمتار تقريباً كانت توجد نافذة يعلوها حجر مكتوب عليه نقش بالخط الحميري[١٣٠]. ونظراً لضيق فتحة النافذة فقد احترت في كيفية الوصول إليه ، ولكنني استأذنت من صاحب ذلك البيت المظلم، وصعدت إلى الطابق الثاني حيث النافذة ، وبينما كنت أسير هناك كادت الغرفة

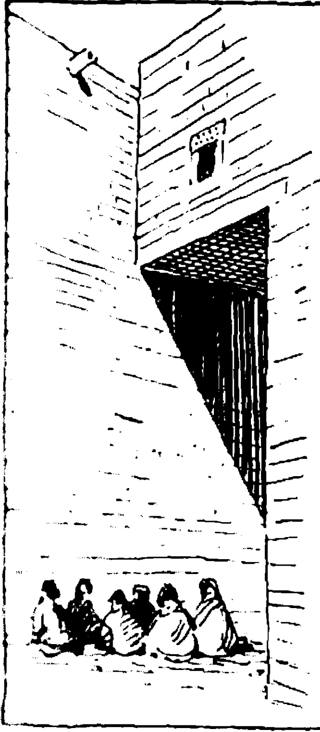
(١٣٠) الصواب نقش بخط المسند .



أويتنج ينسخ أحد النقوش
راكباً على ظهر محمود

والنافذة أن تسقطا على الأرض ، وهناك تبين لي أن باب النافذة لا ينفتح سوى إلى الداخل ونحو الزاوية اليمنى، وارتفاعها لا يتعدى الخمسين أو الستين سنتمتراً، ولا يسمح بدخول جسم الإنسان بسهولة من خلالها، لذلك اضطررت في البداية إلى الانبطاح على بطني، وزحفت داخل النافذة حتى منتصف جسمي، ثم انقلبت على ظهري. وهنا بدأ مرافقي عبدالله بن إسماعيل مويس بوضع الورق المبلل بالماء على صدري فآخذه وأقوم بلصقه على الحجر المنقوش ، وفي الوقت نفسه يجب علي أخذ الفرشة الموضوعة على صدري أيضاً لكي أتم عملي كما ينبغي . هكذا وبينما كان مرافقي يجلس طوال الوقت فوق رجليَّ خوفاً من أن أفقد توازني وأسقط من خلال النافذة أنهيت عمل ثلاث بصمات (كليشات) للنقش. وخلال ذلك العمل كان أهالي بلدة العلا الطيبون يهزون رؤوسهم معتبرين ذلك الصنيع نوعاً من العبث، ولابد أنهم تصوروا أن تلك الأحجار التي قمت بنسخها تساوي وزنها ذهباً وفضة. بعد أن أتممت عملي عدت والسعادة تغمرني إلى البيت .

في هذا اليوم وبينما كانت القهوة مكتظة بالناس حدث جلسة محاكمة ساخنة، وعلى حين فجأة دخل عدد من الأشخاص، وصعدوا فوراً عبر الدرج إلى أعلى، وهناك في الطابق الثاني بدأ الصراخ بصوت مرتفع ، حيث بدأت هناك جلسة محاكمة لذلك الشخص الذي رفض دفع الضرائب ، معللاً ذلك بأن أمير حائل ليس له حق بمطالبته بأي شيء ، لكونه ليس أميراً عليه، وإنما أميره شخص آخر ، ولكي يشددوا عليه ويخيفوه أحضروا الخشبة أو ما يسمى بالحبس، وبالفعل أبدى ذلك الشخص استعداده للدفع قائلاً: إن النقود في المنزل، فقاموا بإرسال جنديين لمرافقته ، ولكنه حينما اقترب من الباب انطلق هارباً، وحيال ذلك فلا بد أن القضية ستطول، فبمجرد القبض عليه سيوضع في الحبس حتى يدفع المبلغ المطلوب منه .



أحد النقوش المعينية المكتوب على حجر فوق النافذة

دعينا في المساء للعشاء عند شخص يدعى عبدالله ، حيث قدم لنا أكلة محلية معروفة هناك تتكون من الأرز وفوقها البصل المحمر وقطع من البيض ولحم الماعز ، بعد ذلك ذهبت إلى سطح منزلنا وجلست في الهواء الطلق أدخن واحدة من تلك السجائر الخمس والعشرين التي بقيت في حوزتي، وقد كنت أتطلع إلى دخانها المتصاعد بحسرة، واضعاً في حسابي أنه لم يبق معي منها سوى أربع وعشرين سيجارة .



عملية نسخ النقوش

الأربعاء ١٩/٣/١٨٨٤ في الصباح كان كل شيء جاهزاً من أجل رحيل هوبر وحيلان الذي سيسلك الطريق نفسه الذي سيسير عبره هوبر . ذهبنا بصحبة عدد كبير من الأهالي إلى البوابة ، وهناك ودع بعضنا بعضاً، وتمنيت لهوبر من أعماق قلبي أن ينهي رحلته الخطرة تلك بكل سلام، نعم إن من المؤلم حقاً أن يرى المرء صاحباً رافقه في الغربة وقاسمه السعادة والتعاسة يغادر إلى مكان مجهول . ماذا تراه سيواجه ؟ وماذا سيحدث لي ؟ فعلى حين تهددنا الأخطار من كل جانب أصبح كل منا الآن يعتمد على نفسه. ومن المؤسف أن أمنياتي تلك لهوبر لم تتحقق ، فقد قتل في يوم التاسع والعشرين من يوليو من العام نفسه. في حين إن ما تمنيته لنفسي بأن تنتهي هذه الرحلة إلى الجزيرة العربية بسلام قد تحقق ولله الحمد. لا أريد الآن أن أطيل الحديث هنا وأستبق سرد الأحداث فسأذكرها في حينها. بعد أن ودعت هوبر عدت إلى سطح منزلنا، وبدأت أنظم يومياتي .

بعد الظهر أنزلت أمتعتي من السطح إلى داخل المنزل، لأن سعيداً أصبح يعتقد أنها لم تعد في مأمن هناك وربما تسرق خلال الليل. وفي حوالي الساعة الواحدة ظهراً تسللت برفقة الخادم مرزوق دون أن يرانا أحد إلى الهضبة الصخرية الواقعة في وسط البلدة التي تسمى أم ناصر ، وهناك عملت بصمة (كليشة) لنقش كُتِبَ بخط حميري[١٣١] ، وأثناء نزولي حاملاً البصمة عبر ذلك الطريق الخطر وجدت أربعة نقوش جديدة خلف بعضها البعض، من بينها واحد كتب بالخط النبطي ومؤرخ في السنة الأولى لحكم حارثة ملك الأنباط[١٣٢]. بينما كان مرافقي الخادم مرزوق يساعدني بكل مهارة ودقة ظلت تضايقنا جموع الأهالي من مختلف الأعمار بفضولها ووقاحتها، ليس ذلك فحسب بل إنهم طالبوني بإعطائهم بخشيشاً (إكرامية)، تلك الكلمة التي سمعتها لأول مرة ونحن نسير عبر درب الحج ، ولم أسمعها بعد ذلك ولله الحمد منذ وقت طويل ، ومن المدهش أن واحداً منهم طلب مني بخشيشاً مدعياً القول بأنه من بلاد النصارى ، فما كان مني إلا أن بصقت على الأرض وقلت له:إنك لست من بلاد النصارى، بل أنت واحد من أولئك الكذابين. وفي مساء هذا اليوم تناولت عند سعيد عشاء عادياً تكون من الخبز والتمر .

الخميس ١٨٨٤/٣/٢٠ في كل صباح يسمع المرء هنا في الجبال أهازيج الرعاة التي تبدو من خلال الأذن الأوربية وكأنها رنين موسيقى، لدرجة أن المرء يشعر وكأنه في منطقة التيرول(١٣٣)، ولعل الطبيعة الجبلية للمنطقة هي التي تملي على سكانها مثل هذا النوع من الغناء. في الغالب تؤدي الأمطار التي تسقط على أطلال بلدة العلا القديمة التي تسمى الخريبة[١٣٤] إلى إظهار بعض القطع الأثرية فوق سطح التربة ، ونتيجة للأمطار التي هطلت هناك مؤخراً فقد

---

(١٣١) الصواب كتب بخط المسند .

(١٣٢) انظر قراءة النص وتفسيره عند المؤلف نفسه في كتابه:

Nabtaeische Inschriften aus Arabien, Berlin 1885, p 24

(١٣٣) منطقة تقع في جبال الألب بين سويسرا وإيطاليا والنمسا .

(١٣٤) تقع على مسافة ٣ كم إلى الشمال الشرقي من بلدة العلا .

أحضر لي في صباح هذا اليوم إناء من الفخار وُجد هناك. تناولت اليوم طعام الإفطار في منزل شخص لا أعرفه ، ثم شربت القهوة كالعادة في مرات عديدة عند القاضي موسى ، بعد ذلك توجهت محاولاً العثور على ملابس لذلك المسكين مرزوق الذي عمل معي يوم أمس بجد وإخلاص ، فهو - على الأقل بالنسبة لي - يستحق المساعدة لكونه يسير وهو مرتدي قطعة قماش شفافة ، لذلك قمت بشراء ثوب له كلفني مجيدياً واحداً .

جاء بعد الظهر شخص بلوي أي من قبيلة بلي يحمل أخبار غزو انطلق في الأمس من الشمال إلى هذه الأنحاء، فوراً تذكرت هوبر وحيلان، وتمنيت ألا يقعا في أيدي قطاع الطرق ، وسرعان ما انتشرت الإشاعات المختلفة حول ذلك الغزو، ففي البداية قيل: إن حيلان ورفيقه المدعو شملاني تعرضا لهجوم من قبل أفراد قبيلة بلي، وسلبوا منهم إبلهم وكل أمتعتهم ، بعد ذلك سمعنا أن شملانياً هذا هو الشيخ سليمان بن رفادة المنتمي لقبيلة بلي ويسكن في بلدة الوجه، ثم ظهرت إشاعة أخرى مفادها أن أولئك اللصوص ردوا على حيلان كل أمتعته ماعدا ناقته، لأنها تحمل وسماً لقبيلة هتيم ، وأخيراً قيل لنا: إن هذا الخبر الأخير غير صحيح. وفيما يتعلق بمصير هوبر فسنذكره أثناء حديثنا عن أحداث يوم الخامس والعشرين من شهر مارس . توجهت فيما بعد لأتجول في البلدة باحثاً عن النقوش ، حيث عثرت على ثمانية نقوش جديدة حصيلة لهذا اليوم ، ولكن اثنين منها - يا للعنة - كتبا على حجرين مثبتين في أعلى الجدار، ولن أستطيع الوصول إليهما دون سلم .

أُنزلت أمتعتي خلال النهار مرة أخرى من سطح المنزل ، لأنها لم تعد هناك في مأمن من اللصوص الذين يقفزون فوق السطوح ، وحتى لا يكون مصيري مثل ذلك التاجر الذي قدم إلى هنا من دمشق قبل بضع سنوات، فسرقت منه حمولة جملين من الأسلحة كان قد وضعها فوق سطح المنزل . كانت ليلة البارحة تمر ثقيلة جداً على خلوة امرأة سعيد ، فقد أنجبت قبل حوالي أربعة أو خمسة أسابيع طفلاً ، ومن جراء ذلك ظلت تعاني من ألم شديد في الجهة اليسرى من بطنها ، وقبل أن يرحل هوبر من هنا بوقت قصير أعطاها علاجاً لا يتناسب مع طبيعة مرضها ، وبعد أن سمحت لي اليوم بأن أكشف عليها بدقة اتضح أنها ربما تعاني من

التهاب في أرحامها . وقد وعدتني بأن تمنحني نصف مجيدي إن أنا تمكنت من مساعدتها في الشفاء من مرضها ، وهنا عملت لها كَمَّادة ونصحتها بأن تضعها فوق موضع الألم فترة من الوقت . وبعد ذلك حضرت إلي ديسة حماة الشيخ (أو ربما هي زوجه الأولى ؟) ومنحتني سلة متسخة ، فأهديتها مقابل ذلك نصف مجيدي .

كان العشاء يتكون اليوم من الرز مع بعض من قطع ضلوع الماعز ، وبعض البيض والخبز وحليب مضاف إليه شيء من السكر .

الجمعة ١٨٨٤/٣/٢١ لم يشهد اليوم أحداثاً كثيرة ، لذلك وجدت الفرصة سانحة كي أتأمل في ذباب بلدة العلا وأوساخها وكذلك طبيعة الحياة في إحدى مدن وسط الجزيرة العربية . وفي صباح هذا اليوم حضر الكثير من الناس لشرب القهوة عند سعيد، وبدؤوا يتحدثون مع بعضهم البعض بصوت مرتفع كما هي العادة ، ومن ثم ذهبت إلى منزل عبدالله مويس لأعمل بصمة لأحد النقوش الحميرية(١٣٥) هناك ، بعد ذلك سمعت خبراً يقول: إن هوبر رجع مرة أخرى إلى الحجر وسيغادرها اليوم . حقا لقد عانيت من شيء طالما أزعجني ، وهو الاعتداء عمداً أو مصادفة على النقوش وتدميرها ، ففي الأمس مثلاً اكتشفت في أسفل مدخل يقع بالقرب من سور المدينة المجاور أيضاً لملعب الأطفال نقشاً جديداً ، وبينما كنت واقفاً مع مرزوق أنبهه على التأكد من موضع النقش كي نتمكن في يوم الغد من بصمه رآني مجموعة من الصبية فأسرعوا نحوي كي ينظروا ماذا أفعل ، وحينما ذهبنا في اليوم التالي إلى موضع النقش حاملين معنا أدوات البصم وجدناه في حالة سيئة ، حيث قام أولئك الأطفال الأغبياء برجمه بالحجارة ، ولكنه ولحسن الطالع تبين لي أن الحجر كتب عليه نقش ليس بذي أهمية بالغة . والآن لنتحدث عن الذباب والوسخ ، فالذباب هنا كثير جداً لدرجة أنني نادراً ما عملت بصمة لأحد النقوش دون أن يعلق فيها ذبابتان أو ثلاث أو أربع بل عشر بين الورق المبلل والحجر المنقوش ، كذلك في الأكل ولاسيما التمر ، فلا يستطيع المرء وضع شيء في فمه إلا

---

(١٣٥) الصواب المعينية .

ويدخل معه بعض من الذبان، حتى دلة القهوة فإن لم تكن على الجمر مباشرة وجب عليهم تغطيتها بواسطة قطعة من القماش مع إحكام قفل غطائها وإغلاق ثعبتها بقطعة من خيشة. أما بخصوص الأوساخ والأتربة في بلدة العلا فليس بمقدور المرء تصورها إن لم يكن قد رآها، فالشوارع والأحواش مملوءة بالنفايات وروث الحيوانات وفضلات البشر ، لدرجة أن المرء بكل خطوة يخطوها إلى الأمام يكاد ينزلق فيها . كما أن الغبار المثقل بآلاف الملايين أو أكثر من الجراثيم يحيط بالمرء من كل ناحية داخلاً عبر الفم والأنف والعين والأذن وأيضاً مسامات الجلد ذاتها ، فالمرء يراه ويحسه ويستنشقه ويعيش معه . عند المساء ذهبت مع عبدالله مويس إلى بستانه الذي يوجد فيه عين تصل درجة الحرارة فيها إلى ٢٨.٥ درجة ، وينمو فيها عدد كثير من القواقع الشبيهة بتلك التي رأيناها في تيماء . بعد ذلك ذهبت معه إلى بيته لتناول طعام العشاء .

السبت ١٨٨٤/٣/٢٢ تحتفل بلادي في مطلع هذا اليوم المنعش بعيد ميلاد القيصر ، ولكن البسطاء هنا ليس لديهم تصور عن القيصر ، وماذا عسى أن تكون ألمانيا؟ فمن المستحيل ومن غير المجدي أن أحدثهم حول هذا الموضوع ، فلو كنت في حائل لربما وجد من يتفهم ماذا أقول. بعد الظهر بدأ مرزوق يعمل بصمات للنقوش التي عثرنا عليها مجدداً، وقد كان واحد منها مرتفعاً لدرجة أن جذع النخلة لا يصله مما جعلني أصرخ قائلاً: أين السلم ؟ فلو كان معي لتمكنت من الوصول إلى ذلك النقش ، ولكنه محفوظ في قلعة مدائن صالح ، يا هوبر، لقد سببت نصيحتك تلك عواقب وخيمة ! وأنا أيضاً كنت حماراً غبياً حين سمعت نصيحتك! عموماً لقد تمكنت - معرضاً نفسي للخطر - من الوصول إلى نقش آخر كان هو أيضاً يقع في أعلى الجدار ، وذلك من خلال الصعود عبر ساق شجرة غير متين كاد ينكسر من وسطه . في مساء هذا اليوم كان يجلس في القهوة ذلك الشخص الذي ذكرت آنفاً أنه هرب من دفع الضرائب ، فبعد أن أرسل إليه سعيد رسالة يؤكد له فيها عدم التعرض له بسوء قدم من منفاه في قلعة مدائن صالح .وقد كان يجلس بكل هدوء حول النار مع سعيد أبي علي الذي بدأ يحاوره من أجل أن يدفع الضريبة ، وعاودا جلستهم تلك في صباح يوم الغد، حيث أدى الصراخ

والارتعاش بمضيفي سعيد إلى نسيان إعداد القهوة .كان الجو حاراً هنا ، لذلك كانت سعادتي بالغة جداً حينما تمكنت بعد شرب القهوة من الصعود إلى السطح والجلوس هناك بعض الوقت.

الأحد ١٨٨٤/٣/٢٣ كان الطقس صباح اليوم رطباً والسماء ملبدة بغيوم ثقيلة تنبئ عن قرب هطول المطر على المنطقة . في البداية قمت بشراء نقش نبطي مؤرخ من السنة الأولى لحكم حارثة ملك الأنباط[١٣٦] دفعت لصاحبه مجيدياً واحداً ، وأعطيته نصف مجيدي لكي يقوم بتكسير أجزاء من الحجر دون أن يتعرض للنقش كي يخف وزنه ويسهل حمله ، كما قمت بمحاولة شراء حجرين آخرين كتب عليها بخط لحياني[١٣٧] ، ولأن صاحب النقش الأول رفض بيعه لي مقابل مجيدي واحد ، أما الثاني والذي جلب في الأصل من مذبح أحد المعابد، فأتوقع الحصول عليه مقابل مجيدي واحد ، وبالفعل تمكنت من الحصول عليه في مساء يوم الغد، وحيث إنه كان مثبتاً في مكان عال من الجدار فقد اضطررت لبذل جهد كبير من أجل خلعه من مكانه . وصل اليوم مجموع ما حصلت عليه من النقوش في بلدة العلا إلى خمسين نقشاً، إضافة إلى نقشين آخرين قيل لي: إنهما موجودان في بساتين النخيل ، كما أن الخادم مرزوق -والذي أصبح بسبب الإكراميات المختلفة نشيطاً- اكتشف نقشين جديدين، ومجموعة أخرى من النقوش العربية القليلة الأهمية ، إضافة إلى ذلك فالناس هنا غالباً ما يطلبون حضوري إلى منازلهم التي يعتقدون أنه يوجد فيها نقوش ، على الرغم من أن بعضها لا يتعدى كونه حجراً مهذباً ، أو حجراً عليه آثار زخرفة غير واضحة المعالم ، ولكن المرء في مثل هذه الحالة يجب عليه عدم تثبيط عزائمهم وسلب السعادة بسبب ذلك منهم ، وحتى لا يضطروا أيضا إلى عدم عرض أي شيء عليه . أضحى الذباب اليوم وكأنه أصيب بمس من الشيطان، وذلك

---

(١٣٦) هو الحارث الرابع الذي كان في بداية أمره قائداً للجيش النبطي ، ولكنه استغل وفاة الملك عبادة الثاني (٣٠-٩ق.م) وغياب وزيره سُلي الذي كان في تلك الفترة يقوم بزيارة لعاصمة الإمبرطورية الرومانية روما فاستولى على الحكم ، حيث استمر يحكم قرابة ٤٩ عاماً (٩ق.م - ٤٠م) ، شهدت خلالها المملكة النبطية تطوراً واضحاً في جميع الميادين، انظر إحسان عباس ، تاريخ دولة الأنباط ، عمان ١٩٨٧ ، ص ٥٧ .

(١٣٧) نسبة إلى مملكة لحيان التي اتخذت من الخريبة (العلا) مركزاً لها ، انظر :حسين أبو الحسن ، قراءة لكتابات لحيانية، الرياض ١٤١٨، ص ٣٩ .

بسبب قرب هطول المطر الذي انهمر مصحوباً بالرعد والرياح منذ الساعة الرابعة، لهذا السبب أيضا انتقلت اليوم من مكاني في السطح إلى البيت .

الإثنين ١٨٨٤/٣/٢٤ حان الوقت الآن لكي أقف بنفسي على أطلال بلدة العلا القديمة ، فمنذ أسبوع وأنا محبوس داخل أسوار هذه البلدة اللطيفة التي لو لم يكن فيها نقوش كثيرة تملأ علي وقت فراغي لما تمكنت من البقاء فيها . وفي الحقيقة كنت طوال هذه المدة أتطلع إلى القيام بجولة على الأقدام خارج أسوار البلدة ، وكم كنت أتمنى أن تكون هذه الجولة على ظهر الجمل كي أتمكن من مشاهدة جميع الآثار القديمة هناك .

تجمع مع شروق شمس هذا اليوم في قهوة سعيد ثلاثة وعشرون شخصاً كلهم مسلحون، وما هي إلا برهة من الوقت حتى وصل العديد من قطعان الماشية والحمير والنساء والأطفال كلهم يرغبون في استغلال هذه الفرصة النادرة ليصلوا إلى مواطن الأعشاب التي لا تبعد سوى ربع ساعة من المسير خارج أسوار بلدة العلا . وأخيراً خرج الجميع يتقدمهم مجموعة من الكشافة (المستطلعين ، العيون) الذين كانوا يصعدون كل مرتفع من الأرض زاحفين على بطونهم كي يراقبوا كل مكان أمامهم . في هذه الأثناء رأينا بعضاً من قطاع الطرق المنتمين لقبيلة بلي، ولكنهم اضطروا للتراجع وهم يرون تلك الجموع الهائلة من الناس تتقدم نحو الأمام .

تقع الأطلال الأثرية في مكان مرتفع من الأرض في بطن الوادي المحصور بين الجبال العالية، وهي عبارة عن أكوام متفرقة من قطع الأحجار الرملية الحمراء، وإلى اليمين واليسار من هذه الأطلال الأثرية ينمو العديد من أشجار الطلح والأعشاب، وفي وسط التلال الأثرية يبرز حوض منحوت من الحجر الرملي بحجم ضخم جداً بداخله ثلاث درجات متداعية ، وهو ما يطلق عليه أبناء المنطقة حلاوية النبي صالح[١٣٨] ، لاعتقادهم أن ناقة النبي صالح (عليه السلام) ذات الحليب الوفير تشرب منه . علاوة على ذلك عثرت هناك على اثنتين من أرجل التماثيل، الأولى كبيرة وتفوق الحجم الطبيعي وعلى قدمها آثار النعال (صندل)، أما الثانية فهي

(١٣٨) يبلغ قطر الحوض الصخري ٣٧٠سم وعمقه ٢٢٠ سم ، انظر عبدالله نصيف ، العلا، الرياض ١٤١٦، ص ٩ .

صغيرة . شاهدت هناك على سطح الموقع العديد من بقايا الأواني الحجرية ، كما أحضر لي الأطفال أيضاً كسرة من تمثال صغير الحجم يصل ارتفاعه حوالي ثلاثين سنتمتراً، ذي تسريحة شعر تشابه تلك التي نراها على التماثيل المصرية القديمة، وربما تكون تلك الرجل الصغيرة التي ذكرتها آنفاً تابعة له . أما بالنسبة للمقابر فهي هنا بسيطة جداً ولا يزال يوجد داخلها بعض بقايا التوابيت الخشبية ، وكسر من الأحجار ، وبعض الأواني الفخارية ، وقطع من الأكفان . وفي أحد المنحدرات عثرت على كميات كثيرة من خبث المعادن ذي اللون الأخضر والأسود ، يلاحظ القارئ أماكن وجودها على المخطط المرفق لبلدة العلا .

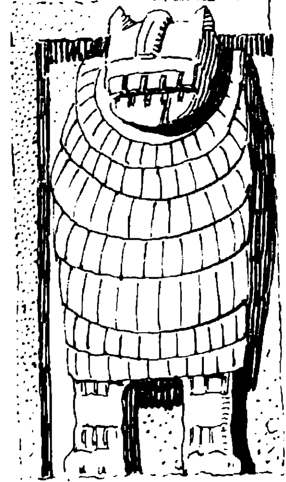
إضافة إلى ذلك وجدت عدداً كثيراً من النقوش، جميعها تنتمي إلى مجموعة الكتابات السامية الجنوبية (معينية ، لحيانية)، ماعدا واحداً منها فهو نبطي، ويحتوي على علم لشخص متبوع باسم أبيه .

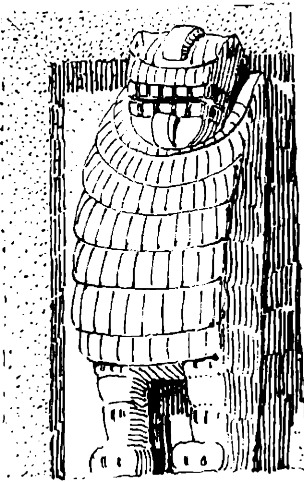
انطلقت بعد ذلك لمواصلة طريقي من الشمال باتجاه الجنوب نظراً لاعتقادي أنني سأجد هناك على صفحات الجبال آثاراً من العصور القديمة ، في هذه الأثناء ذكر لي رفاقي عدم وجود آثار في الجهة الجنوبية الغربية، ونصحوني بعدم الذهاب إلى هناك لخطورة تلك المنطقة، ولكنني لم أقع تحت تأثير تحذيرهم ، بل واصلت طريقي يرافقني أربعة رجال مسلحين، وبينما كان رفاقي يسيرون بموازاتي في بطن الوادي إلى الأمام شاهدت هناك على صفحة الجبل أربع فتحات بداخلها أربعة تماثيل خرافية ذات أسنان بارزة إلى الأمام(١٣٩) كل اثنين منها بجانب بعضهما البعض ، وتذكر إلى حد كبير بأشكال المنحوتات المصرية والمكسيكية القديمة ، وبين الاثنين الأولين نقش كتب بخط جيد(١٤٠). ولكنني بسبب علوه

(١٣٩) نحتت هذه الأسود الخرافية بجانب مقابر المعينيين لتكون بمثابة حراس لمقابرهم من أيدي العابثين ولصوص المقابر

(١٤٠) كتب هذا النص الواقع بين الأسدين الخرافيين من قبل أحد أفراد الجالية المعينية الذين استوطنوا الخريبة (العلا) ، وهو يقرأ ويفسر كالتالي (١) هـ ن ا ا ب ن ا و هـ ب ا ل (٢) ذ م ل ح ا هـ ن ا ب خ ط ا ت ا ن (٣) ك ر ح ا و و د ا ا ح ل ي (٤) ذ ي ن ق ل ا ق ب ر ن ا ع م ر (٥) خ ر ف ن ا و ا ر خ ن «هانئ بن وهب إل من قبيلة مليح (عندما) كفر عن معاصيه بقرابين للإله نكرح والإله ودّ ، ولتعاقب الآلهة كل من ينقل (يغير ، يخرب) هذا القبر ما دامت السنين والأشهر (إلى أبد الدهر)».

وصعوبة الطريق إليه لم أتمكن من مشاهدته بوضوح ، كذلك الحال أيضاً بالنسبة للنقوش الأخرى التي كتبت على ارتفاع يتراوح ما بين ١٠ - ١٥ متراً .

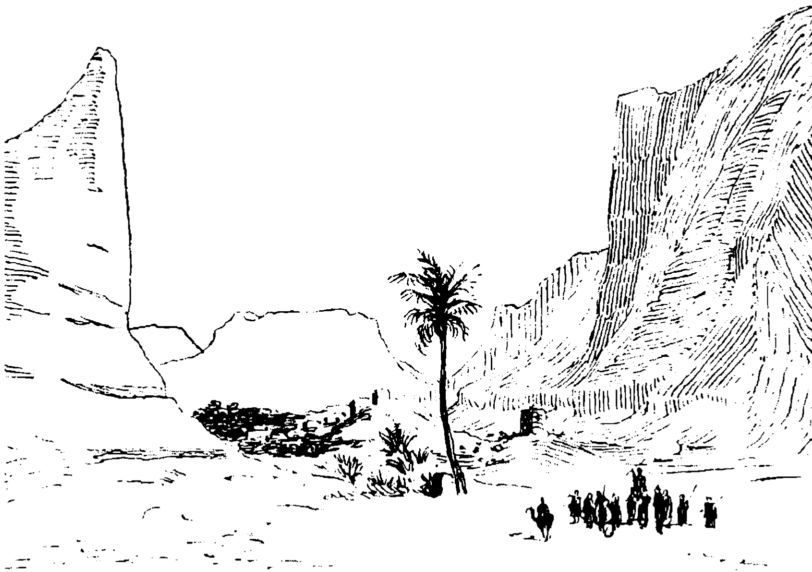




تماثيل الأسود الخرافية يتوسطها نقش معيني

حين بدأت أشعر بالتعب والإنهاك نزلت إلى مخيم رفاقي حيث أُعدت هناك القهوة الحلوة والعادية . بعد ذلك بدأت مسيرة العودة، حيث ظهرت أمامنا بلدة العلا ببساتين نخيلها وأسوارها الطينية وهضبة أم ناصر التي تتوسطها ، وبينما كنا على مقربة من البلدة لاحظت أن الأطراف العليا لأسوار البلدة مزينة بالزخارف ، حقاً لقد كانت مسيرة العودة أشبه ما تكون بموكب للنصر، فالجميع كانوا سعداء بنجاح الرحلة دون حدوث أي تصادم مع قطاع الطرق ، نعم لقد ابتهج الجميع لمجرد خروجهم ، والآن سعادتهم أكبر وهم عائدون سالمين إلى بلدتهم . كانت قطعان الماشية تتقدم الجميع إلى الأمام نحو البلدة ، وخلفها أسير أنا ممتطياً ذلولي التي أثارتها كثرة الذباب ، ومن خلفي يسير حاكم البلدة سعيد ، ومن ورائه يسير الرماة في طابور مستقيم يتقدمهم شخص يرقص وهم يطلقون الواحد تلو الآخر نيران

بنادقهم مما جعل واحداً منهم يسقط على الأرض من شدة إطلاق النار، وفي هذه الأثناء وبينما كنت أسمع صوت إطلاق النار كنت أعتقد في كل لحظة أن تستقر الطلقة القادمة في ظهري. بعد أن وصلنا إلى البلدة التقيت مع شخص اسمه غضيان سوف يرافقني خلال رحلتي القادمة إلى الوجه ، وهو شقيق كبير شيوخ قبيلة بلي المدعو مرزوق بن رويحل ، وبعد تباحث بسيط أعرب عن استعداده لمرافقتي مقابل ٢٠ مجيدياً ، وقال إن الأمر يحتاج أيضاً إلى بعض الرجال لتوفير الحماية الكافية . لقد كان الرجل شاباً ويوحي بالثقة ، وكان برفقته خادمه عبيد الذي كان يمتطي ذلولاً أوضح (أبيض) . وفي المساء أحضر إليّ في المنزل ذلك المذبح الصغير الذي يعلوه نقش لحياني والذي حاولت اقتناءه يوم أمس . نعم لقد كنت راضياً تمام الرضا على اقتنائي إياه ، كيف لا وقد أصبح خلال فترة طويلة بمثابة الدرة بين كافة مجموعاتي، إنه الآن موجود في مكتبة جامعة شتراسبرج. بعد ذلك وبينما كانت الأمطار تنهمر إلي الشمال والشرق من البلدة ذهبت إلى فراشي والسعادة تغمرني على نجاح مسعاي لهذا اليوم .



رحلة العودة إلى العلا

الثلاثاء ١٨٨٤/٣/٢٥ من المقرر أن ننطلق اليوم نحو الحجر، ذلك الهدف الذي أشتاق إليه دوماً ، فهناك توجد النقوش الرائعة والكبيرة التي وصلت أولى المعلومات الدقيقة عنها إلى أوربا من خلال (داوتي)، تلك النقوش التي حفزت حماسي للقيام برحلتي إلى الجزيرة العربية، والتي آمل أن أخرج منها بنتائج كثيرة حول تاريخ العرب والأنباط .

قبل الرحيل إلى هناك قمت بنسخ ثلاثة نقوش سامية جنوبية[١٤١] كانت توجد في بستان للنخيل يقع على مسيرة نصف ساعة باتجاه الشمال . ثم أعددت كل شيء استعداداً للسفر الذي تأخر حتى الظهر، في هذه الأثناء وبينما كنت أنتظر اكتمال تجهيزات الرحلة رأيت غلاماً يرتدي قطعتين رقيقتين من القماش ، الأولى لفها على صلبه والثانية وضعها فوق رأسه، حيث تعرض قبل قليل لحالة سلب من قبل أفراد قبيلة بلي .

انطلقنا بصحبة مجموعة كبيرة من الناس الذين رافقوني حتى بوابة البلدة . وهنا ودعت العلا ونقوشها وسكانها الفضوليين وذبابها وأوساخها[١٤٢] . حقاً لقد وجدت فيها أشياء ممتعة، ولكن أشياء أخرى أكثر إمتاعاً تنتظرني الآن . بالتأكيد لم يكن ذلك هو الوداع الأخير للعلا فسأعود إليها بعد أيام قلائل ، مثلها مثل هوبر الذي ودعته قبل أيام ثم رأيته ، وكما يقول المثل المحلي هنا: (المخيط مرتين يعيش أطول)، نعم فبعد أن ودعت هوبر والعلا للمرة الثانية لم أرهما بعد ذلك طوال حياتي .

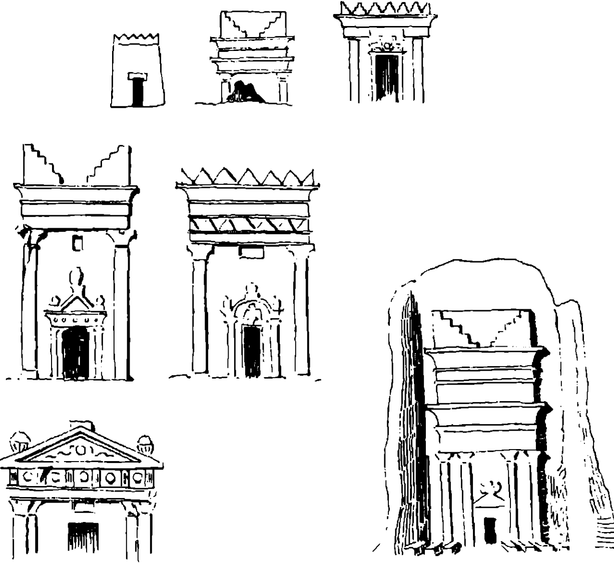
انطلقنا في حوالي الساعة الثانية عشرة ، حيث كنت أسير خلف غضيان الذي كان يتقدمنا مع رديفه عبيد راكبين ذلولاً وضحاء (بيضاء) ومعهما بعض أمتعتي ، كان في مقدورنا هذه المرة نتيجة لمرافقة هذا البلوي لنا أن نسلك طريقاً مباشراً باتجاه الشمال عبر شعيب العذيب، في حين اضطررنا في يوم السادس عشر من شهر مارس السير عبر طريق غير مباشر

(١٤١) لعل المؤلف يقصد ما نسميه اليوم بالنقوش اللحيانية .

(١٤٢) يصف المؤلف العلا في هذه الفترة الزمنية متأثراً ببلاده الألمانية التي قطعت شوطا في مجال المدنية ، ولو قدر للمؤلف أن يشاهد العلا اليوم وسكانها لأصبح لديه رأياً مختلفاً عن هذا الرأي .

نحو العلا ، وذلك بسبب تخوفنا من أفراد قبيلة مرافقي الذين كانوا يقطنون في تلك الأنحاء، مما جعل الطريق آنذاك غير آمن بالنسبة لنا . لقد شاهدت هناك في شعيب العذيب عدداً من النخيل المهملة والأدغال التي توسطها الآبار ، وذلك ما يجعل منه ملاذاً مناسباً لقطاع الطرق واللصوص . بعد هذا الشعيب انحرف طريقنا باتجاه اليسار عبر مجموعة هضاب القرضية. بعد ساعتين تقريباً من المسير مررنا بجوار جبل مكتظ بنقوش ذات خطوط مختلفة ، حيث تعلو صفحاته نقوش كتبت بالخط الآرامي القديم والخط الثمودي والخط النبطي والخط اليوناني والخط اللاتيني ، وما تنوع هذه الخطوط هنا إلا شاهد واضح على العمق الحضاري والتعاقب التاريخي لبلدة الحجر . أما موضوعات هذه النقوش فتندرج تحت ما يسمى (نقوش الذكريات) التي من خلالها خلد أولئك القدماء أسماءهم على مر الزمن . يقول المثل الألماني (يد المجنون تلطخ (توسخ) الجدار والطاولة) ، ولكننا نحن المتخصصين بالنقوش والخطوط القديمة في غاية البهجة ، لأن أيادي أولئك القدماء امتدت إلى الجدار والأحجار لتدون عليها أسماؤها ، فحتى وإن كانت المعلومات التي تحتويها تلك النقوش عديمة المعنى والأهمية ، فمن تلك الحروف القليلة يمكن للمرء أن يستنتج معلومات قيمة حول التاريخ واللغة والحضارة والدين وتاريخ تطور الكتابة . حقاً لقد توقفنا طويلاً أمام صفحة ذلك الجبل على الرغم من أن مرافقي كان مستعجلاً ولم يكن يرغب في حقيقة الأمر بالتوقف، لذلك فلم يسمح لي بنسخ تلك النقوش الواقعة إلى الشرق من الطريق . وهكذا اضطررت للموافقة، وقلبي يتحسر على عدم تمكني من نسخ بعضها، ولكن أملي أن يهتم بها المختصون لاحقاً .

اقتربنا الآن أكثر من بنايات المقابر الرائعة في مدائن صالح ذات النقوش النبطية الطويلة على واجهاتها، والتي من أجلها كان الهدف الرئيسي لرحلتي إلى جزيرة العرب. لقد رسمت منظرين توضيحيين لعلهما يوضحان كيف كانت تبدو تلك المقابر من بعيد. حينما اقتربنا من المقابر ترجلنا وتركنا الجمال ترعى تحت بصر عبيد، أما أنا فأسرعت إلى المقابر وبدأت أرسمها بهمة وعزم .



مدائن صالح

كانت المقابر منحوتة في الصخر وتكتظ واجهاتها بالعديد من الزخارف والأشكال المصورة بشكل بارز على الصخر ، ولعل الرسوم التوضيحية المرفقة تقدم فكرة بسيطة عن الأشكال الرئيسة على واجهات تلك المقابر . أما أجمل هذه المقابر وأكبرها - إلى اليمين أسفل الرسمة - فهي تلك التي تسمى مقبرة الفريد[١٤٣] .

و الآن لنلقي نظرة على المقبرة من الداخل فهي تحتوي على أرائك (أسرة) الموتى المشابهة لأدراج فارغة أو حفرة مستطيلة منحوتة في جدار صخري، بعضها منحوت في أرضية المقبرة وكأنها توابيت غير مغطاة . كانت النقوش النبطية الرائعة التي نشرتُ ترجمة لها في كتابي (نقوش نبطية من الجزيرة العربية)[١٤٤] توجد فوق مداخل المقابر . ومن الملاحظ أيضاً أن بعضاً من هذه المقابر خالية من أي نقوش وبعضها يظهر فوقها تجويف صغير ربما كان مثبتاً

(١٤٣) تسمى أيضا قصر الفريد وبيت الشيخ ، وهي تقع في أقصى الجزء الجنوبي من الموقع .

(١٤٤) نشر هذا الكتاب بالألمانية في عام ١٨٨٥م .

عليه فيما مضى لوح من المرمر أو البرونز . جدير بالملاحظة أيضاً أن كافة النقوش المكتوبة على المقابر هنا نبطية الخط ، مما يعني أننا انتقلنا من الحميريين [١٤٥] في العلا إلى النبطيين في الحجر ، وهذا ربما يشهد بدوره على أن العلا كانت مستودعاً للبضائع التجارية القادمة من جنوب جزيرة العرب ، وأنها كانت بمثابة المستقر للتجار المعينيين والسبئيين ، أما الحجر فهي مركز الآراميين أو العرب المتأثرين بالثقافة الآرامية ، وهنا يمكن القول أيضاً: إن المنطقة الواقعة في الوسط بين البلدتين كانت بمثابة المكان الذي يتبادلون ويعيدون فيه تصدير بضائعهم التجارية، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل كلتا المدينتين ازدهرتا في وقت واحد، أم أن الحجر احتلت مكانة العلا بعد أن قلت أهميتها[١٤٦] ؟

من هم أولئك الثموديون أو بنو ثمود الذين لا يزال ذكرهم مستمراً حتى اليوم على ألسنة الشعوب العربية ؟ يعتقد السكان المحليون هنا بالرغم من وجود بقايا العظام البشرية وبقايا أخشاب التوابيت أن تلك المقابر المنحوتة في الصخر كانت مساكن الثموديين القدماء .وهذا الاعتقاد ليس تقليداً متوارثاً من العصور القديمة بل إنه يستند على ما ذكر في القرآن، فقد تحدثت آيات عدة من القرآن عن شعب ثمود ، وعن بيوتهم المنحوتة في الصخر ، وعن عدم استجابتهم لدعوة النبي صالح (عليه السلام) ، وعن معاقبتهم بالزلزال[١٤٧]. هكذا في السور رقم ٧ /٧١ - ٧٦ [١٤٨]، ١٥/ ٨٠ وما بعدها[١٤٩] ، ٢٦/ ١٤١ وما بعدها[١٥٠] ٨٩ / ٨ [١٥١] من هنا يبدو أن ذاكرة العرب لم تعد منذ القرن السادس الميلادي تنظر إلى تلك البنايات المنحوتة في الصخر على أنها مقابر ، بل اعتبرتها مساكن لقوم ثمود ، كما تشير إلى ذلك أيضاً تلك

(١٤٥) الصواب من المعينيين .

(١٤٦) لا تزال الإجابة الدقيقة عن هذه الأسئلة غير مؤكدة ، والسبب يعود إلى قلة الحفريات الأثرية العلمية المنظمة في كلا الموقعين.

(١٤٧) عاقب الله عز وجل أصحاب الحجر بالصيحة (سورة الحجر ، آيه ٨٣)

(١٤٨) سورة الأعراف ، الآيات ٧٣-٧٩ .

(١٤٩) سورة الحجر ، الآيات ٨٠-٨٤ .

(١٥٠) سورة الشعراء ، الآيات ١٤١- ١٥٨ .

(١٥١) سورة الفجر ، الآية ٩ .

الروايات العائدة لفترة النبي الذي مر بنفسه على بلدتي الحجر والعلا أثناء رحلته إلى الشمال[١٥٢].

من جانب آخر يبدو أن اسم الأنباط لم يكن خلال القرن السادس الميلادي معروفاً على الإطلاق في تلك المنطقة ، على العكس من ذلك نجد أن ذكره استمر إلى وقت متأخر في مناطق أخرى مثل سورية وبلاد الرافدين (العراق) . نعم فمن المؤكد أن ثمة قبيلة تدعى ثمود استوطنت تلك المنطقة في فترة العصر الجاهلي ، فالاسم ثمود يظهر أنه مثبت في مجموعة النقوش التي يطلق عليه المختصون اسم (النقوش الثمودية)[١٥٣] . وقبل أن نترك هذه المنطقة اتجهنا في جولة نحو المنطقة الجبلية لكي نلقي تحية الوداع عليها .

اتجهنا بعد ذلك إلى قلعة مدائن صالح ، وهناك دهشت كثيراً حينما التقيت بهوبر ومحمود ونومان ومعهم جمالهم ذات الأوجه التي تنم عن ذكاء وفطنة . ففي اليوم الذي تعرض فيه حيلان للنهب نجا هوبر بأعجوبة من غارة أخرى ، مما اضطره إلى قضاء الليل وبضع ساعات من النهار برفقة الحيوانات في أحد المخابئ ، ولكنه بسبب حذره تمكن من الوصول إلى قلعة مدائن صالح، وقد عرف هنا أن خمسة عشر رجلاً من أفراد قبيلة بلي يترصدون له ولصناديقه الذهبية في الخارج ، ونظراً لأنه شعر بالحصار داخل الحصن حاول الخروج إلى منطقة المقابر كي يعمل هناك بعض البصمات للنقوش ، ولكنه ورفاقه اضطروا للهروب مرة أخرى تحت وطأة مطاردة أفراد قبيلة بلي لهم ، وبينما كانوا يهرولون هاربين على جملهم تشابكت الحبال بالسلم الذي كان بحوزتهم فسقطوا من على ظهر الجمل وولوا هاربين ليختفوا عنهم بين الصخور. في أثناء ذلك أخبرني هوبر أنه بعث برسالة إليّ مع رسول إلى العلا ولكنني لم أره ولم نصادفه خلال الطريق .

التقيت في القلعة كذلك مع شخص يدعى علي بن سعيد كان عائداً من غزو مع الأمير ،

---

(١٥٢) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة وهو عليه الصلاة والسلام في طريقه الى تبوك .

(١٥٣) يرد في النصوص الثمودية لفظة (هـ ث م د) والتي تقرأ من قبل بعض الدارسين الثمودي .

ويحمل معه رسالة من حمود العبيد إلى عبدالعزيز العنقري في تيماء ، وقد استهلت تلك الرسالة بالآتي:

(تحيات من حمود العبيد إلى العنقري...) ، ثم تلتها عبارة توبيخ له بسبب عدم إكرامه لنا كما ينبغي ، وكذلك على عدم تقديمه المساعدة الكافية لنا في الحصول على أحجار النقوش، ثم وجه إليه أمراً بأن يرسل نقوشنا إلى حائل ولاسيما الملفوفة (المغلفة) منها وتلك التي عُثر عليها في القصر ، وقاعدة العمود التي أعيد استخدامها مدقة لطحن حبوب القهوة، وذلك الحجر الذي أخرج من البئر . طلب مني مرافقي غضيان البلوي إجازة لهذه الليلة كي يتمكن من الرجوع برفقة علي إلى العلا وذلك لحضور وليمة هناك ، وقد غادر معه غلامان كانا ينتظران في القلعة من يرافقهم ، حيث أخذ من كل واحد منهم مجيدياً واحداً نظير تأمين الحماية لهم .

الأربعاء ١٨٨٤/٣/٢٦ كان اليوم عظيماً بالنسبة لي ففيه سأباشر العمل في نقوش الحجارة النبطية التي يرتبط فيها نجاح رحلتي إلى جزيرة العرب . وأخيراً وجدت السلم الذي أخفاه هوبر ، كما أنه ولحسن الطالع لا يوجد اليوم ذباب كثير مقارنة بالأيام الماضية ، نعم كل شيء مناسب لبدء العمل ماعدا هبوب الرياح ، تلك الرياح التي سأتمتع باستنشاق هوائها الطلق لو كنت ممتطياً ذلولي وأسير عبر الصحراء ، كما أنها ستسعدني لو كنت جالساً في سفينتي وهواؤها يرتطم بالأشرعة ، حقاً لقد كانت الرياح التي أَلِفت مرافقتي طوال أيام الرحلة تضطر المرء إلى البكاء والحيرة بل والجنون ، فحينما يقف المرء هناك أمام نقش جميل والورق المبلل مقوساً بفعل هبوب الريح بين يديه ، ثم يبدأ ذلك الغلام المسكين محاولاً إبعاد التقوس من الورق بتحريكه هنا وهناك إلى الأمام وإلى الخلف، ولسان حاله يقول مناجياً الريح: مهلاً فلن نستسلم أو نستكين، فطالما أوراقنا قوية فلن تتمكني من تمزيقها رغم ما تنفخينه من هواء . والآن بمجرد أن تهدأ الريح قليلاً من الوقت نقوم على وجهٍ من السرعة بلصق الورق المبلل على الحجر، ولكن بمجرد انشغال المرء لحظة من أجل إحضار الفرشة لطرق الورق المبلل وتثبيته على الحجر يجده قد تقوس من جديد ، وبدلاً من إضاعة الوقت في

إعادة تثبيته يضطر المرء إلى معاودة العملية من جديد ، ولكن هذه المرة بشيء من الحذر والذكاء ، فبعد وضع الورق المبلل على الحجر تظل كلتا اليدين ضاغطتين على الورق بقوة، ولا ترفعان حتى تخف حدة الريح كي لا تدخل بين الورق والحجر وتؤدي إلى تقوسه من جديد .

عاد في حوالي الساعة الحادية عشرة غضيان من العلا ، حيث انطلقنا في حوالي الساعة الثانية عشرة ، خمسة على الجمال، واثنان يسيران على الأقدام متوجهان في البداية نحو المقابر الشرقية . ونظراً لعدم رغبتي في أي عوائق تحد من حركتي خلال عمليات بصم النقوش، فقد قمت بنزع ملابسي، ولم اترك سوى الثوب الذي ربطته بحبل على صلبي ، ولكي أتحلى بشيء من الأدب أنزلته قليلاً من أعلى إلى أسفل مدخلاً طرفه في ذلك الحبل المربوط على بطني، لدرجة أن ساقيَّ ومؤخرة رأسي ويديَّ عانت كثيراً من حرارة أشعة الشمس . ونظراً لكون السلم ذي ثمانية الأمتار لا يصل إلى أماكن بعض النقوش فقد اضطررت إلى الوقوف تحت ذلك النحت البارز على بوابة القبر الذي تسبب في حجب مجال الرؤية أمامي ، فلم أستطيع سوى نقل جزء من النص، وحتى ذلك الجزء الذي قمت بنسخه لم يكن مكتملاً، بسبب وقوفي بصورة متعامدة تحت النقش. علاوة على النقوش عثرت هناك في بعض المقابر على قطع من خشب التوابيت .

أنهيت عملي في حوالي الساعة الرابعة بعد أن كافحت من أجل نقوشي كما يناضل الليث للحصول على فريسته ، وقد تمكنت على الأقل من عمل بضع نسخ جيدة لبعض النقوش الكبيرة ، ولكنني على الرغم من استخدامي لورق مزدوج لم أتمكن بسبب دخول الهواء بين الحجر والورق من التخلص من التقوس والانتفاخ على سطح الورق ، وكمحاولة لمعالجة ذلك قمت بقص كل انتفاخ على الورق إلى أربعة أجزاء ثم أعدت لصقها قطعة قطعة على الحجر. لذلك فقد افتقدت البصمة جمالها وانسيابها ، أما أشكال الحروف فقد كانت ولله الحمد واضحة . لقد وجدت أن من المناسب في مثل هذا العمل أن يقوم المرء بطي مجموعة من الورق مع بعضها البعض ثم وضعها فوق قطعة من الجلد تمنع تسرب الماء ، وأخيراً يتم تثبيت الورق المبلل على الحجر . خلال مساء هذا اليوم قام هوبر بالإعداد لرحلته التي تقرر أن تنطلق قبل

طلوع شمس يوم الغد حتى لا يتمكن رفاقي المنتمين لقبيلة بلي من ملاحظة وجهة الطريق الذي سيسلكه ، وقد كان يريد أن يسلك طريقاً باتجاه الشمال إلى قبيلة الفقراء الذين رفضنا دعوتهم لنا في يوم الخامس عشر من شهر مارس .

الخميس ١٨٨٤/٣/٢٧ رحل هوبر قبل شروق الشمس حيث تمنى بعضنا لبعض أفضل الأمنيات ، بعد ذلك انتابني شعور بالقلق والخوف مشابه لذلك الذي شعرت به في يوم التاسع عشر من شهر مارس ، ولكن مشاعر الخوف تلك سرعان ما تبددت وحل محلها التفكير بالنقوش . وبعد أن غادر هوبر يرافقه محمود ونومان اتضح لي أن نومان الكلب استبدل حبل ناقته (رسن) المهترئ بحبل ناقتي الجميل والقوي . بعد أن انتهينا من تناول طعام الإفطار مباشرة وصل إلى هنا رسول سعيد من العلا حاملاً معه الخطاب الذي أرسله هوبر لي حينما كنت في العلا ، وخطاباً آخر لهوبر ، وفي الوقت نفسه طلب مني سعيد أن أخبره عن طريق مبعوثه بالساعة التي سأعود فيها إلى العلا ، حتى يتمكن هو ومجموعة من الرماة إلى الخروج لملاقاتي ، بعد ذلك خرجت مع أولئك البلويين (من قبيلة بلي) ومبارك وابن أخيه المدعو خالد إلى منطقة الأطلال الأثرية وبالذات إلى المكان الذي أخفينا فيه بالأمس السلم وبعضاً من أوراق بصم النقوش . كانت الرياح اليوم أقل حدة منها في الأمس ، ومن أجل تسهيل حركتي خلال العمل ارتديت قميصاً و بنطلوناً مشابهين لتلك التي يرتديها الصيادون . كانت النقوش التي سنعمل على استنساخها اليوم ترتفع إلى حوالي ستة أمتار ، لذلك فلن أحتاج إلا إلى ثلاثة أجزاء من السلم ذي أربعة الأجزاء . وهناك في الجزء الشرقي من المنطقة الأثرية تقع حجرتان كبيرتان منحوتتان في الصخر يطلق عليهما الأهالي المحليون مسمى الديوان أو المسجد[١٥٤] ، ويوجد بداخلهما عدد من المحاريب ترتفع حوالي المترين عن سطح الأرضية . بعد أن شعرت بالتعب والعطش رجعت إلى القلعة والوقت يقارب الساعة الرابعة . وفي المساء تسبب التعب الشديد والتفكير بالعمل والخوف من المصير إلى عدم قدرتي على النوم .

الجمعة ١٨٨٤/٣/٢٨ كان هذا اليوم مخصصاً أيضاً للعمل في نقوش الحجر ، ولكنه سيكون

(١٥٤) استخدم الأنباط هذا المكان المنحوت في جبل إثلب مقراً لممارسة طقوسهم الدينية .

اليوم الأخير ، لذلك استجمعت قواي كافة لكي أنهي العمل كما ينبغي ، فبعد الإفطار مباشرة انطلقت برفقة البلويين ومحمود مع ابنه الصغير خالد والخادم مبروك لاستكشاف المقابر الجنوبية والشرقية التي من أجملها وأكثرها زخارفاً تلك التي تسمى مقبرة الفريد .

كانت الرياح اليوم قوية ولكنها لن تخيفني فاليوم يجب أن أحقق أهدافي ، لذلك لم أترك نقشاً واحداً دون أن أستنسخه ، فقط هي مرة واحدة تمكنت الريح من هزيمتي ، ذلك حينما عصفت بهبوبها وأنا فوق السلم المتكئ على جدار أحد المقابر الكبيرة أحاول جاهداً تقريب الورق المبلل من النقش لتثبيته عليه ، ولكن دون جدوى، فالريح كانت تدفع بهبوبها الذي أدى إلى انتشال الورق من الحجر ، وحيث إن هذا النقش لم يكن ذا خط جيد توقفت عن المحاولة خوفاً من إهدار الوقت ،لم تتوقف الريح عن مكرها وخبثها فقد خطفت مني ثلاث ورقات ، بينما كنت أنزل السلم لتودعها عالياً في الزوايا المثلثة الشكل الواقعة إلى اليمين والشمال من واجهة القبر . بعد الظهر قمنا بعمل شيء من القهوة انتعشنا بشربها من عناء العمل .

بعد أن أنهيت عملي دون رجعة تبين لي أنني قمت باستنساخ ستة وعشرين نقشاً كبيراً، وهي كل ما تمكنت من العثور عليه هناك إذا استثنينا ذلك النقش الوحيد الذي حرمتني الريح من نسخه ، علاوة على ذلك تمكنت من نقل عدد كثير من النقوش القصيرة . غادرنا في مساء اليوم الخادم مبروك إلى العلا كي يخبر سعيدا بخروجنا من مدائن صالح مع طلوع شمس يوم الغد، حتى يتمكن من الخروج لملاقاتنا هو ورجاله المسلحون . وفي أثناء الليل وبينما كانت الظلمة تخيم على المكان سمعنا أصوات الكلاب تنبح خارج القلعة منبئة عن قدوم شخص غريب ، وسرعان ما ظهر أمامنا ثلاثة أشخاص من قطاع الطرق المنتمين لقبيلة جهينة، وخلال الليل بدأ أولئك الجبابرة مع لعبتهم المشؤومة التي سرعان ما تحولت إلى مشاجرة مأسوية عنيفة بينهم .

السبت ١٨٨٤/٣/٢٩ انطلقنا في حوالي الساعة السابعة صباحاً تاركين مدائن صالح خلفنا. حقاً لقد كنت منشرح الصدر وفي غاية السرور وأنا أودع ذلك المكان الخالي وتلك المنطقة

المقفرة قائلاً (مع السلامة) ، لم لا فقد أنهيت عملي وأكملت واجبي وحققت أهدافي وكل ما أتمناه الآن هو أن أكون في الوجه . كان يرافقنا خلال رحلة العودة إلى العلا أولئك اللصوص الثلاثة من قبيلة جهينة راكبين على ظهر ذلولين ، وقد كنت بين الفينة والأخرى أنظر في وجهوهم الكالحة فكانت تبدو أمامي كأنها وجوه أشخاص منحوسين ليس فيها شيء قط من ملامح حسن النوايا. كان طريقنا اليوم هو الطريق نفسه الذي سلكناه في يوم الخامس والعشرين من مارس والمسمى درب الجندي ، وهناك أمام ذلك الجبل الذي وجدت فيه خلال رحلة الذهاب إلى مدائن صالح نقشاً إغريقياً (يوناني) عثرت اليوم فيه على نقش نبطي مؤداه (تحيات (سلام) عالة بن حرم) ولعل محتوى هذا النص هو بمثابة وداع لي من جزيرة العرب ومن انشغالي بجمع النقوش ، ولكن والد صاحب النص يدعى حرم ، وكلمة حرم وحرامي (لص) يتشابهان في اللفظ ويشتقان من جذر واحد ، فهل يكون ذلك نذير شؤم بالنسبة لي ؟ بينما كنا نسير في الطريق شاهدت نباتاً أبيض كالثلج وجافاً يشابه الهراوة (العجراء) العربية و يسمى البرنوق[١٥٥]. وحينما وصلنا إلى وادي العذيب وجدنا هناك حملة البنادق الذين أرسلهم سعيد لاستقبالنا ، ومنذ تلك اللحظة كان في وسعي أن أدخل مسدسي في جرابه . كانت السماء مغطاة بطبقة تشبه الضباب جعلت الأعين تتألم حينما يرتفع البصر نحو الشعاع المنبعث من السماء ، كما أدت إلى زيادة في حرارة الطقس . بعد وصولي إلى العلا مباشرة كان علي أن أقوم بشراء الأشياء المطلوبة كافة التي توقعت أن يهديني إياها سعيد ، فاشتريت تمراً ، ودقيقاً، وتبغاً، وفناجين ، وثوباً نسائياً محلياً ...الخ. بعد ذلك جاء إليّ الخادم مرزوق الذي أصبح الآن ماهراً وخبيراً باكتشاف النقوش ليخبرني بأنه خلال غيابي اكتشف ثلاثة نقوش حميرية[١٥٦] في بساتين النخيل ، فذهبت إلى هناك لاستنساخها ، ولكن تبين لي هناك أنه سبق لي استنساخ اثنين منها . وصل اليوم إلى هنا اثنان من إخوة مرافقي غضيان البلوي لكي يقوما بمرافقتنا إلى الوجه ،كان الكبير اسمه سالم ، أما الصغير فيدعى

(١٥٥) يسمى أيضاً العرجون ، وهو نوع من الفطر ينمو في الصياهد الرملية بعد نزول أمطار الوسم ويتراوح ارتفاعه بين ٥-١٥سم.

(١٥٦) الصواب معينية .

محموداً. وعند المساء كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وأثناء الليل هبت عاصفة مخيفة أثارت غبار العلا الذي ألمحنا إلى ذكره سلفاً فوق سطوح المنازل بصوره تفوق الوصف مما اضطرني إلى إنزال فراشي من هناك إلى داخل البيت .

العُـــلا - الوجـــه

الأحد ١٨٨٤/٣/٣٠ بدأت الآن أنظاري تتجه نحو الوطن ، فمنذ اليوم سأبدأ بالفعل المسير نحوه ، ولكن يجب علي ألاّ أسلم نفسي لتلك الآمال السعيدة حتى أطمئن وأتأكد أنني وصلت إلى بر الأمان . على أي حال فأنا مبتهج لمجرد أنني لن أعود إلى أوساخ بلدة العلا وغبارها مرة أخرى .

بطبيعة الحال لم ننطلق اليوم فوراً، فبعد أن انتهيت من تناول طعام الإفطار وخرجت لأمتطي ذلولي وجدت بعض الأشياء الناقصة هنا وهناك ، فالأحمال لم توضع بتوازن على ظهر البعير ، وأحد من الجمّالين لم يحضر بعد، أضف إلى ذلك أن الجمال إن بركت لم تنهض وإن نهضت لم تبرك ، كل ذلك كان مجالاً لحديث طويل يفوق الإعداد الحقيقي لمتطلبات الانطلاق . وأخيراً وبعد أن ودعنا سعيد على وجه من السرعة انطلقت القافلة المكونة مني ومن غضيان وسالم ومحمود وعبيد وأربعة من الجمال ، حيث خرجنا عبر بوابة العلا متجهين في البداية نحو الجنوب صوب وادي الجزل، ومن هناك انحرفنا باتجاه الغرب عبر شعيب أم هاشم، ولاحقاً عبر شعيب أبو بلي ، حيث توقفنا لعمل الشاي والخبز. وفي هذه الأثناء قتلت ثعباناً ساماً برصاصة من مسدسي . بعد مغيب الشمس خيمنا في وادي الحم .

هجوم يوم ١٨٨٤/٣/٣٠ بعد خروجنا من وادي أبو بلي تقدمنا بعد غروب الشمس عبر سهل كثير العشب، وإلى اليمين كان يوجد فيه مكان مكتظ بأشجار الطلح الشائكة ، فرأيت أن هذا المكان مناسب للإقامة ، بيد أن رفاق رحلتي لم يكونوا راغبين في أن نخيم في هذا المكان ، حيث فضلوا مواصلة السير خلال الليل حتى نصل إلى تلك الجبال التي يقطن فيها أفراد قبيلتهم على مسافة تتراوح بين ثلاث إلى أربع ساعات من هنا، ولكنني بعد أن هددتهم بعدم إعطائهم إكرامية تمكنت من إقناعهم بضرب المخيم في مدخل وادي الحمّ ومن ثم إعداد الأكل الذي تناولناه خلف أشجار الغضى وتحت ضوء القمر الخافت ، بعد ذلك - وقبل ذهابي إلى الفراش - جلست مع غضيان وأخيه الأصغر محمود بعض الوقت حول النار ، بينما تسلق سالم (الأخ

الأكبر لغضيان) والخادم الأعور عبيد المرتفع ليستطلعا المكان ويراقبوه ، فلم يمض سوى خمس دقائق حتى عادا مسرعين ، عبيد يرتجف من الخوف ، وسالم يحض على الإسراع في حمل السلاح ، حيث قالا إنهما شاهدا عشرة أو أحد عشر قاطع طريق بالقرب منا ، ولكنني لم أصدق ذلك في البداية، واعتقدت أن ذلك حيلة منهما أرادا من خلالها إقناعي بالمسير خلال الليل لنصل إلى خيام قبيلتهم ، لذلك كنت هادئاً ، فأعطيت السيف لسالم إضافة إلى البندقية التي كانت معه ، وبندقيتي الصغيرة (التي قام بإهدائها إلي العم جوتلوب ماير) لغضيان ، أما أنا فتناولت مسدسي وانطلقت إلى الأمام ليس عليّ سوى الثوب فقط قائلاً (يا الله، أين الكلاب ، بسم الله)، في الوقت نفسه بدأ رفاقي ينادون بأصوات عالية على أسماء أشخاص لم يكونوا معنا على الإطلاق ، هنا سألت سالماً أين الغلمان ؟ فقال انظر ، انظر هناك خلف الأشجار ، نعم لقد رأيتهم حول النار يجهزون بنادقهم ، فأطلقت ثلاث رصاصات متتالية صوب الأشجار ، ثم ناديت عبيداً ليحضر لي رصاص المسدس ، وفي هذه الأثناء أطلق سالم وغضيان النار من بنادقهم ، وبعد ذلك ساد الهدوء ، وحينما طلب مني رفاقي مزيداً من الرصاص لبنادقهم اتضح لي أنه لم يبق معي منه شيء ، ولكنني عمرت مسدسي وأطلقت نحوهم طلقة أو طلقتين ، وفي هذه اللحظة قفز غضيان صائحاً ينادي (يا بلي ، يا جهينة) ثم انطلق إلى الأمام وهو يقول لي يجب أن تركب الذلول وتواصل المسير ، وبعد برهة رجع ليخبرنا أنهم مجموعة من أفراد قبيلة جهينة وواحداً منهم أصابته رصاصة مسدسي واستقرت في رئته ، أما الثاني فيبدو أنه أصيب برصاصة من بندقية غضيان في رأسه. وحينما سألته من أين عرفت ذلك ؟ لم يرغب في الإجابة لكي لا يعترف بأن مع هؤلاء المنتمين لقبيلة جهينة أشخاصاً آخرين من قبيلة بلي ، وإن كنت أعتقد أن أولئك كلهم من قبيلة بلي ومعهم أيضاً أولئك اللصوص الثلاثة الذين قدموا إلينا في قلعة مدائن صالح ورافقونا في مسيرتنا إلى العلا . اضطررنا على إثر ذلك إلى ترك المكان ومواصلة المسير خلال الليل حتى وصلنا إلى خيام الشيخ مرزوق .

في صباح يوم الغد سمعت بعض المعلومات عن غارة ليلة البارحة ، فقد جاء إليّ غلام من

قبيلة بلي يدعى محموداً لكي يرافقنا حتى ذلك المكان المسمى طيب الاسم فذكر لي أن أولئك اللصوص الثلاثة المنتمين لقبيلة جهينة الذين حلوا علينا أثناء إقامتنا في مدائن صالح وأكلوا معنا ورافقونا إلى العلا كانوا ضمن المجموعة التي أطلقنا عليها النار ليلة البارحة . فيا ترى كم عدد الذين كانوا معهم من قبيلة جهينة وكم عدد أولئك المنتمين لقبيلة بلي ؟ هذا ما لم أتمكن من معرفته ، على أي حال - فبالنسبة لي - يكفي أن أولئك اللصوص كمنوا لنا تحت أشجار الطلح على ميمنة الطريق وبالقرب من المكان الذي كنت أريد أن أخيم فيه، ليس ذلك فحسب ، بل إنهم تعمدوا ترك جمالهم في مكان بعيد وساروا على الأقدام إلى أن وصلوا على مقربة منا ، ولكن خطتهم باءت بالفشل، وأصبح لزاماً عليهم أن ينشغلوا في تلك الليلة بدفن موتاهم ، فلتكن تلال القبور وبقع الدم وحدها شاهداً على مكان المعركة .

الإثنين ١٨٨٤/٣/٣١ لقد شاء الله في ظل غياب حماية القانون لي أن أقتل شخصاً على مرأى من إخوته وأبناء قبيلته الذين سيكون الآن واجبهم المقدس هو الثأر مني، لذلك فمنذ هذه اللحظة يجب عليَّ أن أكون حريصاً ، ولكنه لا خوف عليّ فمن حسن الطالع أنني الآن في ضيافة قبيلة صديقة لي ، وفي الوقت نفسه هي في حالة عداء دموي مع أعدائي. في الصباح ذهبت إلى خيام بني بلي، ولكنني لم أحصل منهم سوى على حليب حلو ، وهناك جاء إليّ مجموعة من شيوخ قبيلة بلي الفضوليين وكثير من فقرائهم البائسين . وحيث إنه لم يكن لديهم قهوة، وأنا أيضاً لم يبق معي منها شيء قط، اضطررت إلى أن أضيفهم بشاي خال من السكر الذي لم يكن معي منه ما يكفي . ظل هؤلاء المساكين في ضيافتي حتى قبل الظهر ، وفي هذه الأثناء انضم إليهم شخص آخر يدعى محمداً كان برفقة لصوص ليلة البارحة العشرة، حيث ذكر لي أن تلك الغارة الفاشلة كانت من تخطيط أولئك اللصوص الثلاثة الذين رافقتهم من الحجر إلى العلا، والذين كانت وجهوهم في حينه تبعث على القلق والريبة ، على أي حال لقد اعتبر الجالسون عندي ما قمت به ليلة البارحة بمثابة عمل بطولي ، كما أنهم كرموني كما يكرم الأبطال ، ولذلك طلب مني الجميع رؤية سلاحي، ولاسيما الشيخ الذي ألح علي فلم يكن بمقدوري رد طلبه . في تلك الأثناء بدأت أشعر بالجوع الذي لم يعد شرب الشاي يخفف من

وطأته ، وأخيراً وعند الساعة الثانية بعد الظهر أحضر لي مضيفي رزاً ولحماً ساعد على التخفيف من حدة جوعي . في المساء قدمت لهم الطحين، كي يقوموا بعمل خبز لي أكلته مع بعض التمر ، ثم انصرفت إلى الفراش لأغط في نوم عميق، رغم ارتفاع أصواتهم وهم يتحدثون حول النار .

الثلاثاء ١/٤/١٨٨٤؛ لقد أمضيت هذا اليوم أيضاً في ربوع ذلك المكان ، فعلى الرغم من أنني استيقظت قبل شروق الشمس رغبة في مواصلة المسير بأقصى سرعة إلا أن رفاق رحلتي لم يكونوا مستعدين لذلك، بل إنهم أبدوا رغبتهم في قضاء هذا اليوم مع ذويهم الذين شدوا رحالهم في الوقت نفسه ليغيروا مكان معسكرهم بمكان آخر يقع إلى الأمام في وادي الحمّ بالقرب من المكان الذي وقعت فيه غارة يوم الثلاثين من شهر مارس. وقد لاحظت أن البدو حينما يرتحلون من مكانهم إلى آخر لا يبتعدون كثيراً عن مقر مخيمهم السابق . وخلال الطريق توقفت مع رفاق رحلتي على جانب الطريق لنأكل بعض التمر ، وبعد استراحة قصيرة في ذلك الظل الرائع انطلقنا خلفهم لنصل إليهم في حوالي الساعة التاسعة بعد أن انتهوا من نصب خيامهم . حقاً لقد شعرت هناك وسط أفراد قبيلة بلي البائسين بالملل والكآبة . وهناك وبينما كنا جالسين عاودوا الكرة للحديث عن الغارة ، فذكر لي أحدهم أن الغلام الذي قمت بإطلاق النار عليه يدعى سليمان بن سلامة ، وأنه لقي حتفه بعد قليل أثناء الليل متأثراً بالرصاصة التي دخلت من خلال كتفه عبر رئته لتخرج من ظهره ، أما الشخص الثاني الذي أطلق النار عليه غضيان فقد مات على الفور متأثراً بالرصاصة التي دخلت من جبينه .

في صباح هذا اليوم شاهد رفاقي قبورهم وبجوارها آثار الدم ، أما أنا فلم أرغب في رؤية ذلك المكان ، ولا أدري هل كان ذلك من جراء تخوفي من رؤية الدم، أو أنه الإحساس بالخطر الذي لا يزال ينتابني ؟

ظل الشيخان مهنا الواسطي ومرشد بن رفادة يطلبان مني التبغ دون توقف ، وإن ظل الأمر كذلك فلن يبق معي خلال اليومين القادمين ما أدخنه ، إضافة إلى ذلك فأولئك الناس

تدفعهم رغبة جارفة بلمس كل شيء أمتلكه ، فقد كانت كل قطعة من ممتلكاتي تتنقل من يد متسخة إلى أخرى ، حتى شداد جملي لم يسلم منهم، وكان يلمس في اليوم أكثر من عشرين مرة، كذلك الحال أيضاً مع أبسطتي وملابسي، بل إن الثوب الذي أرتديه كان يثير فضولهم . بعد الظهر شاهدت كيف يتعلم الأطفال الرماية ، فقد كانوا يثبتون قطعة من الورق على صخرة مقابلة ثم يطلقون النار عليها، ومن خلال ما رأيته يجب أن أقول إنهم رماة جيدون ، وبالذات قدرتهم على التصويب وهم في حال الحركة . بعد ذلك بدأت أخيط ملابسي حيث قمت في البداية برقع ذلك الثقب الكبير في جيب ثوبي والذي كلفني فقدان الكثير من الرصاص، ثم جاء دور جبتي[١٥٧] (زبوني) التي وجدتها مملوءة بالثقوب من جراء تطاير شرار الجمر عليها ، ولكنني رأيت أن العمل فيها سيجهد يدي بالتأكيد ، لذلك فضلت ألا أجهد نفسي بعمل ليس له نهاية .

لقد اضطررت اليوم انتظار الأكل طويلاً ، وحيث طال انتظاري وطعام العشاء لم يحضر بعد تناولت قطعة من خبز كانت معي ثم توجهت إلى فراشي كي أنام .

الأربعاء ١٨٨٤/٤/٢ أنزلت الخيام قبل طلوع الشمس وارتحل أفراد قبيلة بلي باتجاه الجنوب الشرقي ، ذلك الرحيل الذي لم أحزن له، بل أتبعته بلعنة خرجت من بين شفتاي دون أن يسمعها أحد ، أما نحن وأعني بذلك غضيان والشيخ مرشد وعبيد ومحمد الذي كان في ليلة الغارة يرافق أولئك اللصوص العشرة والمنتمين لقبيلة جهينة فقد أقمنا لفترة من الوقت هناك لانتظار قدوم قافلة تتكون من ستة جمال سيرافقوننا في المسير إلى الوجه، حيث يريدون هناك بيع الزبد والسمن ونحوه ، وبثمنه يشترون بضائع أخرى. في تلك الأثناء وبينما كنا نأكل التمر والخبز ونشرب الشاي لاحت لنا بشائر القافلة من بعيد، فانطلقنا مباشرة باتجاه الغرب عبر وادي مغيرة ثم خلال ممر منخفض ، وصلنا بعده مرة أخرى إلى وادي الحمّ مروراً بمخيمنا في يوم الثلاثين من شهر مارس ، ومن وادي الحم دخلنا عبر وادي الشلول ، وهناك عند مورد ماء يسمى (أبو حمادة) شربنا الشاي وأكلنا معه بعض الخبز ، ثم ملأنا

(١٥٧) الجبة هي المعطف الطويل .

القرب واتجهنا إلى الأمام . كانت السحب تحجب شعاعَ الشمس ، والهواءُ حار، والذباب كثير ومزعج ، ومن المدهش حقاً أن الجمال رغم كثرة وبرها إلا أنها أكثر إحساساً بمضايقة الذباب من الخيول ، فهي تستغل أي فرصة لتقوم بحك أنوفها بأخشاب الأشجار، بل حتى بمؤخرات بعضها البعض رغبة في إبعاد الذباب عنها.

كانت الريح تهب بقوة بين الفينة والأخرى ، كما بدأت السماء تظلم ونحن نسير عبر وادي شرهوت ، لذا أقمنا مخيمنا في وادي الرباعة عند مكان يسمى الحمير ، فعملنا هناك الخبز وأكلنا التمر وشربنا الشاي . كانت الأمطار قد بدأت بالهطول منذ مغيب الشمس وأخذت تتزايد أثناء الليل ، وذلك ما جعلني أقلق كثيراً على بصمات نقوشي التي كان بعضها ملفوفاً بالورق، وموضوعة في ثوب داخل محفظة (مزوده) شداد قديمة، وقد كنت مع بداية هطول المطر قد غطيتها ببساط كان معي ووضعت فوقها غطاء نومي (بطانية) ، نعم فهي أثمن شيء أحضره معي من رحلتي إلى جزيرة العرب ، كما أنها تستحق كل اهتمام مني كما تهتم الأم برضيعها وكما يهتم العربي بجواده .

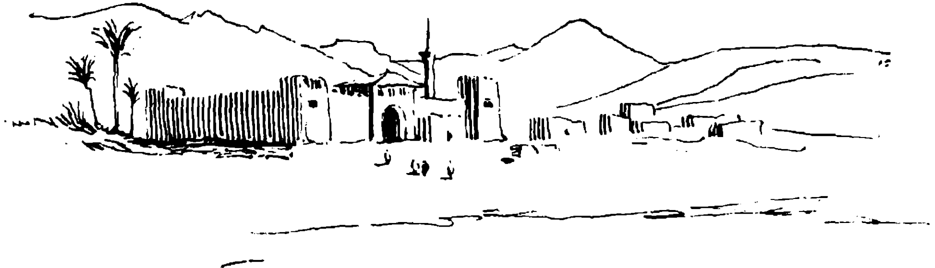
الخميس ١٨٨٤/٤/٣ بعد أن شربنا الشاي انطلقنا فوراً فلا مجال اليوم للتريث ، إذ يجب عليّ أن أقطع مسافة جيدة تقربني من نقطة النهاية، وتخلصني من رفاق رحلتي الذين ضقت ذرعاً بطول معاشرتهم ، حيث اتجهنا عبر ممر صخري يسمى النقرة ثم نزلنا في وادي فري، وبسبب انحدار الطريق هناك ترجلت من على ظهر راحلتي . بعد أن عبرنا وادي قميلة خيمنا عند مورد ماء يسمى المليحة بعد ثلاث ساعات من السير المتواصل ، وهناك أعددنا الخبز وأكلنا التمر وشربنا الشاي . وبعد الظهر صعدنا ممراً يسمى طيِّب الاسم ، وهذه التسمية بهذه الصيغة أو بصيغتها المختصرة (الطيب) معروفة كاسم مكان في كثير من البلاد العربية الأخرى ، هنا شاهدنا الماء يجري من خلال الوادي وبعض أشجار النخيل المهملة . بعد ذلك أخذ الطريق في الانحدار بشكل عجيب نحو الشعيب مما جعل الجمال تواجه صعوبة بالغة في المسير . بعد ذلك مررنا عبر مكان يسمى جدل السدرة ثم عبر وادي القدير مروراً بالقرب من جبلين ذوي أشكال رائعة يسميان غلاب والثنية ، وحينما وصلنا مكاناً يسمى الصفاح أقمنا مخيمنا للنوم .

الجمعة ١٨٨٤/٤/٤ لنسرع الآن إلى الأمام ، يا إلهي ! لم يبق سوى يوم واحد ومخيم واحد معكم أيها الأوغاد ، إنه يوم الغد ، آخ ! إن سعادتي تفوق التصور ، حقاً فالآن ليس لدى إحساس يعينني على تأمل الطبيعة ، أو إدراك ما يجري من حولي ، أريد المسير إلى الأمام فقط لأتمكن من التخلص من هؤلاء الأشخاص الذين يثيرون في كل لحظة ومع كل نظرة الاضطراب في نفسي . انطلقنا مع شروق شمس هذا اليوم ، وبعد طلوع الشمس شاهدنا أمامنا الكثير من الحمام البري والعديد من الأرانب ، في هذه الأثناء وبينما نحن نسير بدأ رفاق رحلتي يتفحصون بجد بعض فضلات الجمال (دمن) الحديثة مما جعل سعادتي تلك تنحط إلى الحضيض ، وحينما انحدرنا إلى أحد الشعاب قمنا بإرسال عبيد بالقرب ليملأها بالماء، وهنا سمعنا على حين فجأة أصواتاً بشرية ، فمن هم أولئك ؟ هل هم من قبيلة جهينة يقتفون أثرنا ؟ هل هم ممن يسعون للثأر مني ؟ هل سيذهب كل جهدي هباءً، وبالذات في اللحظة التي أرى فيها شاطئ الأمان أمامي ؟ كلا ، فسأظل من أجل البقاء . في أثناء ذلك طلب مني غضيان مجيديين اثنين، لكي يعطيها للأعداء كوسيلة لإضعاف هممهم في حال الضرورة ، ولكنه بمجرد أن أخذها مني تبين أن أصحاب القافلة من قبيلة عنزة ويريدون الذهاب أيضاً إلى الوجه ، وقد كان الشيخ وغضيان الذي احتفظ بالنقود يعرفان أكثر أفراد القافلة . كانت قافلة عنزة تتكون من مائة وثمانين جملاً، ويريدون كمرافقينا بيع الزبد ونحوه هناك، ويشترون مقابله الرز والقهوة ... إلخ ، بعد ساعة من المسير استرحنا بعض الوقت، ثم انطلقنا مع أولئك الرجال الذين ظلوا يرددون قائلين هيك ، هيك، متبعينها ببعض الأهازيج المفزعة . كان الطريق أمامنا يسير على وتيرة واحدة ، وفي المساء - وبينما كنا جالسين حول النار - تعمد أرباب تلك القافلة الإطالة في الحديث، والتعرض لمواضيع متعددة أملاً منهم أن نقدم لهم القهوة والتبغ اللذين لم نكن نملك منها شيئاً قط ،وحينما طال بهم الانتظار انصرف الكثير منهم وخيبة الأمل تبدو واضحة على وجوههم ، ولم يبق حول النار منهم سوى شيخ طاعن في السن وثلاثة من بني بلوي كانوا على صلة قرابة بأولئك اللصوص الخمسة الذين

ترصدوا لصديقي هوبر في مدائن صالح . وقد سألوني هل صحيح أن هوبر يملك بندقية ذات عشرين طلقة ؟ فقلت لهم كلا ، إنه يحمل بندقتين كل واحدة فيها ثلاثون طلقة ، إضافة إلى بندقيتي التي تركتها معه . في المساء نزل كثير من الطل (الندى) مما جعلني أقلق كثيراً على بصمات نقوشي .

السبت ١٨٨٤/٤/٥ تم قبل ساعة من شروق الشمس إعداد القافلة للتحرك ، وبينما كنا نشرب الشاي على وجه من السرعة شاهدت هناك طيور النورس ، مما جعل سعادتي تفوق الوصف ، فهذه الطيور الحبيبة تحمل معها بشائر السعد ، فلها مني الشكر الجزيل على جلبها تحية البحر لي. لم نحط الرحال لتناول طعام الإفطار إلا بعد أن قطعنا مسافة طويلة . والآن انتهى الاكتفاء فقط بالوجبة المعهودة (خبز ، تمر ، شاي)،إذ يجب علي وبكل ثقة إخراج ما لذ وطاب مما ادخرته ليوم الضيق ، الآن إلى التمتع بشرب الشوكلادة وأكل البسكويت .

وصلنا حوالي الظهر إلى شعيب ضيق يسمى الذريب تزودنا من منابعه بالماء وأسقينا منه الجمال ، ثم انصرفنا على عجل ، وحينما خرجنا من ذلك الشعيب لاحت أمامنا قلعة الوجه الواقعة على درب الحج المصري ، وما هو إلا وقت قصير حتى وصلنا إليها ، وبعد ساعتين كانتا



قلعة الوجه

تمران ثقيلتين كدهر كامل وصلنا إلى ميناء الوجه التابع للسيادة المصرية[١٥٨]. ياله من شعور. لقد رأيت البحر مرة أخرى ، حقاً إن نعمة الماء التي وهبها الله لنا لا يقدرها سوى من عايش القحط والعطش في الصحراء ومن لم ير طوال أشهر عديدة نهراً أو واديا أو عيناً جارية . حقا إن المشاعر لتغمرها السعادة والبهجة . لقد أدى اقترابنا من ميناء الوجه إلى انفتاح صدري المتصحر ، فهنا أشاهد أمامي البحر ، وبعض الأعمدة وشخصاً راكباً حصانه ، و رأيت أيضاً الطربوش والمعطف المصري والثياب النظيفة، يا إلهي ما هذه المفارقات !؟

وفي هذه اللحظة أصبحت نقوشي في مأمن ، ولم يعد هناك من الناس من أخشاه، حقاً إن سعادتي لا توصف .

(١٥٨) ضم الملك عبدالعزيز -طيب الله ثراه - الوجه في عام ١٣٤٤هـ .

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

فهرس الأمكنة

فهرس الأمكنة

- ب -

- ح -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

المحتويات

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧



هذا الكتاب

يعد هذا الكتاب أول ترجمة عربية ليوميات رحلة المستشرق الألماني (يوليس أويتنج) الى الجزيرة العربية التي بدأها بوصوله الى (كاف) في ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٣م، وانتهت بمغادرته ميناء (الوجه) في يوم ١٤ أبريل ١٨٨٤م. وقد زاد الرحالة العديد من الأماكن منها كاف، والجوف، وحائل، وتيماء، وتبوك، والحجر "مدائن صالح"، والعلا. وتلقي هذه الرحلة الضوء على جوانب متعددة من تاريخ هذا الجزء من الجزيرة العربية والحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة في ذلك الوقت.

رقم الردمك: ٩٩٦٠-٦٩٣-٢١-X
ISBN: 9960-693-21-X

